من تراث الغماري

خــواطر دينية

لأبي الفضل
عبد الله بن محمد بن الصديق
الحسني الغماري الإدريسي
عفا الله عنه ووفقه

الجزء الأول
عليه تعليقات للمؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثالثة

٢٠٠٤ م ـ ١٤٢٥ هـ

لمكتبة القاهرة

على يوسف سليمان وأولاده

١٢ ش الصنادقية بالأزهر ت: ٥٩٠٥٩٠٩

١١ درب الأتراك خلق الجامع الأزهر ت: ٥١٤٧٥٨٠

ص . ب :٩٤٦ العتبة ـــ القاهرة

جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

هــذه خواطــرُ دينــية	جــاءت بفضــل إلَهيةْ
وفوائــــدٌ حـــررتُها	وبحــوثُ عــلم عالــيةْ
أنبطـــــنُها بقــــريحتى	فــبدت جواهــر عاليةْ
وبســـطتُها بعـــبارتى	فغــدتْ قطوفــاً دانــيةْ
خُذْهَــا إلــيكَ بهمّــةِ	واطلــبْ لى محوَ ذُنوبيهْ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، قيوم السموات والأرضين، والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين، سيدنا محمد وآله الأكرمين، ورضى الله عن صحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد:

فهذه ورقات كتبت فيها ما سنح لى من بحوث تتعلق بآيات من كتاب الله تعالى، وأحاديث نبوية وغير ذلك من المسائل العلمية، واعتمدت فيها على حفظى وفهمى، إذ لم يكن لدى حين كتابتها مرجع علمي يرجع إليه، إلا تفسير الجلالين، وسيجد القارئ فيها تحقيقات نفيسة وفقت إليها، وحلاً لإشكال فى بعض الآيات لم يهتد كثير من المفسرين إلى حله، واستنباطات ما سبقت إليها، ولا غلبت بفضل الله عليها، ولم أراع فيها التنسيق والترتيب لأنى أردت أن أسجل ما جال بفكرى من تلك المسائل كما اتفق، وافتتحتها برسالة فى معنى الإيمان المنجى يوم القيامة، لأثبت عقيدتى التى هى عقيدة الفرقة الناجية، تأسيساً بمن فعل ذلك من العلماء قبلى، ولأنى رأيت كثيراً من المسلمين فى هذا العصر لا يفهمون معنى الإيمان حق الفهم، فيغلطون فى بعض أركانه غلط يؤدى إلى خدش فى عقيدتهم وهم لا يشعرون، وفى ذلك خطر كبير لو كانوا يعلمون .

والله أسأل، وبنبيه إليه أتوسل أن يسددنى ويوفقنى ويعجل بتفريج كربتى، أنه قريب مجيب .

الحمد لله المتفرد بالعظمة والكبرياء المنزه عن الأنداد والشركاء والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء. ورضى الله عنه آله وأصحابه السادات الأتقياء .

هذه كلمات تبين أركان الإيمان المنجى يوم القيامة عند الله تعالى، وهى ستة:

١ ـ الإيمان بالله سبحانه

يجب على المكلف ذكراً أو أنثى أن يعتقد بقلبه اعتقاداً جازماً لا يخالطه شيء من الشك أو التردد بأن الله إله واحد أحد فرد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .. ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

تنزه عن النقائص والآفات، وتعالى عن سمات المحدثات، لا يمر عليه زمان ولا يحويه مكان، بل هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، كان ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان، ثم أوجد المخلوقات كلها من غير احتياج إليها، ولو شاء سبحانه ما أوجدها، كل ما سواه فقير إليه، وهو الغنى الحميد، ولا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية إن تكفروا فإن الله غنى عنكم و لايرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم .

لا يقع فى ملكه إلا ما يريد، فلا إيمان، ولا كفر، ولا طاعة ولا معصية، ولا مصيبة كبرت أو صغرت، ولا نعمة دقت أو جلت، إلا بإرادته ومشيئته ﴿ **وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾(النحل: ٥٣) ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾(الحديد: ٢٢) ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾(الرحمن: ٢٩): يهدى ويضل، يعز ويذل، يشقى ويسعد، ويقرب ويبعد، ويعطى ويمنع، ويضر وينفع، ويخفض ويرفع، لا ملجأ إلا إليه، ولا اعتماد إلا عليه، حى قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم .

تفرد بالبقاء، وكتب على خلقه الفناء، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عددا، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، ويطلع على مكنونات الضمائر، وما يعزُب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا اصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين، وسع سمعه الأصوات، وعم بصره الموجودات سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، قدرته عامة، وإرادته شاملة، وحكمه نافذ. له ما فى السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، والصفات العلي، وسعت رحمته وعمت نعمته، وتوالى على عباده جوده وفضله، بيده الملك والملكوت، وهو رب العزة والجبروت، يجيب المضطر إذا دعاه، ويقبل التوبة ممن عصاه، لا يحفيه سؤال سائل، ولا يثقل عليه أنالة نائل، ولا يشغله شأن عن شأن آخر من الشئون، ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾(يس: ٨٢) ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾(يس: ٨٣) .

٢ ـ الإيمان بالملائكة

وأن الملائكة عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، مخلوقون من نور، أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينامون ولا يتناكحون، ولا يتناسلون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، منهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ومالك خازن النار، ومنهم حملة العرش، والحافون حوله، وسكان السموات، وخزنة الجنة. وخزنة النار، والكرام الكاتبون، والحفظة للإنسان، ومنهم غير ذلك، وكلهم رسل معصومين، قال الله تعالى ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ﴾(فاطر: ١) وليس فيهم عوام، بل كلهم خواص، وفيهم فاضل وأفضل، وهم أفضل من البشر جميعاً إلا الأنبياء، ومن قال خلاف هذا بأن فضل عليهم بعض الصحابة أخطأ خطأ فاحشاً، وقد أعطى الله للملك منهم القدرة على الأعمال العظيمة التى لا يستعملها الإنس والجن مجتمعين .

* * * * *

٣ ـ الإيمان بالرسل

أن الله تعالى ـ رحمة بعباده ـ أرسل لهم رسلاً منهم، أختارهم من أشرف العناصر، وأكرم القبائل، مطهرين من سيئ الأخلاق، ورذائل الأعمال، معصومين منذ نشأتهم من الكذب والخيانة وسائر المعاصى، جاءوا يدعون الناس إلى توحيد الله وعبادته، وأيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم فيما يقولون .

إذ معجزاتهم كقول وبرّ ... صدق هذا العبد فى كل خبر

وأهلك مكذبيهم بأنواع من العذاب، وهم كثيرون، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾(غافر: ٧٨) والمذكور منهم فى القرآن: آدم .. إدريس .. نوح .. هود .. صالح .. إبراهيم .. لوط .. إسماعيل .. اسحق .. يعقوب .. يوسف .. شعيب .. موسى .. هرون .. يونس .. أيوب . اليسع . إلياس .. داود .. سليمان .. زكريا .. يحيى . عيسى . ذو الكفل . محمد . صلى الله عليهم وسلم جميعاً .

وثبت فى حديث: أنهم ثلاثمائة وبضعة عشر، وأن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والنبى من ليس له شريعة، أو ليس له كتاب، والإيمان بهم جميعاً واجب، فمن لم يؤمن بواحد منهم فهو كافر مخلد فى النار أبداً، قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ

سَبيلاً * **أُولَـئِكَ هُـمُ الْكَافِـرُونَ حَقّاً** ﴾(النساء: ١٥٠-١٥١) وقال تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُـمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً** ﴾(الأحزاب: ٦٤-٦٥) وليس فيهم امرأة، ومن ذكر فى الأنبياء بعض النساء مثل أم موسى وأم عيسى استناداً إلى أنه أوحى إليهما وهم فى ذلك .

لأن ما أوحى إليهما إنما هو بشارة ووعد بخير. ومثل هذا يحصل للصالحين. كما صح أن عمران بن حصين ﷺ كانت الملائكة تسلم عليه. وقد قال الله تعالى فى مريم **وأمه صديقة** وهو نص فى أنها غير نبيه .

ثم أن الرسل والأنبياء تجرى عليهم الأعراض البشرية من أكل ومقتضياته، ومعاملة بالتجارة وما شابهها. ومرض غير منفر، وما يحكى عن مرض أيوب عليه السلام تشويهات إسرائلية، يتنزه منصب النبوة عنها، وأفضل الرسل نبينا ﷺ، يليه إبراهيم عليه السلام. يليه موسى عليه السلام[1] يليه عيسى عليه السلام، يليه نوح عليه السلام وهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل، قال تعالى ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ﴾ (الأحزاب: ٧) وقال سبحانه ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾(الشورى: ١٣) ومما يجب اعتقاده أيضاً ويكفر منكره، لوروده فى القرآن الكريم: أن الله اتخذا إبراهيم خليلاً، وكلم الله موسى تكليماً، وأن عيسى لم يقتل ولم يصلب ؛ بل رفعه الله إليه، وأن نبينا محمد ﷺ رسول الى العالمين الإنس والجن، وأنه خاتم النبيين، قال تعالى ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾(الفرقان: ١) وقال سبحانه ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ (الأحزاب: ٤٠) وأن الإسلام هو دين الله فى الأرض، ولا دين لله سواه، وأن معتنق غيره من الأديان كافراً؛ لا يقبل منه عملاً، وأن مصيره إلى النار، قال الله تعالى ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلامُ** ﴾(آل عمران: ١٩) وقال ﷻ ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً** ﴾ (المائدة: ٣) وقال سبحانه ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾(آل عمران: ٨٥) وقد سمى الله أهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ كفاراً فى سورة البقرة والنساء والحشر والبينة وغيرها. وكفرهم واضح. لا خفاء فيه .

****

(١) يلى هؤلاء الثلاث. الملائكة: فهم أفضل من عيسى ونوح وبقية الرسل عليهم جميعاً صلوات الله .

٤ ـ الإيمان بالكتب

وأن الله تعالى أنزل كتباً وصحفاً وذكر منها صحف إبراهيم وموسى، والتوراة أنزلها على موسى، والزبور على داود والإنجيل على عيسى، والقرآن ختام الكتب السماوية وأفضلها والمهيمن عليها، سماه الله كتاباً وذكراً وحكيماً وهدى ونوراً وشفاء ورحمة وروحاً وتنزيلا، إلى غير ذلك من الأسماء، وذلك دليلاً على علو قدره، وقد تحدى الله به الأنس والجن وأخبر أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو معجز من جهة نظمه، وأسلوبه، وروعته التى تأخذ القلوب، وباستطراداته البديعة، وبما فيه من الأحكام التشريعية، والأخبار الوعظية، والحقائق العلمية، وغير ذلك مما لاستقصائه موضع غير ذلك .

* * * * * *

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر

وأن الخلق بعد فنائهم مبعثون فمحشرون للعرض على الله تعالى، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وهو يوم عسير على الكافرين، يسير على المؤمنين . هناك يعطى كل واحد كتاب أعماله، يقرأه بنفسه قارئاً كان أو غير قارئ، فيجد فيه ما فعله منذ بلوغه إلى وفاته من خير وشر ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾(الكهف:٤٩) والمؤمن يأخذ كتابه بيمينه، والكافر يأخذه بشماله من وراء ظهره، وتوازن الأعمال فى ميزان له لسان وكفتان، فمن ثقلت موازينه بأن رجحت حسناته فاز وربح، ومن خفت موازينه بأن رجحت سيئاته خسر وهلك، ويمر الناس على الصراط وهو على متن جهنم، فناج مسلم، ومخدوش مكردس فى ذلك اليوم العظيم الهول، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾(عبس:٣٤-٣٧) فى ذلك اليوم يتفرق الناس، فأصحاب اليمين إلى الجنة، وأصحاب الشمال إلى النار .

وقد وصف القرآن الكريم ـ بإفاضة وإسهاب ـ هول يوم القيامة وما يحصل فيه، كما وصف النار وأنواع عذابها، وحذر منها .

ووصف الجنة ونعيمها وشوق إليها، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها من غير سابقة عذاب. وأصحاب الجنة خالدون فيها أبدا، وأصحاب النار خالدون فيها أبداً، أما عصاة المؤمنين الذين لم يتوبوا، أو لم تقبل توبتهم فيعذبون فى النار بقدر عصيانهم ثم يخرجون منها إلى الجنة، بشفاعة النبى ﷺ، أو الملائكة، أو بعض إخوانهم المؤمنين، أو بمجرد رحمة الله ﷻ، ومن عصاة المؤمنين من لا يدخل النار اصلاً، بشفاعة النبى ﷺ، أو بعفو الله ﷻ .

ومـن الدلـيل على أن عصاة المؤمنين لا يدخلون فى النار قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾(الزلزلة: ٧) أى يـرى ثوابـه، ولا شـك أن الإيمـان خير، بل هو أصل الخير، فـالمؤمن العاصـى لابد أن يخرج من النار ليرى ثواب إيمانه، ولا يجوز العكس، لأن من يدخل الجـنة لا يخـرج منها، قال الله تعالى ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾(الحجـر: ٤٨) والدواب والطير وسـائر العجمـاوات محشورة، لقوله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾(الأنعام: ٣٨) ليقتص لها مـن بعضـها لبعض كما صح فى الحديث { لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى أنه ليقاد للشـاة الجمـاء مـن الشـاة القـرناء } أى تعطى قروناً تنطحها عليها بها كما نطحتها القرناء فى الدنـيا، وليقـتص لهـا من الإنسان الذى قسا عليها بضرب، أو حملها ما لا تطيق، أو قتلها ولم تكـن ممـا أذن فـى قتـلها، وبعـد انـتهاء القصـاص يقال لها: كونى تراباً فتكون، فهناك يقول الكافـر: يـا ليتـنى كنـت تـراباً، ومـن زعـم أن بعـض الحـيوانات مـثل ناقـة صـالح، وكـبش إسماعيل، وكلب أهل الكهف يدخل الجنة، وهَمَ وهْماً شنيعاً، وقال ما لا دليل عليه[1] .

تنبـيه: الجـن مـثل الإنسـان فيما تقدم، فكافرهم يخلد فى النار، وعاصيهم لا يخلد فـيها، ومؤمـنهم يدخل الجنة، لأنهم مكلفون مثلنا، وفى سورة الرحمن وجه الخطاب إليهم مع الأنس مقترنين فى الإنذار بالنار وعذابها، والبشارة بالجنة ونعيمها .

وإلى هـذا ذهـب الأئمـة الـثلاثة والجمهـور ونسـب إلى أبـى حنيفة أن مؤمنى الجن لا يدخلـون الجـنة، وأن جـزاءهم أن يجـاروا مـن الـنار، ثم يصيرون تراباً، وهذا القول يخالف القرآن الكريم، وقواعد الشريعة .

* * * * * * * *

٦- الإيمان بالقدر

وأن القـدر كلـه، خيره وشره، حلوه ومره، واقع بإذن الله تعالى حسبما سبق فى علمه القديم، قـال تعـالى ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾(التوبة: ٥١) وقال سبحانه ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾(الحديد: ٢٢) وقـال النبى ﷺ فى وصيته لابن عباس { وأعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وأن ما أصابك

---

(١) للشـيخ حسـن الجـبرتى شـعر فـى الحـيوانات التى تدخل الجنة ذكرها ابنه الشيخ عبد الرحمن فى ترجمته (عجائب الآثار) وجاء فى حديث موضوع أن ذئباً يدخل الجنة لأنه أكل .

لم يكن ليخطئك } ولا ينفع الاحتجاج به فى دفع عقاب المعصية، فقد حكى الله عن الكفار فى سورة الأنعام والنحل وغيرهما أنهم يحتجون بالقدر، ولكن لم يقبل منهم، لأن الله تعالى أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وبين طريق الشر، فلم يبق للمكلف حجة يحتج بها. والقدر غيب لا يعلم إلا بعد وقوعه، والمكلف يعاقب على إقدامه على الشر باختياره قبل أن يعرف أنه مقدر عليه، فلا تكون المعرفة اللاحقة ذات أثر رجعى يبطل العقاب على الإقدام السابق، كذلك لا يجوز ترك العمل النافع فى الدين والدنيا، اتكالاً على أن ما قدر لابد أن يكون، ومن فعل ذلك يكون مفرطاً آثماً، وسر القدر مما اختص الله بعلمه، لم يطلع عليه أحد من خلقه، وإنما يطلعهم عليه بعد دخول الجنة .

فهناك فقط ينكشف لهم الحجاب عما كان منه خفياً، والكلام فى القدر اشتغال بما لا يعنى، والاحتجاج به عجز وسفه، والاتكال عليه تفريط وإهمال، فعلى المؤمن أن يسير على هدى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال { المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍّ خيرٌ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وأن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان } فهذا الحديث يوجب عليك العمل والحرص على ما ينفعك، وينهاك عن العجز والكسل، فإذا فعلت ذلك وجانبت الكسل والتفريط، ثم اصابك إخفاق مثلاً، فذاك مرجعه إلى القدر، لا إليك، فلا تحاول أن تتعب نفسك وفكر بقولك: لو فعلت كذا، كان كذا، فتلك محاولة من وسوسة الشيطان وإيحائه، ليحزنك، فلا تصغ إليه، ولكن قل: هذا قدر الله، وما شاء فعل، وهكذا يجب على المؤمن إذا أصابه شىء خارج عن إرادته، غير ناشىء عن تفريط منه، أن يرده إلى قضاء الله وقدره، فبذلك يطمئن قلبه، وتهدأ نفسه، ويستريح باله، هذه أركان الإيمان المنجى عند الله تعالى، ذكرتها ملخصة مبسوطة، خالية من المصطلحات العلمية، والمسائل الخلافية ليسهل فهمهما على الناس بشتى مستوياتهم، فاعرض إيمانك عليها، فإن وجدته مطابقاً لها فتمسك به، وأحمد الله عليه، وإن وجدت فيه مخالفة لها أو لبعضها فنصحح إيمانك وعقيدتك. فبغير هذه الأركان لا يصح إيمان، والله المسئول أن يقبل هذا العمل، ويجعله سبباً فى التعجيل بتفريج كربتنا التى لا يفرجها غيره، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

****

تلازم أركان الإيمان

وهذه الأركان متلازمة شرعاً، بمعنى أن الإيمان ببعضها يستلزم الإيمان بسائرها. وإذا وجدت القرآن اقتصر على بعضها، فليس لأنه يكفي في الإيمان كما فهم بعض المعاصرين خطأً. بل يستلزم بقية الامكان في عرف الشرع، فقوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾(البقرة:٦٢) فهم منه بعض الناس أن الإيمان بالله واليوم الأخر يكفي في النجاة، ولا يشترط الإيمان بالرسل، وحاول أن يصدر ذلك فتوى من الأزهر ليبني عليها ما كان يرمي إليه من توحيد بين الأديان الثلاثة، ولكنه عورض معارضة شديدة، ردته عما كان يريد، وذلك الفهم منه يدل على أنه لم يخبر قواعد الشرع، ولا عرف أسلوب القرآن الكريم، ولو تأمل وأمعن لأدرك أن الآية الكريمة سلكت أسلوب الاكتفاء وهو من فنون اللغة العربية، وذلك أن الإيمان بالله واليوم الأخر يستلزم الإيمان بالرسل، وببقية الأركان، لأننا لم نعرفها إلا عن طريق الرسل، فالإيمان بهما ملزوم، والإيمان بالرسل لازم، ولا يعقل وجود ملزوم بدون لازمة، ثم إن الإيمان بالرسول الواحد يستلزم الإيمان بجميعهم، كما أن تكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ** ﴾(الشعراء:١٠٥) ﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ** ﴾(الشعراء:١٢٣) ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ** ﴾(الشعراء:١٤١) ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ** ﴾(الشعراء:١٦٠) ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾(الشعراء:١٧٦) مع أن كل قوم من هؤلاء كذبوا رسولهم فقط، فدل على أن تكذيب رسول تكذيب للجميع، ثم أن الآية مع هذا ذكرت وصفاً يستلزم ـ شرعاً ـ الإيمان بجميع الرسل أيضاً، هو قوله تعالى ﴿ **وَعَمِلَ صَالِحاً** ﴾ والعمل الصالح يختلف باختلاف شرائع الرسل، قال تعالى ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً** ﴾(المائدة:٤٨) فرب عمل صالح في شريعة يكون محرماً في شريعة بعدها، كما يعلم بالموازنة بين شرائع الأديان السماوية، إذن فسبيل من يريد النجاة من اليهود والنصارى وغيرهم أن يؤمن بجميع الرسل، ويعمل صالحاً في شريعة الإسلام. والدليل على ما قدمناه قوله تعالى ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾(التوبة:٢٩) أخذت الآية بأن أهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر، لماذا؟ لأن اليهود لا يؤمنون بعيسى ومحمد عليهما السلام، والنصارى لا يؤمنون بمحمد ﷺ، فصح نفي الإيمان بالله واليوم الأخر في حقهم شرعاً، لانتفاء لازمه، ولا تعتبر دعواهم بلسانهم، لأن الحقائق الشرعية يرجع فيها إلى عرف الشرع .

وهـذا كمـا لـو صـلى أحـد بدون وضوء مثلا، فإن الشرع لا يعتد بصلاته تلك، ويعدها باطلـة، وإن كـان هـو فـى الواقـع قد فعل أفعال الصلاة من قيام وقراءة وركوع وسجود، ومن القواعـد المقـررة: أن المفقـود شـرعاً كـالمفقود حسـاً، وهـذا واضـح لا خفـاء فـيه . لكن بعض المعاصـرين زعـم أن الآية سلكت سبيل المبالغة، وهذا زعم باطل يدل على ضعف صاحبه فى فهم القرآن الكريم، وخلو وفاضه من قواعد علم الشريعة، والدليل عليه أمور:

الأول: أن الآية أمرت بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، ففيها وجوب قتالهم، وأخذ الجزية منهم، والأحكام الشرعية لا تنبنى على المبالغة .

الـثانى: أن الله لم يكـن ليبـيح دمـاء أهل الكتاب وأموالهم، بناء على مبالغة يصفهم بها، فلولا أنهم يستحقون ذلك بوصفهم المذكور ما أمر به .

الثالـث: أن الآيـة وصـفتهم بـأنهم لا يحـرمون ما حرم الله ورسوله، أى كالخمر والخنزير، وهذا حق لا مبالغة فيه، وبأنهم يدينون فى دين الحق، أى الإسلام، وهذا أيضاً حق لا مبالغة فيه

الـرابع: أن المـبالغة مـن أصـلها غير موجودة فى كلام الله ورسوله، لأنها كذب، نبه عليه ابن القيم فى كتاب (الفوائد) .

الخـامس: وهـو منشـأ غلطـة فـى فهـم الآيـة ـــ: أنه اغتر بقول أهل الكتاب: أنهم يؤمـنون بـالله والـيوم الأخـر، فاعتـبر نفـيه عـنهم فـى الآيـة من قبيل المبالغة تحريضاً على قتالهم، لكنه غفل عن أشياء:

إحداها: فقدانهم لبعض أركان الإيمان كما سبق بيانه .

ثانيها: أن ذلك أفقدهم حقيقة الإيمان الشرعية، وأن ادعوها بلسانهم .

ثالـثها: أن الآيـة قصـدت ذلـك، لا غـيره، حيـث أمرت بقتالهم، وهو حكم شرعى وبنته على ثلاثة أسباب شرعية:

الأول: فقدهم الإيمان الشرعى .

الثانى: عدم تحريمهم ما حرم الله ورسوله .

الثالث: عدم اعتناقهم الدين الحق هو الإسلام .

فلـو كـان لذلك المعاصر فهم وتذوق لقواعد الشريعة لأدرك أن الآية لا علاقة لها بالمبالغة

أصلاً، وقد كنت ألفت رسالة سميتها ((التحقيق الباهر فى معنى الإيمان بالله واليوم الآخر)) ذكرت خلاصتها فى هذا الموضع، وبالله التوفيق .

****

تأبيد الكفار فى النار

صرح الله بتأبيد خلود الكفار فى النار فى ثلاثة مواضع من القرآن الكريم:

الأول : قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾(النساء: ١٦٨-١٦٩)

الثانى: فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾(الأحزاب: ٦٤-٦٥) .

الثالث: فى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾(الجن: ٢٣) .

الآية الأولى فى سورة النساء، والثانية فى سورة الأحزاب وهما مدينتان، والمراد بالكفار فيها أهل الكتاب، والآية الثالثة فى سورة الجن، وهى مكية، والمراد بالعاص فيها المشرك، وبذلك يكون القرآن الكريم صرح بتأبيد خلود الكفار فى النار بجميع طوائفهم: كتابيين ومشركين، فمن زعم أن بعض الكفار لا يخلدون فى النار، فقد ألحد فى دين الله، وعارض كتاب الله .

هذا ومن الصيغ الدالة على التأبيد أيضاً:

١ ـ قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾(النساء: ٥٦)

٢ ـ قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾(الإسراء: ٩٧) .

٣ ـ قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾(الحج: ٢٢) .

٤ ـ قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾(السجدة: ٢٠) لأن كلما تدل على الدوام والتكرار، وهو معنى التأبيد .

٥ ـ قوله تعالى ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾(الأعراف: ٤٠) . ودخول الجمل فى أبرة الخياط محال. فدخول الكفار للجنة محال، منهم مؤبدون فى النار .

٦ - قولـه تعـالى ﴿ وَالَّذِيـنَ كَفَـرُوا بِآيَـاتِ اللَّـهِ وَلِقَائِـهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ (العنكبوت:٢٣) . أى جنتى، فيأسهم من دخول الجنة تأييد لهم فى النار .

****

عيسى عليه السلام لا يشفع للنصارى

قـول عيسـى عليه السلام - مجيبـاً الله تعـالى - ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُـمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ ﴾(المائدة:١١٨) . سـئلت من بعض أهل العلم[١] لِمَ لم يقل: فإنك أنـت الغفـور الرحيم، مع أنه أنسب؟ فأجبت: لم يقل ذلك لئلا يكون مستشفعاً لهم، وهم لا يستحقون الشفاعة لكفرهم، والله ولي التوفيق .

****

من صيغ الوجود

من الصيغ المفيدة للوجوب فى القرآن، وقوع المصدر أو أسمه فى جواب شرط ملفوظ أو مقـدر، مـثال ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِـهِ ﴾(النسـاء:٩٢) مـن اسم شرط، ، وقتل فعل الشرط، وتحرير مصدر واقع فى جوابه، ودية معطوف عليه، فالأعتناق والدية واجبان[٢] بهذه الآية .

مـثال آخـر: قولــه تعالى ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾(البقرة:٢٨٠) . إن حرف شرط، وكان فعله، ونظرة اسم مصدر واقع فى جوابه، فإنظار المعسر واجب .

مـثال آخـر: قولــه تعـالى ﴿ لا يُؤَاخِذُكُـمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ﴾(المائدة:٨٩) الآية . كفارته اسم مصدر واقع فى جـواب شـرط محـذوف للعلم به وتقديره: فإن حلفتم وحنثتم فكفارته. ومن هنا حكم العلماء بوجوب كفارة اليمين .

تنبـيه: أنظـار المعسر واجب كما تقدم، ومسامحته سُنة مرغّب فيها، وهى أفضل من الأنظـار الواجب، وهذا من المواضع المستثناة التى كانت السنة فيها أفضل من الواجب، على خلاف القاعدة وهى ثلاثة مواضع، نظمها الحافظ السيوطى فى بيتين هما:

---

(١) هو الشيخ أحمد الأهواني الغزى، من علماء الأزهر .
(٢) وسـر ذلك: أن المصدر فى هذا الموضع يدل من اللفظ بفعله، وهو فعل الأمر، والتقدير، فحرروا رقبة، وسلموا الدية، وهكذا بقية الأمثلة.

القرض أفضل من تطوع عابد	حتى ولو قد جاء منه بأكثر
إلا التطهر قبل وقت وابتـدأ	بالسلام كذاك إبرا المعسـر

****

السكوت فى مقام البيان يفيد الحصر

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾(مريم٦٤) أخذ منه العلماء قاعدة فقهية عظيمة وهى: أنّ السكوت فى مقام البيان يفيد الحصر، فإذا نص الله أو رسوله المبلغ عنه، على شىء بإيجابه، أو تحريمه، أو إباحته، وسكت عن شىء آخر يشبه المنصوص عليه، أو يماثله، فالسكوت عنه يفيد أنه بخلاف المنصوص، فإن كان المنصوص واجباً كان المسكوت غير واجب، وإن كان حراماً كان المسكوت غير محرّم، وإن كان مباحاً كان المسكوت غير مباح . وقد جاء الحديث مفصحاً عن هذه القاعدة .

قال النبى ﷺ { إن الله فرض فرائض } كالصلاة والزكاة { فلا تضيعوها } بل أدوها كما أمر بها { وحدد حدوداً } كأحكام الطلاق والعدة والمواريث { فلا تعتدوها } فتظلموا أنفسكم .

قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾(الطلاق:١) { وحرم أشياء } كالزنا والخمر { فلا تنتهكوها } فتستوجب عقاب الله تعالى { وسكت عن أشياء } تشبه ما نص عليه أو تماثله وكان سكوته عنها { رحمة لكم غير نسيان } ﴿ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾(طه:٥٢) ... ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾(مريم:٦٤) { فلا تسألوا عنها } فلربما حرمت، أو فرضت، فعجزتم عنها، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾(المائدة:١٠١) فتأمل الحديث تجده يوضح تلك القاعدة، ويبينها غاية البيان .

مثال ذلك: قوله تعالى ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾(النور:٣٢-٣٣) أباح الله فى هذه الآية النكاح للمستطيع، وأوجب التعفف على من لم يستطيع، وسكت عن الاستنماء فيكون حراماً، ولو كان مباحاً لبينه فى هذا الموضع، وانظر كتابنا: "الاستقصاء لأدلة تحريم الاستمناء" .

مثال آخر: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: هلكت، قال { ما أهلكك؟} قال: واقعت أهلى فى نهار رمضان، قال { هل تستطيع أن تعتق رقبة؟} قال: لا، قال { هل تستطيع

أن تطعم ستين مسكيناً؟} قال: لا، الحديث . عرض على المستفتى أنواع الكفارة الواجبة عليه، وسكت عن قضاء اليوم الذى وقع فيه، فدل على أن قضاءه غير واجب[١] وبهذا أخذ الظاهرية، وسكت أيضاً عن المرأة فدل على انه لا كفارة عليها، وبه أخذ الأئمة فيما أظن .

****

حياة النبى ﷺ فى قبره الشريف

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾(البقرة: ٢٧٨-٢٧٩) يفيد أن النبى ﷺ حى فى قبره الشريف يحارب المرابين بالدعاء عليهم، أو بما يناسب حياته البرزخية، ولم أر من سبقنى إلى هذا الأستنباط .

****

أمر الله نبيه بالاستشفاع لأمته

قوله تعالى ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾(آل عمران: ١٥٩) أمر من الله لنبيه بالاستشفاع لأمته، إذ الاستغفار استشفاع، ومثله قوله تعالى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾(محمد: ١٩) والآيتان تؤيدان الحديث الذى رواه ابن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال { حياتى خيراً لكم، تحدثون ويحدث لكم، ووفاتى خيراً لكم، تعرض على أعمالكم، فما وجدت من خير حمدت الله، وما وجدت من سيىء استغفرت لكم } وانظر كتابنا "نهاية الأمال فى صحة حديث عرض الأعمال" .

****

الأنبياء لا يبلون بعد الموت

قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ﴾ على سليمان ﴿ الْمَوْتَ ﴾ مات، ومكث قائماً على عصا حولا، والجن يعملون الأعمال الشاقة التى كلفهم بها لا يشعرون بموته، حتى أكلت الأرضة عصاه كما قال تعالى ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾ مصدر أرضت الخشبة بالبناء للمجهول أكلتها الأرضة ﴿ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ عصاه ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ وقع على

---

(١) جاء فى رواية عند البيهقى فيما أظن: أنه أمره بصوم يوم مكان اليوم الذى جامع فيه، فإن صحت أفادت وجوب قضاء اليوم .

الأرض ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِين ﴾(سبأ: ١٤) العمل الشاق، لظنهم حياته وهو ميت، وهذه الآية تفيد أن أجساد الأنبياء عليهم السلام لا تبلى، ولا يغيرها الموت، وعلى هذا دلت السنة المتواترة، وأنعقد الإجماع .

فإن قيل: كيف علم أنه مكث سنة؟ فالجواب: على ذلك إما بأن الجن اخبروا بأنهم مكثوا سنة فى العمل الشاق. وإما بأنهم حسبوا ما أكلته الأرضة فى يوم وليلة. وعلى وزانه عرفوا المدة .

* * * * * * * *

الذبيح هو اسمعيل عليه السلام

اختلف فى الذبيح: هل هو إسمعيل؟ و إسحق عليهما السلام؟ وقال بكل طائفة، وللحافظ السيوطى رسالة "القول الفصيح فى تعيين الذبيح" حشد فيها أقوال الطائفتين، وأحاديث وآثار تدل لكليهما، ثم اختار التوقف[1] عن الجزم بأحداهما، وهذا منه عجيب؟؟؟ فإن التوقف إنما يصار إليه حيث تتكافأ الأدلة ولا مرجح . لكنه أنخدع بالإسرائليات وبالعلماء الذين اعتمدوها من قبله، ثم أن الأحاديث التى أوردها دليلاً للطرفين واهية، ولا يجوز الاحتجاج بها، فلا أدرى كيف خفى عليه حالها؟ ونحن إذ تأملنا القرآن الكريم وجدناه يدل دلالة قاطعة على أن الذبيح اسمعيل عليه السلام وإليك البيان:

١ ـ لما أنجى الله إبراهيم من النار، ترك قومه، وذهب مهاجراً إلى الشام ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين ﴾(الصافات: ٩٩) فلما وصلها قال ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ ولداً ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٠) قال الله تعالى ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾(الصافات: ١٠١) أى ذى حلم كثير

٢ ـ فكان هذا الغلام الحليم إسمعيل عليه السلام. ووصفه بالحلم يوافق قوله لأبيه حين أخبره بأمر الذبح ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾(الصافات: ١٠٢) وبالضرورة لا يقدر على مواجهة هذا الموقف الذى تطيش عنده الأحلام إلا الحليم الصابر .

٣ ـ ولكونه كان بكر أبيه ووحيده، كان الامتحان بذبحه أشد، ولذا قال الله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾(الصافات: ١٠٦) .

٤ ـ قال الله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾(مريم: ٥٤) . وعد أباه بالصبر على منحة الذبح، ووفى بوعده، فاستحق الثناء على ذلك .

---

(١) فلم يف بما أدعاه فى العنوان، حيث لم يعين الذبيح .

٥- قال الله تعالى بعد حكاية الذبح والفداء ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات: ١١٢) فكان هذا دليلاً على أن الذبح غيره من وجهين:

إحداهما: أن البشارة به جاءت بعد مسألة الذبح .

ثانيهما: وهو القاطع فى الموضوع أن الله بشره به نبياً أى موعوداً بأنه يبلغ مبلغ الرجال ويصير نبياً. والبشارة خبر. والخبر لا يدخله نسخ. فمن المستحيل أن يأمره بذبحه.

٦ - أن الله وهب اسحق لإبراهيم عليهما السلام، منحة له على استسلامه لمحنة ذبح ابنه الوحيد .

٧ - قال الله تعالى ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾(هود: ٧١) هذه بشارة من الله تعالى بأن إسحق يعيش ويولد له يعقوب. فمن المحال أن يأمر بذبحه، وهذا دليل قاطع أيضاً .

٨ - قال الله تعالى - عن ضيف إبراهيم ﷺ - ﴿ قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾(الحجر: ٥٣) وقيل أيضاً ﴿ قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾(الذريات: ٢٨) فوصف اسحق بالعلم الكثير، وهذا العلم إما عن طريق الوحى، أو التعليم، وعلى كلا الحالين لا يمكن أن يأمر بذبحه، وهو دليل قاطع أيضاً .

٩ - أن إسمعيل بشر به إبراهيم من غير وعد بنبوته، ولا بأن يولد له ولد. فكان من المعقول أن يؤمر بذبحه ابتلاء وامتحاناً .

١٠ - أن إسمعيل وهب لإبراهيم بدعائه كما تقدم، فأراد الله أن يمتحن خليله فى مطلوبه، ليبين أهليته لمقام الخلة .

١١ - أن إسحق وهب له بدعاء امرأته، حيث غارت من ضرتها هاجر التى رزقت ولداً دونها، والله أكرم من أن يمتحن امرأة فى ولد وهبه لها بعد كبرها وعقمها .

١٢ - أن أعز ما تتمناه المرأة فى بيت الزوجية أن ترزق ولداً يعيش وتفرح بزواجه وبأولاده، على وفاق هذه الأمنية التى كانت تجول بخاطر سارة. جاءتها البشارة ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ فبشرها الله بولد ضمن لها حياته حتى تفرح به، وترى ولده، فكيف يأمر - بعد هذا - بذبحه ؟ ؟

١٣ - أن مناسك الحج من طواف وسعى ورمى للجمار وذبح للضحايا وغيرها. مأخوذة عن

إبراهيم وإسمعيل وهاجر، ولا علاقة لشيء منها بإسحق . فدعوى أنه الذبيح، فرية إسرائيلية ، أنخدع بها بعض علماء المسلمين، وما دروا أن اليهود حسدوا النبى ﷺ والعرب على أن أختص الله تعالى جدهم إسمعيل بهذا الفضل فحاولوا ـ بكذبهم ـ تحويله إلى جدهم إسحق عليه السلام .

* * * * * * *

وجوب الخلود فى الجنة والنار نقلى

قال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾(هود: ١٠٦ـ١٠٨) اختلف فى الاستثناء من الخلود فى الموضعين، فقيل: إلا ما شاء ربك من الزيادة على مدة دوام السموات والأرض مما لا منتهى له، فيكون بمعنى خالدين فيها أبداً. وقيل: المراد سموات النار وأرضها، وسموات الجنة وأرضها، وهما مؤبدان، وذكر المشيئة على سبيل التبرك، فهو مثل قوله تعالى ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾(الفتح: ٢٧) ذكرت المشيئة هنا للتبرك، لأن وعد الله بدخولهم المسجد الحرام حق، وقيل: إلا ما شاء ربك من المدة التى مكثوها فى الموقف قبل دخول النار والجنة .

وقيل غير ذلك، ويظهر لى وجه لعله يكون صواباً إن شاء الله تعالى وهو: أن الاستثناء فى الموضعين ليس المراد به نفى تأبيد الخلود، بل نفى وجوبه، وأن عدمه تتعلق به القدرة لإمكانه، ويرشح هذا قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾(هود: ١٠٧) فهو مثل قوله تعالى ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾(النساء: ١٣٣) لكنه لم يشأ، والمعنى: إلا ما شاء ربك من عدم الخلود، فله ذلك، لكنه لم يشأ والآية بهذا التقرير ترد قول من زعم من المعتزله، ومن يرى رأيهم: أن خلود النوعيين واجب عقلاً، وأن عدمه لا تتعلق به القدرة لاستحالته ولك أن تقول. على فرض أن الاستثناء مراد به نفى الخلود، وتكون الآية دالة عليه بطريق المفهوم، لأن الاستثناء من مفاهيم[1] المخالفة كما تقرر فى علم الأصول، ودلالة المفهوم مؤخرة عن دلالة المنطوق حسبما هو مقدر فى محله، عليه فدلالة الاستثناء هنا غير معمول بها إلا من حيث التبرك ؛ لتصريح آيات أخرى بتأبيد خلود أهل النار فيها، وبتأبيد خلود أهل الجنة فيها .

---

(١) وهى عشرة: الصفة والشرط والعلة واللقب: أى العلم، والاستثناء والعدو وظرف لزمان وظرف لمكان والغاية . جمعها بعضهم بقوله:

صف واشتراط علل ولقب ثنيا وعد ظرفية وحصراً إغيا

فرعون مات كافراً

نسب إلى الشيخ الأكبر محى الدين ابن العربى الحاتمى ﵁ بقبول إيمان فرعون، وافترق الناس بعده ثلاث فرق: فرقة أيدته، منهم الجلال الدوانى الصديقى . وفرقة خطأته وتحاملت عليه ـ منهم ملاّ على القارى. وفرقة من الصوفية أولت كلامه على أنه لم يرد فرعون المعروف، وإنما أطلقته رمزاً على النفس فى بعض أطوارها. ولكن العارف الشعرانى حقق فى كتاب "اليواقيت والجواهر" نفى[1] صدور هذا القول عنه، ونقل نصوصاً من " الفتوحات المكية" فثبت كفر فرعون، وهذا هو اللائق بعلمه وذكائه، بله ولايته وما ألهم من المعارف. ذلك كفر فرعون وعدم قبول إيمانه. ثابت بنص القرآن ثبوتاً قطعياً ليس للاحتمال فيه مجال، وإليك البيان:

١ـ قال الله تعالى ـ يخاطب موسى ﵇ ﴿ **وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى** (٣٧) **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى** (٣٨) **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ** ﴾(طه: ٣٧ـ٣٩) أخبر الله تعالى أن فرعون عدو له ولرسوله موسى، إذا هو الذى التقطه بواسطة أعوانه . والخبر لا يدخله نسخ، فهذا قاطع فى أن فرعون مات كافراً عدواً لله ورسوله .

٢ـ قال الله تعالى ﴿ **حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾(يونس: ٩٠) آمن فرعون عند المعاينة، وهو إيمان غير مقبول، لقوله تعالى ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (غافر: ٨٤ـ٨٥) ولذا رد عليهم بقوله ﴿ **الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ** ﴾ أى: بجثتك ﴿ **لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** ﴾ عبرة .(يونس: ٩١ـ٩٢) وجثته موجودة بالمتحف الذى يضمها وغيرها من آثار قدماء المصريين .

٣ـ قال الله تعالى ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ** ﴾(القصص: ٨) **عاصين، هذا إخبار بأن فرعون عاص: وعصيانه عداوته لله ولرسوله، وهو قاطع فى هلاكه على الكفر، كهامان.**

٤ـ قال الله تعالى ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ** (١٢) **وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ** (١٣) **إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ** ﴾(ص: ١٢ـ١٤) **أخبرت الآية أن فرعون كذب الرسل فاستحق عقاب الله تعالى وهذا قاطع أيضاً .**

---

(١) ثم تبين لى أن كلامه فى إثبات إيمان فرعون صريح صحيح. وهو مسبوق به. فقد حكى القاضى عبد الصمد الحنفى فى تفسيره عن الصوفية: إن الإيمان ينفع صاحبه ولو حصل عند معاينة العذاب. ولكن ما ذكرته هنا. قاطع فى كفر فرعون .

٥ ـ قال الله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾(ق:١٢-١٤) هذا أيضاً خبر بان فرعون كذب الرسل فاستحق العقاب، وهو قاطع في الموضوع .

٦ـ قال الله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾(المزمل:١٥-١٦) شديداً . وهذا ايضاً خبر صريح .

٧ـ قال الله تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً ﴾ بناء عالياً مرتفعاً ﴿ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا ﴾ أيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩)﴾ للحساب والعرض ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ الكافرين ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ (٤١)﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾ (القصص:٣٨-٤٢) المشوهين بالعذاب، أو المبعدين من الرحمة، وهذا أيضاً خبر صريح قاطع .

٨ـ قال الله تعالى ﴿ هَلْ ﴾ قد ﴿ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ أسمه ﴿ طُوىً * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * ﴾ تجاوز الحد فى الكفر ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * ﴾ وهى العصا ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾(النازعات:١٥-٢٥) وهى هذه الأولى وهى قوله: ما علمت لكم من إله غيرى، وكان بينهما أربعون سنة، ولو قبل إيمانه ما أخذ نكالاً، ولا أخذا وبيلا كما مضى فى آية المزمل .

٩ـ آيات فى سورة هود والإسراء وطه والعنكبوت والحاقة والفجر وغيرها تصفه تارة بالكفر والتكذيب، وتارة بإضلال قومه، وتنظمه تارة مع عاد وثمود وقارون فى سلك واحد، وأخرى تدرجه مع من أهلكوا بالغرق أو الخسف أو الصيحة .

١٠ـ من تتبع أسلوب القرآن الكريم فى سياق أخبار الماضين، وقصص الأولين، استخلص منه قاعدة هامة، تنفعه فى هذا البحث وما يماثله، وهى:

أن القرآن إذا ما ذكر قوماً أو شخصاً بالكفر والتكذيب، وأخبر عن إهلاكهم، وكرر ذلك، فهو دليل على أنهم هلكوا كفاراً خاسرين . خذ لذلك مثلاً: قوم نوح، عاد، ثمود، قوم لوط، مدين، أصحاب الأيكة، قارون، هامان، فرعون، ذكرهم الله بالكفر والتكذيب، والاستكبار والفساد .

وأخبر عن إهلاكهم تارة فى سباق واحد، وتارة مفترقين، فهذا فى صنيع القرآن يدل على أنهم هلكوا كافرين، وانظر إلى قوم يونس كيف تحدث عنهم فى قوله تعالى ﴿ فَلَوْلا ﴾ فهلاّ ﴿ كَانَتْ قَرْيَةٌ ﴾ أى أهل قرية ﴿ آمَنَتْ ﴾ عند رؤية العذاب ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ أى لم ينفعها إيمانها حينئذ ﴿ إِلاَّ ﴾ لكن ﴿ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا ﴾ عند رؤية أمارة العذاب، ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾(يونس: ٩٨) ينقضى فيه آجالهم .

وفى قوله سبحانه ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ ﴾ بل ﴿ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا ﴾ عند معاينة أمارة العذاب ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾(الصافات: ١٤٧-١٤٨)، ثم لم يذكرهم بعد هذا ولازمهم فلو أن الله قبل إيمان فرعون لسكت عنه كما سكت عن قوم يونس. لكنه ذمه بالكفر مرات، وذكر أن أمراته طلبت النجاة منه ومن عمله، وجعله مثلاً للمستكبرين المفسدين . فاحفظ هذه القاعدة النفيسة التى لا تجدها فى غير هذا المكان .

****

حديث منكر

ورد فى حديث أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ: ((لو رأيتنى وأنا أدس من حال البحر فى فم فرعون خشية أن تناله الرحمة)) وهذا حديث منكر[1]، وجبريل لا يقول هذا لأنه نزل على أم موسى بقوله تعالى ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾(طه: ٣٩) وهو يعلم أن خبر الله لا يتخلف، ولو سلم - جدلاً - أن الله أراد قبول إيمان فرعون، فلا يستطيع جبريل أن يمنعه بدس الطين فى فمه ! وما كانت وظيفته قط منع قبول الإيمان ؛ وبالله التوفيق .

****

الرسل المذكورون فى سورة البقرة

قال الله تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ ﴾(البقرة: ٢٥٣) تلك إشارة أشير به إلى الرسل المذكورين من أول السورة إلى هذا الموضع، وهم عشرة: آدم وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم . ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ بتخصيصه بمزية ليست لغيره ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ كموسى بنص القرآن وآدم بظاهره

(١) أى متنه منكر وإن كان إسناده صحيح .

وصريح الحديث الصحيح ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ هو محمد ﷺ، كنى عنه تفخيماً وتعظيماً، وتنكير درجات للتكثير والتعظيم، إذ رفعه درجات كثيرة وعظيمة: منها ختم النبوة به، وعموم رسالته، وإيتاؤه جوامع الكلم، وجعل الأرض له ولأمته طهوراً ومسجداً، وجهاد الملائكة معه، وغير ذلك ويؤخذ من الآية أمران:

الأول: أن آدم رسول، وهو إجماع مع أدلة أخرى من الكتاب والسنة، بينتهما في قصة آدم عليه السلام، ورسالته إلى أولاده.

الثاني: أن سليمان عليه السلام رسول، وذكر أيضاً في آية ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾(النساء: ١٦٣) وفي آية ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾(الأنعام: ٨٣) وبالله التوفيق.

****

بنو إسرائيل لم يعودوا إلى مصر بعد غرق فرعون

قال الله تعالى ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ هم بنو إسرائيل كانوا مستذلين في أرض مصر ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ يقتدى بهم ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ أرض الشام ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض الشام ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾(القصص: ٥-٦) يخافون من المولود الإسرائيلي الذي يكون هلاكهم على يديه، ولأجل أن يرثوا أرض الشام، أمر الله موسى وهرون أن يطلبا من فرعون إرسالهم معهما.

قال تعالى ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(طه: ٤٧) إلى الشام فكفر فرعون، وأبى إرسالهم، لأنه كان يستخدمهم، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ﴾فطلبوا من موسى أن يدعوا الله بكشف العذاب عنهم، ووعدوا بالإيمان وبإرسال بني إسرائيل ثم نكثوا فأغرقهم الله وأورث بني إسرائيل أرض الشام. قال تعالى ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴾ العذاب المذكور ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ بالاستعباد وهم بنو إسرائيل ﴿ مَشَارِقَ الْأَرْضِ ﴾ مفعول ثاني لأورثنا ﴿ وَمَغَارِبَهَا ﴾ معطوف عليه ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالماء والشجر. صفة للأرض، وهي الشام. ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى ﴾ هي قوله تعالى ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾(القصص: ٥) ﴿ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على

أذى فرعون وقومه ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ من العمارة ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٣-١٣٧) يرفعون من البنيان، يتبين من هذه الآيات بوضوح أن بنى إسرائيل - بعد تجاوزهم البحر، ونجاتهم من فرعون - أورثوا أرض الشام، ومكن لهم فيها[1] ولم يثبت فى التاريخ أنهم عادوا إلى مصر، ومكثوا بها . فضلاً عن أن يرثوها، ويمكن لهم فيها، فكيف ساغ للمفسرين أن يقولوا: أن بنى إسرائيل ورثوا أرض مصر، بعد غرق فرعون ؟!وعلى أى شيء استندوا ؟! القرآن لا يفيد ذلك، والتاريخ لا يثبته. أما قوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ (الشعراء: ٥٧-٦٠) فالضمير فى ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ هو منشأ غلطهم، حيث أعادوه على ما ذكر فى الآية ولو تأملوا ما أوضحناه، وتنبهوا له، لأدركوا أن الضمير لا يمكن عوده إلى ما ذكر ؛ لمخالفته للآيات الأخرى ولأدركوا أن المعنى . وأورثنا مثيلاتها بنى إسرائيل فى أرض الشام، ففى الآية شبه استخدام، وهو من المحسنات البديعة . ويدل على هذا أيضاً أمران:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ﴾ ساكناً ﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾(الدخان: ٢٢- ٢٨) من قبط مصر . وليسوا بنى إسرائيل كما قال المفسرون، وإلا لكان السياق: كذلك وأورثناها عبادى الناجين ؛ او لقيل في الآية بعد: ولقد نجيناهم من العذاب المهين بدلاً من ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (الدخان: ٣٠) فدلالة السياق تفيد أن المورث قوم غير بنى إسرائيل، والمفسرون غفلوا عن ذلك.

ثانيهما: قوله تعالى - حكاية عن موسى عليه السلام يخاطب قومه ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾(المائدة: ٢١) إلى قوله تعالى ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾(المائدة: ٢٦) فهذه الحادثة حصلت بعد خروجهم من مصر، لأنهم لما تجاوزوا البحر قاصدين إلى الشام، علموا أن فيها قوماً جبارين أشداء فجبنوا عن مقاتلتهم. وقالوا لموسى ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾(المائدة: ٢٤) فعاقبهم الله بالتيه، مكثوا تائهين في نحو أربعين ميلا من الأرض أربعين سنة. وفى التيه أنزلت التوراة، ورفع الله الجبل فوقهم إنذاراً لهم ليقبلوا أحكامها. وفيه أنزل عليهم المن والسلوى، وظللهم بالغمام، وأنبع لهم من الحجر - بضرب موسى - اثنتى عشر عيناً. وفيه عبدوا

---

(١) لكن بعد أن مكثوا فى التيه اربعين سنة. ومات هارون وموسى عليهما السلام .

العجل الذى صاغه السامرى، وذهبوا ليعتذروا إلى الله من عبادته، فقالوا: أرانا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، وفيه أيضاً هلك معظمهم عقاباً لهم، وفيه توفى الله هرون عليه السلام رحمة له بمفارقتهم ومات موسى عليه السلام، بعد أن ضاق بمخالفات بنى إسرائيل، وكثرة عصيانهم، غير أنه سأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة - رمية بحجر - فأدناه، وبعد انتهاء التيه، أوحى الله إلى يوشع - وكان نبياً - بقتال الجبارين، فذهب بمن بقى معه من بنى إسرائيل، وقاتلوا الجبارين، وأنتصر عليهم، واستقروا بفلسطين من أرض الشام، وهى المراد بالأرض فى قوله تعالى ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾[1](الإسراء: ١٠٤) أى: الأرض المقدسة بالشام، ولم يثبت أنهم رجعوا إلى مصر، ولا يوجد بها شىء من معابدهم، ولا اثر من آثارهم.

****

الاستخدام

الاستخدام إطلاق لفظ بمعنى، وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر، ونحو فسقى الغضا والساكنية وأن همو شبّوه بين جوانحى وضلوعى أطلق الغضا على شجر معروف، وأعاد عليه الضمير "الساكنية" بمعنى المكان الذى ينبت فيه، وفى "شبوه" بمعنى النار المشتعلة من أعواده ومثله قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ ﴾ (الملك: ٥) أطلق المصابيح على النجوم، وأعيد الضمير فى "وجعلناها" بمعنى الشهب المنفصلة عن النجوم كالقبس، فتصيب الشياطين . كما قال الله تعالى فى آية أخرى ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾(الصافات: ١٠) وهو من المحسنات اللفظية فى علم البديع، والآية الكريمة لما ذكرت أن فرعون وقومه تركوا جنات وعيونا وزروعا، وكان فى الشام مثيلات لها، أعادت الضمير بهذا المعنى، فكان فيها محسنان:

معنوى: وهو الإيجاز . إذ لو ذكر الكلام على الأصل لقيل: كذلك وأورثنا بنى إسرائيل مثيلاتها فى أرض الشام، وهو طويل لا داعى إليه .

ولفظى: وهو شبه الاستخدام، وإنما قلنا . شبه، لأن الضمير عاد على الجنات والعيون والزروع بمعناها، لكن مع اختلاف المكان، إذ المتروكة بمصر، والموروثة بالشام، ومن هنا كان شبه الاستخدام .

****

(١) ال فى الأرض للعهد ، والمعنى: اسكنوا الأرض التى وعدتكم بها، ومنعكم من الذهاب إليها فرعون .

معنى خيانة امرأتى نوح ولوط

قال الله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾(التحريم:١٠) زعم بعض الجهلة ممن تسوروا التفسير بغير علم. أن المراد هنا : الزنا، وزاد فأكد بأن الله قال لنوح - حين شفع لأبنه - ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾(هود:٤٦) أى هو ابن زنا، كذا قال ؟ وهى مقالة شنيعة. تدل على جهل بمقام النبوة، وبما يجب له من تكريم وإعظام، وإنى أبرأ إلى الله من هذا القول وصاحبه. وليست الخيانة هنا إلا المخالفة فى العقيدة، ومساعدة الكفار على زوجيهما، وهو خلاف ما تقتضيه العشرة الزوجية من صفاء المودة ؛ وحسن المراعاة، والدليل على ذلك أمور:

الأول: أن امرأة نوح كانت ترمى زوجها بالجنون، وتساعد قومها عليه فى شتمه وإيذائه، وامرأة لوط كانت تدل قومها على ضيوفه إذا كانوا حسان الوجوه. لم ينقل عنهما غير ذلك .

الثانى: لو ثبت عليهما شىء من الزنا، لأسرع قومهما إلى تعييرهما به، والتشنيع عليهما، لكنهما لم يعرجوا على ذلك بحال .

الثالث: أن من يقع فى الزنا فى بيته وهو لا يشعر. كيف يكون أهلاً لأن يدعوا أمة؟ ويتزعم شعباً ؟! .

الرابع: أن أقبح عار يلحق الرجل، ويسقط حرمته وكرامته، وقوع الزنا فى أهله، فكيف ينسب إلى رسولين كريمين ؟!!.

الخامس: لا يجوز أن يقع الزنا فى بيت نبى يوحى إليه، ولا ينبهه الله عليه، وهذا محال. لأن الله تعالى غيور، يبغض الفاحشة لعوام الناس، فكيف يرضاه فى بيت رسول يختاره لتلقى وحيه؟ ودعوة الناس إلى توحيده ؟ وإقامة دينه ؟! .

السادس: أن من الشروط التى يجب - عقلاً - توافرها فى الرسل. الفطنة والذكاء، والذى يقع فى الزنا فى أهله وهو لا يشعر، يكون بالغ النهاية فى الغفلة والبلاهة، ولا يجوز أن يكون الرسول مغفلاً ولا أبله، بل الغفلة مذمومة فى عموم الصالحين. ألا ترى إلى قول عمر ﷺ (لست بخب والخب لا يخدعنى) تجده يتبرأ من الغفلة، كما يتبرأ من الخبث، فهو ليس بخبث. لكنه ليس من الغفلة بحيث يخدعه خبيث. بل هو فطن حذر. شأن بقية إخوانه الصالحين .

السابع: أن كفر المرأة لا يعيبها، ولا يلحق زوجها بعار بسببه. لأنه ينشأ من عناد في الرأي، أو اعتداد به، أو تقليد للآباء، لكن زناها عار يشينها ويشين أهلها. لأنه ينشأ عن إغتلام الشهوة، وانحطاط الخلق، ودناءة الهمة، وسوء التربية. ولهذا لما جاءت هند زوج أبي سفيان لتسلم ـ وهي من العنيدات في الشرك. المفتخرات به ـ وعرض عليها النبي ﷺ فيما عرض "ولا تزنين" قالت مستنكرة: أو تزني الحرة ؟!! فمن ثم جاز أن تكون زوج النبي كافرة، ولم يجز أبداً بحال أن تكون زانية .

الثامن: أن الله تعالى قال ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾(هود: ٤٢) فنسبه إلى أبيه، وهو دليل قاطع على أنه أبنه، وأن أمه لم تزن به، وقال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾(القمر: ٣٤) فنسب الآل إليه، وهن بناته . فدل على أنهن آله حقيقة. وأن زوجه لم تزن بهن وإن كانت كافرة. أما قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (هود: ٤٦) فليس المراد به نفي الولد منه، لأنه نسبه إليه أولاً، فكيف ينفيه ؟! هذا خُلف ! وإنما المراد: ليس من أهلك الموعود بنجاتهم، لكفره، والكافر لا نجاة له، ولا شفاعة تقبل فيه .

والخلاصة: أن ما نسب إلى امرأتي نوح ولوط من الزنا، يبطله العقل، ويرده النقل، ويستقبحه العرف، وأن قائله خالف الدين، وجانب الواقع، وباين الذوق .

****

فتنة داود عليه السلام

قال الله تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ خبرهم ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ محراب داود عليه السلام، وهو مسجده الذي أعده للصلاة في بيته، وكان قد رتب أيام الأسبوع، فجعل يوماً للقضاء بين الناس، ويوماً للعبادة، ويوماً لأهله، ويوماً ينظر فيه شئون معايشه لأنه كان يأكل من عمل يده. وجاء هؤلاء الخصوم في يوم العبادة، فمنعهم الحرس من الدخول، وهم مستعجلون يريدون الفصل في قضيتهم، فتسوروا المحراب ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ حيث نزلوا من جهة السقف، وظن أنهم يريدون به شراً. إذ الملك لا يخلوا في العادة ممن يقصده بالشر من رعاياه ﴿ قَالُوا لا تَخَفْ ﴾ لا نقصدك بشر نحن ﴿ خَصْمَانِ ﴾ فريقان. أو شخصان . كانت بيننا مشاركة في نعاج واختلفنا فيها بحيث ﴿ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ ﴾ لا تجر ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ أرشدنا إلى وسط الطريق. فاطمأن وسألهم عن قضيتهم. فقال أحدهم ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي ﴾ أي إسرائيلي

مثلى ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ حقيقة، لا كناية عن النساء كما قيل ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أجعلنى كافلها لأضمها إلى نعاجى ﴿ وَعَزَّنِي ﴾ غلبنى ﴿ فِي الْخِطَابِ ﴾ أى: الجدال بقوة منطقه ﴿ قَالَ ﴾ داود مصدراً حكمه بعد موافقة الخصم على كلام خصمه ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ ليضمها ﴿ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ الشركاء ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فلا يبغون، والبغى ظلم ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ ما لتأكيد القلة ﴿ وَظَنَّ ﴾ أيقن ﴿ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ ابتليناه بالفزع الذى حصل منه حين تسور الخصوم عليه المحراب، وما كان ينبغى له الفزع من المخلوق وهو فى حضرة الخالق وعبادته ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ من فزعه الذى لا يليق بمنصبه ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ ساجداً ﴿ وَأَنَابَ ﴾ رجع إلى الله (ص: ٢١-٢٤) .

فتبين من سياق القصة أنه كانت خصومة بين شركاء فى نعاج حقيقية، وأنه لم يحصل من داود - قبلها - ما يستوجب لومه أو عقابه، وكل ما حصل منه فزعه من الخصوم الذين هبطوا عليه من جهة السقف والفزع غريزة برية، فقد قال موسى وهرون - من قبله - ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾(طه: ٤٥) وما من رسول إلا وقد خاف إذاية قومه، غير أنه اعتبر فزعه من المخلوق وهو بين يدى الخالق، لا يليق بمنصبه الكريم، وعده ابتلاء وإمتحاناً، فاستغفر الله منه، ولا أصل لما جاء فى الإسرائيليات: أنه نظر من طاق فى بيته فرأى امرأة عريانه تغتسل، فأعجبته، فسأل عنها، فقيل: أنها امرأة شخص يقال له: أوريا، فبعثه إلى الحرب ليقتل، فانتصر وعاد، فبعثه ثانية وثالثة، حتى قتل، وتزوج امرأته، وكان له تسعة وتسعون امرأة، وقيل: بل كانت خطيبة أوريا، فبعث داود يخطبها، ولم يعلم بخطبتها، فأثره أهلها على خطيبها الأول، فزوجوها له ؛ وهى أم سليمان، فبعث الله إليه ملكين فى صورة رجلين يختصمان فى نعاج كنيا بها عن الزوجات، فلما قضى لهما، صعدا إلى السماء، وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، فأدرك خطأه وتاب، وبعضهم قال - فى خطأ داود - أنه قضى للخصم قبل أن يسمع كلام خصمه، وبعد الحكم أدرك خطأه وتاب، وهذا باطل أيضاً، لأن من البديهيات فى القضاء: ألا يحكم القاضى إلا بعد سماع الخصمين، وإبداء حججهما، والموازنة بينهما، فكيف يخفى هذا الأمر البدهى على نبى آتاه الله الملك والحكمة، وفصل الخطاب ؟!! .

والحاصل: أن ما ذكرناه فى فتنة داود عليه السلام، هو الصواب، فتمسك به، وأنبذ سواه، وبالله التوفيق .

فتنة سليمان عليه السلام

فتنة سليمان عليه السلام شوهتها الإسرائيليات، وحمل عليها المفسرون قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾(ص: ٣٤) فقالوا في فتنته: تزوج امرأة أحبها ـ كما أحب أبوه والدته من قبله ـ وكانت تعبد الصنم في بيته بغير علمه، وكان ملكه في خاتمه ـ كما يقال في قصص الأطفال ـ فنزعه عند إرادة الخلاء، ووضعه عند امرأته المسماة بالأمينة، فجاءها جني في صورته، وأخذه منها. وقعد على كرسيه، وعكفت عليه الطير وغيرها، وجاء سليمان في غير هيئته، وقال: أنا سليمان، فأنكره الناس، ثم توصل إلى الخاتم ـ لعله وجده في بطن سمكة ـ فرجع إليه ملكه، ونسوا:

أولاً: أن الجني لا يسمى جسداً، لأنه كان حياً، لا ميتاً .

ثانياً: أن الجني لا يمكن أن يتصور في صورة نبي. ولا يقدر على ذلك، لما يترتب عليه من المفاسد .

ثالثاً: لو جاز للجني أن يأتي امرأة سليمان في صورته، ويأخذ منها خاتم ملكه . لجاز أن يزني بها وبغيرها من نسائه، وذلك يبطله العقل والنقل كما سبق .

رابعاً: أن خاتم ملكه كانت خاتم على هيئته أيضاً، فإنها لم ذهبت، ذهبت هيئته، وأنكره الناس، ولما وجدها رجعت إليه هيئته .

خامساً: أنها ـ مع كونها كذباً غير محبوك ـ خالية من العبرة، والله تعالى يقول ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾(يوسف: ١١١) .

وإليك قصة فتنة سليمان على حقيقتها. كان له مائة امرأة. فقال ـ يوماً لبعض جلسائه ـ: لأطوفن الليلة على نسائي، فتأتي كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له جليسه: قل إن شاء الله . فلم يقل ـ نسياناً أو عرضت له قضية شغلته ـ فلم تحمل منهن إلا واحدة، ولدت شق إنسان، فهو الجسد الذى ألقي على كرسيه، فرآه، وعلم سبب ابتلائه، ثم أناب .

قال النبي ﷺ { والذى نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا كلهم فرساناً أجمعون } والعبرة من هذه القصة: أن الله تعالى يحب من عباده أن يردوا المشيئة إليه في كل أمورهم، فإذا غفلوا نبههم، بمثل ما هنا، وحصل شبه ذلك للنبي ﷺ: فقد سأله أهل مكة عن قصة أهل الكهف، فقال { أجيبكم غداً } ولم يقل إن شاء الله، فأبطأ الوحي عنه

خمسة عشر يوماً، ثم نزل قوله تعالى ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾(الكهف: ٢٣-٢٤) .

أما سؤال سليمان ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده، فليس حسداً، أو حباً للاستئثار، كما قال بعض المارقين. بل ليكون معجزته على نبوته كما كانت الناقة معجزة صالح، والعصا معجزة موسى. وإنما طلب الملك معجزة. لأنه رسول إلى اليهود. وهم عبيد المال. فلا يخضعهم إلا مظاهر الملك، وبريق الذهب. وأنظر إلى عيسى عليه السلام حين جاءهم بالزهد والتقلل حاولوا قتله. كما قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام، وما خضعوا لموسى عليه السلام إلا لشدته عليهم. فقد كان يسوقهم سوق العبيد بالعصا، وكانوا يستضعفون هرون عليه السلام كما جاء فى قوله ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾(الأعراف: ١٥٠) والله أعلم .

****

فرعون كان يستخدم السحرة مجاناً

قول الله تعالى ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (الأعراف: ١١٣) يفيد أنه كان يستخدمهم من غير أجر، وقولهم ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾(طه: ٧٣) يفيد أنه كان يكرههم على السحر تعلماً وعلملاً. فأعجب لإله يستكره عابديه على العمل لمصلحته، ويأكل عليهم أجورهم .

****

موسى لم يدرك شعيباً عليهما السلام

قال كثير من المفسرين[١] فى المرأتين اللتين سألهما موسى عليه السلام حين ورد ماء مدين ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾(القصص: ٢٣) إنهما إبنتا شعيب عليه السلام. ولكن ليس فى القصة ما يؤمى إلى ذلك سوى ذكر مدين. وهذا ليس بدليل ومن المستبعد أن تشير المرأتان إلى نبوة أبيهما. كما لم تشر إليه الآية إطلاقاً، وليس فى إخفائه حكمة. فقد ذكر الله لوطاً مع إبراهيم، ويعقوب مع إسحق. وهرون مع موسى. ويوسف مع يعقوب. ويحيى مع عيسى عليهم السلام، فلم أخفى شعيباً ؟.

ثم إنى تأملت سورة الأعراف. فوجدتها ذكرت نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً

(١) وهو قول الحسن ومالك بن أنس .

علي هذا الترتيب . وقالت بعد ذلك ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾(الأعراف:١٠٣) فأفادت الآية أن موسى بعد شعيب عليهما السلام، فلا أدرى كيف غفل عنها المفسرون .

وفى سورة الحج ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى ﴾(الحج:٤٢-٤٤) وبهذا الترتيب ذكروا أيضاً فى سورة هود. فلهذا أرجح أن الشيخ الكبير والد المرأتين ليس شعيباً عليه السلام،وما ذكر فى ذلك الحديث ليس بصحيح، والله أعلم .

****

نكت فى كلام الخضر عليه السلام

قد يقال: لِمَ قال الخضر عليه السلام فى خرق السفينة ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾(الكهف:٧٩) وفى قتل الغلام ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾(الكهف:٨١) وفى إقامة الجدار ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾(الكهف:٨٢) **وهل هو تفنن فى العبارة كما قيل ؟ أو له حكمة ؟ .**

والجواب: أمن ذلك حكمة، هى ـ والله أعلم ـ: **أنه لما كان خرق السفينة عيباً ـ بحسب الظاهر ـ نسب إرادته إلى نفسه، ولما كان الباعث على قتل الغلام خشيته أن يرهق أبويه ـ وهو باعث دينى شريف ـ ناسب أن يقابلها بإرادته خلفاً عنه خيراً منه لهما، فيكون الباعث على القتل والغاية منه متحدى المصدر، ولشرف الباعث عبر بنون الجمع فى ﴿ فَأَرَدْنَا ـ فَخَشِينَا ﴾ ولما كانت إقامة الجدار خيراً محصناً نسب إرادتها إلى الله تعالى .**

وهذا هو الأدب الواجب، أن ينسب العبد الخير إلى الله، والشر إلى نفسه، قال تعالى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾[1] (النساء:٧٩) وفى الحديث { والخير كله بيديك والشر ليس إليك } .

هذا ما ظهر لى فى توجيه كلام الخضر، مما فتح الله له علىّ، وله الحمد .

****

(١) ما أصابك من حسنة أى نعمة كخصب ورخاء وغنى فمن فضل الله، وما أصابك من سيئة أى نقمة كجدب وبؤس وفقر. فمن نفسك أى بسبب عصيانك، وليس المراد بالحسنة والسيئة والطاعة والمعصية، كما يفهم كثيرون خطأ. أنظر كتابنا "بدع التفاسير" وهو مطبوع بمكتبة القاهرة وجميع كتبنا .

الفرق بين اسطاعوا واستطاعوا

وقع السؤال عن الحكمة فى قول الله تعالى - فى سد ذى القرنين - ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾(الكهف: ٩٧) .

والجواب: أن الحكمة - مما يظهر لى والله أعلم - أن الظهور على السد لا يحتاج إلا إلى محاولة بالأيدى والأرجل. أو وضع ما يرقى عليه كالسلم. فلذلك عبر فيه باسطاعوا . ولكن نقبه يحتاج فيه إلى معدات النقب، كالفؤوس والمعاول. فعبر فيه باستطاعوا. لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، كما تقرر فى علوم العربية، ولهذا - والله أعلم - لما أراد الخضر أن يبين لموسى سر تصرفاته، قال له: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾(الكهف: ٧٨) فعبر بتستطع، لأن موسى فى سرعته بالإنكار عليه، وشدة تشوقه لمعرفة حكمة تصرفاته، لا يقدر على الصبر إلا بمشقة وتكلف، وهو حين يحاوله. ويحاول أمراً يخالف طبعه، فكان التعبير بلم تستطع يناسب حاله. ولما أطمأنت نفسه إلى معرفة أسرار تلك التصرفات التى آثارت إنكاره، وسكن إليها، صار الصبر ميسوراً له، لا يتكلف فيه مشقة. فناسب أن يقول له ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾(الكهف: ٨٢).

فمن قال من المفسرين: أنه جمع بين اللغتين، لم يتفطن لهذه الحكمة الدقيقة، والحمد لله على ما ألهم وعلم .

****

الفرق بين الضياء والنور

قال الحافظ ابن رجب: الضياء نور فيه إحراق، ولذا سمى الله الشمس ضياء، فقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾(يونس: ٥) وسمى التوراة ضياء، حيث قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴾(الأنبياء: ٤٨) لأن تكاليفها شديدة. وأحكامها صعبة وسمى القرآن نوراً فى قوله تعالى ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾(الأعراف: ١٥٧) لأن أحكامه سهلة، وتكاليفه سمحة، وبالله التوفيق .

****

قصة الغرانيق باطلة

قال الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴾(الحج: ٥٢) إيمان الناس، ولينجوا من العذاب، ويعظم لـه عند الله الثواب، بدليل قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ قاتلها غماً من أجل ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾(الشعراء: ٣) فتمنى على حقيقته كما تبين ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي ﴾ طريق ﴿ أُمْنِيَّتِهِ ﴾الشبه والشكوك فى عقول الناس حتى لا يؤمنوا ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ أى يبطله بما يبديه الرسول من المعجزات والدلائل ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ يثبتها فى قلوب الناس وعقولهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بما يلقى الشيطان ﴿حَكِيمٌ ﴾(الحج٥٢) فى تمكينه من ذلك ليختبر عباده، وتفسير الآية بهذا المعنى[1] واضح معقول، يتمشى مع نظم القرآن، ويوافق حال الرسل فى حرصهم على إيمان الناس .

ولكن كثيراً من المفسرين عدلوا عنه إلى تفسير آخر، فقالوا: معنى تمنى قرأ، واستدلوا بقول الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة   تمنى داود الزبور على الرسل

قالوا: والمعنى إلا إذا قرأ ألقى الشيطان فى قراءته ما ليس من الوحى، مما يرضاه المرسل إليهم، قالوا: وقد قرأ النبى ﷺ سورة النجم، بمجلس من قريش، فلما بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾(النجم: ٢٠) ألقى الشيطان على لسانه ﷺ بغير علمه به { تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى } ففرح المشركون، ولما قرأها على جبريل عليه السلام قال له: ما أتيناك بهذا، فحزن ﷺ فأنزل الله هذه الآيات من سورة الحج يسليه بهن، فهذه القصة - وتسمى قصة الغرانيق - منكرة وباطلة، وإن قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: لها طريقان صحيحان مرسلان، لأن ما يمس العصمة بصميم العقيدة، لا تقبل فيه المسندات الصحيحة، فضلا عن المراسيل .

وأول نكارة فى تلك القصة: تسلط الشيطان على النبى ﷺ بإلقاء شىء على لسانه وهو لا يعلمه، مع أن من البديهات العقلية عصمة النبى من الشيطان، فكيف تمكن منه فى هذه الحادثة ؟! هل كان نائماً ؟ لنفرض ذلك، فهو معصوم فى نومه، ولذا كانت رؤيا الأنبياء وحياً يعمل بها فى التشريع، كما فى قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام . ثم كيف خفى عليه

(١) وهو مضمون ما أملاه القطب الكبير السيد عبد العزيز الدباغ، على تلميذه الإمام العلامة أحمد بن المبارك اللمطى، وسجله فى كتاب الإبريز .

الفرق بين إلقاء الملك وإلقاء الشيطان ؟ ولئن جاز الاشتباه عليه فى هذه الحادثة، جاز الاشتباه فى غيرها، فترتفع الثقة بالوحى، ثم كيف خفى عليه تناقض الكلامين ؟ إذ (الأخرى) صفة ذم، وكلام الشيطان المقحم للمدح . وهل يجوز فى عقل أن يمتزج كلامان متناقضان، على لسان افصح العرب، وأعلمهم بكلام الله تعالى، ثم لا يشعر بتنافرهما ؟!! ثم بعد هذا كله كيف يسلى الله نبيه بأن جميع الرسل تمكن الشيطان أن يلقى على لسانهم ما لم يوح إليهم ؟!! وما معنى العصمة الواجبة لهم عقلاً ؟! وبعضهم أراد تقليل نكارات القصة . فقال: لم يقل النبى ﷺ ذلك الكلام، ولا ألقى على لسانه . وإنما كان من عادته أن يسكت عند مقطع كل آية حين يقرأ القرآن، فتحين الشيطان سكوته عند (الثالثة الأخرى) فتكلم بتلك الجملة، بقراءة تشبه قراءة النبى ﷺ. وألقاها فى أسماع المشركين. فظنوها قراءته ﷺ ففرحوا. وهذا وجه قريب. ولكن يبطله أمور:

إحداها: أن الشيطان لا يتمثل بالنبى ﷺ فى شىء من أموره، بمعنى أنه لا يقدر على ذلك، ولا يتمكن منه، حفظاً لمقام النبوة من الخلط والاشتباه، ولذا صح فى الحديث { من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بى } وفى رواية { فإن الشيطان لا يتكوننى } وهو حديث مشهور، مع أن الشيطان قد يظهر لبعض الناس فى اليقظة أو المنام، فيدعى أنه الله، ولا ضرر فى ذلك، إذ العقل يقتضى بتنزه الله عن سمات المحدثات، فكذب الشيطان فى دعواه هذه، واضح لا يحتاج إلى بيان .

ثانيهما: تنافر كلام الله، وكلام الشيطان، والمشركون عرب فصحاء لا يخفى عليهم ذلك

ثالثهما: أن الشيطان لا يفعل ما يؤدى إلى التقارب بين النبى ﷺ وبين المشركين، بل هو يعمل على عكس ذلك. وبالجملة فالقصة منكرة باطلة كما قال ابن العربى وعياض وغيرهما وبالله التوفيق .

****

معنى آية العفـــــو

قول الله تعالى ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾(التوبة:٤٣) قال فيه بعض المفسرين: ذكر العفو يؤذن بالجريمة. وبئس ما قال ! والعجيب أنه من المعتزلة الذين يرجعون العصمة للنبى قبل النبوة وبعدها، فكيف سقط هذه السقطة الشنيعة ؟!! والحقيقة أنه لا ذنب ولا جريمة، لسبب واضح هو: أن الذنب أو الجريمة

أو المعصية أو مخالفة النهي، ولم يسبق من الله نهي عن الإذن للمنافقين، والنبي ﷺ أذن لهم اجتهاداً منه، فكيف تنسب إليه جريمة ؟!! بل لو فرضنا أنه أخطأ لكان مثاباً على اجتهاده غير مؤاخذة بخطئه، وهو ﷺ لم يخطئ، لأنه سلك ما هو الأوفق بخلقه، من التيسير على أصحابه، والميل إلى ستر حالهم، وتفويض أمرهم إلى الله تعالى. لكن الله أراد منه أن يكون شديداً على المنافقين. فهو كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣) فالإذن للمنافقين كان جائزاً بحسب الأصل، ثم نسخ بهذه الآية. كما كان الاستغفار لهم والصلاة عليهم جائزين. ثم نسخا بقوله تعالى ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ (التوبة: ٨٤) وفاعل الحكم المنسوخ ـ قبل نسخه ـ لا يكون عاصياً، بل هو مثاب مبرور، وقوله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ (التوبة: ٤٣) استفتاح كلام، على عادة العرب في استفتاح مخاطباتهم بهذه الجملة، أو بقولهم: أطال الله بقائك، ونحو ذلك، ولا يقصدون المدلول اللفظي للكلام. وإنما يريدون تكريم المخاطب، فهذه الجملة تفيد تكريم النبي لا تحريمه .

****

معنى آية فداء الأسرى

قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنفال: ٦٧) الآية

قال بعض المفسرين: في هذه الآية دليل على خطأ النبي ﷺ، وذلك أنه استشار الصحابة في أسرى بدر، فأشار أبو بكر ﷺ بأخذ الفداء منهم، وأشار عمر ﷺ بقتلهم، فمال إلى رأي أبو بكر، ونزل القرآن برأي عمر، ولكن لا خطأ في تصرف النبي ﷺ لأنه مال إلى الأوفق بطبعه، وهو التيسير، وترك التفسير، ثم ترتب على ذلك خير كثير، لأن كثير من الأسرى الذين دفعوا الفداء، أسلموا بعد ذلك، وحسن إسلامهم. ولهذا لم يوجه الله لوماً لنبيه. وإنما لام الصحابة: لأنهم قصدوا بالفداء الناحية المادية، فقال تعالى ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ (الأنفال: ٦٧) يؤيد هذا ما ثبت في الصحيح أن عمر ﷺ دخل على النبي ﷺ قبته يوم بدر، فوجده يبكي هو وأبو بكر ﷺ فسأله عن سبب بكائهما؟ فقال { عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة } وأشار إلى شجرة قريبة منه، ثم أخذت الآية أن ما حصل من الفداء والغنائم، سبق الكتاب بإحلالهم لهم، فقال تعالى ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٨-٦٩) والحاصل: أن ما مال إليه النبي ﷺ ترتب عليه ثلاثة أمور:

١ - موافقة الكتاب السابق بذلك .

٢ - إسلام كثير من الأسرى الذين دفعوا الفداء .

٣ - إحلال الغنائم، فعمل تترتب عليه هذه النتائج العظيمة، لا يكون خطأ أبداً، وبالله التوفيق.

****

قصة زيد وزوجه زينب

قال الله تعالى - يخاطب نبيه - ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالاعتاق، وهو زيد بن حارثة: كان من سبى الجاهلية، فاشتراه النبي ﷺ قبل البعثة، وأعتقه وتبناه ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ زينب بنت جحش ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ في طلاقها، وكان عازماً عليه، لتعاليها عليه بحسبها ونسبها ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ من وقوع حبها في قلبك حين نظرت إليها بعد زواج زيد بها، وقلت في نفسك { لو فارقها زيد تزوجتها } ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ أن يقولوا: تزوج امرأة أبنه ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾(الأحزاب:٣٧) في كل شيء، فتزوجها ولا تهتم بكلام الناس، هكذا قال كثير من المفسرين، وهو صحيح إلا قولهم: إن النبي ﷺ نظر إلى زينب بعد زواج زيد بها، فوقعت في قلبه .. ألخ، فإنه غير صحيح، بل هو باطل، لوجوه:

الأول: أن النبي ﷺ كان يرى زينب قبل زواجها، وهي بنت عمه، فلم يقع حبها في قلبه إلا بعد زواجها ؟!

الثاني: أنه ﷺ هو الذي خطبها من أخيها عبد الله وكان يمكنه أن يخطبها لنفسه لو أرادها، بل كان هذا أملها وأمل أخيها حين خطبها منه، فلما صرح لهما بزيد، أبيا، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾(الأحزاب:٣٦) فقالا رضينا بأمر الله ورسوله .

الثالث: أن حكم التبني كان إذ ذاك قائماً، لم يبطله الإسلام بعد، ولم يكن النبي ﷺ لينظر إلى زوج أبنه المتبنى نظرة حب وشهوة .

الرابع: أنه لو كان ما زعموه صحيحاً. لكان قوله لزيد ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾(الأحزاب:٣٧) نفاقاً، لأنه أظهر بلسانه خلاف ما يضمره في نفسه ! لكن الله عصم نبيه من ذلك .

الخامس: أن الله لم يبد حب النبي لزينب. ولا ميله إلى طلاقها ليتزوجها، فمن أين

* الصفحات ٣٧/٣٨ غير موجودة

بأصل المصدر *

* الصفحات من ٣٧، ٣٨ غير موجوده

مناهل العصر *

الثاني عشر: أن الله تعالى يعطيه قبل أن يسأله، كان ﷺ يرفع رأسه إلى السماء، يريد تحويل القبلة إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى عليه ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾(البقرة: ١٤٤) وهم ﷺ بطلان بعض نسائه، خشية أن يكون ميله لغيرها أكثر، فأنزل الله عليه ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ تؤخر من تشاء من أزواجك عن نوبتها ﴿ وتُؤْوِي ﴾ تضم ﴿ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ منهن ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ عن القسمة ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾(الأحزاب: ٥١) فى طلبها وضمها إليك فأعفاه الله من وجوب القسم بينهن، وخيره فيه، حتى لا تحرم أحداهن من شرف انتسابها إليه، وكونها من زوجاته ﷺ، ولما نزلت هذه الآية ؛ قالت له عائشة رضي الله عنها: أرى ربك يسارع فى هواك .

الثالث عشر: لما اتهم ابن أبيّ المنافق، عائشة رضي الله عنها أنزل الله يبرئها ببضع عشرة آية من سورة النور، افتتحها بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ ﴾(النور: ١١) وأختتمها بقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(النور: ٢٦) قالت عائشة: كنت أرجو أن يبرئني الله برؤيا يراها رسول الله ﷺ، وكنت فى نفسى أقل من أن ينزل فى شأنى قرآن يتلى .

قلت: لكن الله لشدة عنايته بنبيه سجل براءة زوجه فى كتابه الكريم، ليبين بوضوح طهارة ساحته الكريمة مما يشين

الرابع عشر: لما حصل من عائشة وحفصة فى حقه ﷺ ما يحصل عادة بين الرجل وأزواجه، خاطبهما الله تعالى بقوله ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ مالت إلى تحريم مارية الذى أسره إلى حفصة، وأفشته إلى عائشة وهو أمر يستوجب التوبة ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ تتعاونا على النبى فيما يكرهه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ ﴾ ناصره عليكم ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾(التحريم: ٤) أى عون فى نصره عليكم، وهذه الآية تدل على أن الله تعالى يعتنى برسوله عناية دونها كل عناية، وأن منزلته عند مولاه لا توازيها منزلة، فما تعلم أن الله تعالى نصر رسولاً على أعدائه بهذه الصورة الرائعة التى وعد بها رسوله فى نصره على زوجيه، حقاً إنها صورة يعجز القلم عن وصفها ويحار العقل فى تقدير عظمتها .

الخامس عشر: حكى الله عن الأنبياء أنهم دافعوا عن أنفسهم أتهام قومهم لهم، فنوح ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(لأعراف: ٦١) . وهود ﴿ قَالَ يَا

عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾(الإسراء: ١٠٢) هالكاً، وهكذا لوط وشعيب وغيرهما، ونبينا ﷺ تولى الله الدفاع عنه، قال له المشركون ﴿ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾(الرعد:٤٣) فرد الله عليهم بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٢) ووصفوه بالجنون. فرد الله عليهم ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾(القلم:٢) وبقوله ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾(التكوير:٢٢) وقالوا له حين ـ أبطأ عليه الوحي ـ قلاك شيطانك، فرد الله عليهم بقوله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾(الضحى:٣) وقالوا ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾(النحل:١٠٣) قين نصراني. فرد الله عليهم ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾(النحل:١٠٣) وأنكر اليهود نبوته حين سئلوا عنه. فأنزل الله رداً عليهم ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ (النساء:١٦٦) ولما مات ابنه إبراهيم عليه السلام، قال المشركون: بتر محمد. فأنزل الله رداً عليهم سورة الكوثر، قال فيها ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ مبغضك ﴿ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾(الكوثر:٣) وهكذا لا تجد المشركين أو اليهود وجهوا تهمة للنبي ﷺ، إلا ردها الله عليهم ابلغ رد، وكذبهم فيها أقبح تكذيب، ولم يفعل ذلك مع رسول قبله، وإلى هذا أشرت بقولي في الاستغاثة الآتية بعد:

نبي تولى الله عنه دفاعه وخيب قوماً قد رموه بجنة

السادس عشر: أن الله تعالى دافع عن أصحابه تكريماً له ﷺ أقرأ قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ الجهال، يقصدون أصحاب النبي ﷺ، قال تعالى يرد عليهم أبلغ رد ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(البقرة:١٣) ولم يدافع عن أصحاب رسول قبله .

السابع عشر: أن الله تعالى زكى جملته بقوله في سورة النجم ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ وزكى نطقه بقوله ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ وزكى علمه بقوله ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ وزكى قلبه بقوله ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ وزكى بصره ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾(النجم:١-١٧) ثم زكى خلقه بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(القلم:٤) . فزكاه جملة وتفصيلا، وما زكى رسولاً بهذه الكيفية .

الثامن عشر: أن الله تعالى جعله خاتم النبيين، قال تعالى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾(الأحزاب:٤٠) .

التاسع عشر: أن الله تعالى أرسله للعالمين الإنس والجن. وقال الله تعالى ﴿ تَبَارَكَ

التاسع عشر: أن الله تعالى أرسله للعالمين الإنس والجن، وقال الله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾(الفرقان:١) وفى سورة الرحمن توجه الخطاب بالبشارة والإنذار للإنس والجن جميعاً .

العشرون: أن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين، قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾(الأنبياء:١٠٧) ومعنى ذلك أن الله تعالى دفع برسالته الخسف والمسخ والقذف بالحجارة من السماء، وغير ذلك مما كان فى الأمم السابقة .

الحادى والعشرون: أن الله جعل وجوده فى مكان مانعاً من نزول العذاب بأهله ولو كانوا أبغض الخلق عند الله، إكراماً له ﷺ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالُوا ﴾ أى مشركو مكة ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا ﴾ ما أتى به محمد ﴿ هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(الأنفال:٣٢) وهذا منتهى العناد فى الكفر يستوجب الغضب والمقت، ونزول العذاب العاجل، ومع ذلك قال الله تعالى يخاطب نبيه ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾(الأنفال:٣٣) وهذا تكريم لا يوازيه تكريم .

الثاني والعشرون: أن الله تعالى وجه إنذاراً للملائكة فى القرآن الذى أنزل عليه، قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾ أى الملائكة ﴿ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾(الأنبياء:٢٩) وبهذه الآية مع آية ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾(الأنعام:١٩) استدل الحافظ السيوطى على إن النبى ﷺ رسول إلى الملائكة، أنظر كتابه " الأرائك فى إرسال النبى إلى الملائك" .

الثالث والعشرون: أن الله تعالى أنزل سوراً خاصة تنوه بعظم قدره، مثل سورة الفتح والضحى والانشراح والكوثر والنصر .

الرابع والعشرون: أن الله تعالى أخذ ميثاق على النبيين أن يؤمنوا به وينصروه، قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ عهدى ﴿ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى ﴾ أعرض ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ الميثاق من اتباعكم ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(آل عمران:٨١-٨٢) وفى هذا تنويه كبير بقدر نبينا ﷺ، وإليه الإشارة بقولى فى الاستغاثة:

وفى آية الميثاق عهد مؤكد من الله المرسل الكرام بجملة

يقاربه ما حكاه الله تعالى عن خليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ ﴾ أى أهل البيت الحرام ﴿ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(البقرة: ١٢٩) فاستجاب الله تعالى دعاءهما بنبينا ﷺ .

وما حكاه عن التوراة والإنجيل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فى الدنيا ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ فى الآخرة ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ محمد ﷺ ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ باسمه ونعته ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ مما حرم فى شرعهم ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ كالميتة والخنزير ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ ثقلهم ﴿ وَالْأَغْلالَ ﴾ الشدائد ﴿ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ كقتل النفس فى التوبة وقطع أثر النجاسة من الثوب ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ وقروه ﴿ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ وهو القرآن ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(لأعراف: ١٥٦-١٥٧) وما حكاه عن عيسى عليه السلام ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾(الصف: ٦) وهؤلاء زعماء الرسل وكبراؤهم، فأى تنويه يوازى هذا أو يقاربه ؟! .

الخامس والعشرون: أن الله تعالى جعل محبته موقوفة على أتباع رسوله وجعل طاعته طاعة له، وأمر بطاعته وطاعة رسوله ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(آل عمران: ٣١) ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾(آل عمران: ٣٢) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾(النساء: ٥٩) ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾(النساء: ٨٠) ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾(الحشر: ٧) فى آيات كثيرة .

وأخبر عن الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وعيسى وغيرهم أنهم أمروا قومهم بطاعتهم حيث قال كل واحد لقومه ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(آل عمران: ٥٠) والسر فى ذلك: أن الله تعالى كما تولى الدفاع عنه، تولى توجيه الأمر بطاعته، وحيث ترك الأنبياء يدافعون عن أنفسهم ترك لهم توجيه الأمر بالطاعة، وبين المقامين فرق لا يخفى .

السادس والعشرون: أن الله تعالى كثيراً ما يقرن ذكر رسوله بذكره نحو ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾(البقرة: ٢٧٩) ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ

* الصفحات ص ٤٢-٤٣ غير موجودة

* مناصل المصدر *

* الصفحات ص ٤٣، ٤٤ غير موجوده

من اصل المصدر *

الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(النور:٥)
وحاصل الحكم المذكور أن من قذف عفيفة بالزنا، إن لم يأت بأربعة شهود شهدوها تزني، يجلد ثمانين جلدة حد القذف وترد شهادته لفسقه، فإن تاب بعد ذلك قبلت شهادته، وزال عنه حكم الفسق غير أنه ـ في حالة جلده ورد شهادته ـ لا يقطع بكذبه، لجواز أن يكون صادقاً ولم يقدر على إحضار شهود، والأحكام الشرعية تكون بحسب الظاهر .

وعلى هذا لا مغمز في أبي بكرة حيث جلده عمر ﷺ حد القذف في شهادته على المغيرة بالزنا ولم يكمل نصاب الشهادة، على أن الجلد في حالة عدم تمام النصاب، اجتهاد من عمر ﷺ، غير مجمع عليه، فأبو بكر صحابي عدل مقبول الشهادة والرواية، وبالله التوفيق .

****

بعض الحقائق العلمية في القرآن

قال الله تعالى ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾(يونس:٦١) وقال سبحانه ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾(سبأ:٣) تفيد هاتان الآيتين أن الذرة تتجزأ، وقد توصل العلم أخيراً، بعد أن أدرج القدماء أن الذرة لا تتجزأ، ولم يفطنوا إلى أن القرآن يشير إلى خلاف ما يقولون، وهكذا كلما تقدم العلم، واكتشفت حقيقته، وجد القرآن سبقه إلى الإشارة إليها، ولنذكر لذلك أمثلة حضرتنا الآن، هذا إحداها .

الثاني: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾(الأنعام:٦٥) ورد في حديث أنه لما أنزلت هذه الآية، قال ﷺ { وأما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد } وقد أتى تأويلها الآن في هذه الحروب التي تلقى فيها الطائرات القنابل المدمرة، وتنفجر تحت الأرجل الألغام المهلكة، ووقع التفريق والاختلاف والتطاحن على وجه لم يسبق له مثيل .

والثالث: ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ أَنْ ﴾ لا ﴿ تَمِيدَ ﴾ تميل ﴿ بِكُمْ ﴾(النحل:١٥) يقال: ما دامت السفينة إذا مالت في سيرها بشدة الموج، وهكذا تفيد الآية تحرك الأرض مع عدم ميلها لإرسائها بالجبال .

الرابع: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾(الحجر:٢٢) تلقح النبات، تجمع بين ذكره

الرابع: ﴿ **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ** ﴾(الحجر: ٢٢) تلقح النبات، تجمع بين ذكره وأنثاه، وفى آية أخرى ﴿ **فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى** ﴾(طه: ٥٣) وفى ثالثة ﴿ **وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ** ﴾(الرعد: ٣) فهذه الآيات تشير إلى أن فى النبات ذكراً وأنثى وأن الرياح تلقحه، وكل ذلك توصل إليه العلم أخيراً .

والخامس: ﴿ **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ** ﴾(الحجر: ١٩) تشير الآية إلى ما أكتشفه العلم أخيراً، أن النبات مكون من عناصر بنسب معينة ومقادير محدودة، لا تنضبط إلا بأدق الموازين .

والسادس: ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾(النحل: ٨) كالقطار والسيارة والطائرة بأنواعها، وغير ذلك من المخترعات للركوب، فالآية نص فى الإشارة على ما ذكر .

والسابع: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾(الأنبياء: ٣٠) تشير الآية إلى حقيقتين علميتين:

إحداهما: أن السموات والأرض إنفتقتا عن النظام الشمسى .

ثانيهما: أن كل شيء حي من الماء، حتى الجماد، له حياة قائمة بماء التبلور .

والثامن: ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ** ﴾(القيامة: ٣-٤) أى أصابعه، توصل الغربيون - بعد البحث عن حكمة تخصيص الأصابع بالذكر فى الآية - إلى اكتشاف حقيقة هامة، فقد وجدوا أن خطوط الأصابع والتعاريج التى فيها لا تتشابه، رغم صغر رقعتها، وكثرة المخلوقات ! .

ومن هنا صارت البصمة تدل على صاحبها دلالة قاطعة[1] أخبرنى المرحوم / متولى العوضى: أن مستشرقاً إنجليزياً حدثه بهذا، أثناء كلامهما عن القرآن الكريم، وما فيه من الحقائق العلمية .

والتاسع: ﴿ **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ** ﴾(النحل: ٦٩) ثبت علمياً أن عسل النحل ينفع علاجاً كثيراً، ولا سيما بعد أن وجد فيه الجلوكوز الذى يعالج به عدة أمراض مستعصية، وتوصل علماء الطب أخيراً إلى استخراج دواء من العسل، لعلاج مرضى السكر .

(١) كتب أخي العلامة السيد / حسن الصديق فى هذا الموضع ما نصه: وشيء آخر وهو: أن علم التشريح الحديث أثبت أن أدق أعضاء الجسم تركيباً أصابع الإنسان، حتى أنهم ليقضون فى دراستها مدة تعادل المدة التى يقضونها فى جسم الإنسان كله .

والعاشر: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾(الذاريات: ٤٧) تشير هذه الآية إلى حقيقة علمية، وهى أن السماء تتسع شيئاً فشيئاً فى الفضاء اللانهائى، حتى تصل إلى النهاية التى تتمزق عندها وتتشقق .

والحادي عشر: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾(فصلت: ١١) كلمة "دخان" تشير إلى ما أكتشفه العلم من أن الأمشير مادة الكون، وهذا قل من كثر، وبعض من كل. ومن استعمل فكره، وأمعن نظره، هدى إلى كثير من الحقائق العلمية المختلفة، ولشقيقنا الحافظ أبى الفيض ـ رحمه الله ـ كتاب "مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية" فيه بيان بعض المكتشفات المستخرجة من القرآن الكريم، وهو مطبوع بمكتبة القاهرة فليراجع .

****

الإسراء والمعراج كانا يقظة

الإسراء والمعراج من أهم معجزات نبينا محمد ﷺ وهما مسجلان في القرآن الكريم، فالإسراء فى قوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(الإسراء: ١) والمعراج فى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ ﴾ رأى محمد ﷺ جبريل على صورته ﴿ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ مرة أخرى ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ (النجم: ١٣-١٤) شجرة نبق ينتهى إليها عالم المخلوقات، ورآه المرة الأولى فى الأرض ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾(التكوير: ٢٣) وسدرة المنتهى مبدأها فى السماء السادسة، ومنهاها فوق السماء السابعة ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ (النجم: ١٥-١٦) من أنوار وأسرار ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ من محمد ﷺ، وهذا تصريح بأن الرؤيا حقيقية، لا منامية ولا روحية، والصريح لا يقبل التأويل، كما تقرر فى علم الأصول ﴿ وَمَا طَغَى ﴾ ما تجاوز مرئيه، تأكيد لكون الرؤية حقيقية ﴿ لَقَدْ رَأَى ﴾ ببصره هناك ﴿ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾(النجم: ١٧-١٨) العظام .

وقد أجمع العلماء على أن الإسراء والمعراج كانا يقظة بالجسد والروح، وما نقل عن عائشة ﵂ من أنها لم تفقد جسم النبى ﷺ ليلة الإسراء كذب عليها، لأن عمرها إذ ذاك أربع سنوات أو أقل، ولم يتزوجها النبى ﷺ إلا بعد الهجرة، والإسراء كان قبل الهجرة بخمس سنوات .

وإنما صح عنها بالطرق الموثوق بها أنها قالت مثل ما قال غيرها من الصحابة، وانعقد عليه الإجماع، ولفظ ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ صريح فى ذلك أيضاً، وزعم بعض العصريين المتحذلقين أنهما كان مناماً، وزعم آخر أنهما جولة روحية، بمعنى أن النبى ﷺ ـ وهو قاعد بمكة ـ

جـال بـروحه فـى بيت المقدس والسموات وغيرهما، وهذان القولان فى غاية السخف، إذ لو كـان الأمر كذلك، فلم كذب المشركون النبى ﷺ ؟ ولما سألوه أن يصف لهم بيت المقدس؟ ولم ارتـد بعـض ضـعفاء المسلمين ممن لم يتسع أفقهم لإدراك هذه المعجزة ؟! لقد كان من السـهل جـداً أن يقـول النـبى ﷺ: أنهـا رؤيـة منامـية، أو جولـة روحـية، فلا يحصل تكذيب، ولا ارتـداد، لكـنه ﷺ صـرح كمـا صـرح القـرآن بأنـه كـان فى رحلة حقيقية، ووصف لهم بيت المقدس ـ ولم يذهب إليه قبل ذلك وهم يعرفون ـ وأخبرهم عن العير التى مر بها فى الطريق.

ثـم لا معنى لاستبعاد الإسراء والمعراج، والتماس تأويلهما، مع شهادة العقل بإمكانهما بـل توصـل العـلم إلى مـا يقـربهما إلى الأذهـان، ويـزيد عنهما كل إشكال، فالطائرة تقوم من القاهـرة صـباحاً، وتصـل إلى جـدة قـبل الظهر، بل تقطع المسافة بين مصر وموسكو فى أربع ساعات، وبينهما بضعة آلاف ميل .

وهـذه الأقمـار الصـناعية، أو سـفن الفضاء تتجاوز منطقة الجاذبية، وتدور حول الأرض عدة مـرات بمعـدل سـاعة ونصـف لكـل مـرة، وفـيها آلات تسـجل مـا هناك، ثم تعود، لقد أصبح هذا وشـبهه أمـراً عاديـاً بسـبب تقدم العقول البشرية، فيما وهبه الله لها من العلوم الكونية، المشار إليها بقولـه تعـالى ﴿ الَّـذِي عَلَّـمَ بِـالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(العلق٤،٥) افيسـتبعد ـ بعد هذا ـ على واهـب العقـول، وخـالق القوى والقدر أن ينقل نبيه إلى بيت المقدس ؟ ثم إلى سدرة المنتهى ويرده فى ليلـته ؟! ! لا سـيما وقـد نقلـه على ركوبة أسرع من الطائرة فقد كان البراق يضع حافره عند منتهى بصره، وكان معه فى معراجه جبريل الذى ينزل من السماء السابعة إلى الأرض فى لحظة .

وبهـذا استدل الصديق ﷺ على صحة الإسراء وإمكانه، فإنه لما قال له بعض المشركين أصـاحبك يـزعم أنـه اسـرى بـه الـليلة إلى بيت المقدس وأصبح بين أظهرنا ! فقال: لئن قال ذلـك، لقـد صـدق، قـيل لـه: أو تصدقه فى ذلك ؟ قال: أنا أصدقه فيما هو أبعد من ذلك، اصدقه فى الوحى ينزل عليه من السماء فى لحظة ! .

والخلاصـة: أن منكر الإسراء والمعراج أو مؤولهما خالف القرآن، وصادم العقل، وجانب المنطق، وجهل ما وصل إليه العلم الحديث، فى اعتداد بإنكاره ولا لتأويله، وبالله التوفيق .

* * * * * * *

أقسام الوحى

قسم العلماء الوحى إلى قسمين: متلو، وغير متلو، فالمتلو القرآن، وغير المتلو السنة، وقسموا الثانى إلى قسمين: ظاهر وخفى، فلظاهر السنة القولية أو الفعلية، والخفى اجتهاده ﷺ واستدلوا على أن السنة وحى بقوله تعالى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾(النجم:٣-٤) وبيان الاستدلال أن ﴿ يَنْطِقُ ﴾ فعل يشتمل على مصدر منكر، وقع فى سياق النفى، والقاعدة المقررة فى الأصول، أن النكرة الواقعية فى سياق النفى، أو الشرط للعموم بالوضع، فتقدير الآية: وما يحصل منه نطق عن الهوى ما هو إلا وحى يوحى فجميع نطقه المتعلق بالدين، صادر عن الوحى، سواء أكان قرآناً أم سنة ؟ وهذا واضح جداً، والمسألة مبسوطة بدلائلها فى كتب الأصول .

* * * * * * * *

معنى الحروف المتقطعة

الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور، وهى ﴿ ألم . ألمص . ألر . ألمر . كهيعص . طه . طسم . طس . يس . ص . حم عسق . ق . ن ﴾ اختلف فيها؟ فقيل: هى من المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله، وقيل: رموز بين الله ورسوله، وقيل أقسام أقسم الله بها، وقيل: أسماء للسور، فيقال: سورة: ألم، كما يقال: سورة البقرة، وقيل ـ فى طه ويس ـ إنهما اسمان من أسماء النبى ﷺ[1]، وقيل: أنزلها الله تعالى لتكون معجزة للنبى ﷺ حيث عرف مسميات الحروف "ألف . لام . ميم" ونطق بها، وهو أمى، وقيل: لما قال المشركون ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾(فصلت:٢٦) أنزلت هذه الحروف ليضطروا إلى استماعها واستماع ما بعدها، لغرابتها عليهم، وقيل: أنزلت للإشارة إلى أن القرآن مؤلف من حروف يتكلمون بها، وتجرى فى لغتهم، وهم ـ مع ذلك ـ عاجزون عن معارضته، ويؤيد هذا أن هذه الحروف المقطعة تشتمل على نصف حروف المعجم، وفيها من حروف الحلق والإطباق والقلقلة والاستعلاء والصفير والغُنة، ومن الحروف الرخوة والشديدة والمهموسة والمهجورة، الخ[2] .

---

(١) كتب أخى السيد حسن فى الموضع ما نصه: قال ابن القيم: لم يصح فى أنهما اسمان للنبى ﷺ .. حديث .

(٢) ويؤيده أيضاً: أن تلك الحروف جاء بعدها ذكر القرآن أو الكتاب ﴿ الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ ... الم ۝ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ... المص ۝ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ... كهيعص ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ أى هذا الكتاب ذكر رحمة ربك وهكذا فى سائر السور، إلا ثلاث سور لم يأت بعدها ذكر القرآن ولا الكتاب وهى ﴿ الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ... الم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ... ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ وسر ذلك بينته فى كتاب "جواهر البيان فى تناسب سور القرآن" وهو مطبوع بمكتبة القاهرة . .

فكأنه يقول: إن القرآن - مع كونه مؤلفاً من حروف لغتكم وخصائصها - عجزتم عن الإتيان بمثله أو بسورة منه، وما ذاك إلا لأنه كلام الله تعالى. وهذا قول جيد لا بأس به، والقولان قبله كذلك، والله أعلم بسر كلامه .

****

آية تتعلق باليهود

قال الله تعالى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴾ أى ضربت الذلة على اليهود حيثما وجدوا، فلا عز لهم ولا اعتصام ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾(آل عمران: ١١٢) أى المسلمين فيما مضى، كانوا يحمونهم من أن يقع عليهم عسف أو اضطهاد. والدول الغربية اليوم. فبحبل من أمريكا وإنجلترا وفرنسا - أى بعهد منهم - اغتصب اليهود فلسطين. ولولا حيل هذه الدول اللعينة ما استطاع اليهود أن يقفوا أمام العرب يوماً واحداً، وإن يوم الانتصاف منهم قريب بمشيئة الله تعالى، أما قوله تعالى - فى اليهود أيضاً - ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾(الأعراف: ١٦٧) أى قرب يوم القيامة، ولا بد من هذا التأويل، فليس بينه وبين الآية السابقة تناقض، إذ قد دلت الأحاديث الصحيحة أن من علامات قرب الساعة أن يكون لليهود دولة يرأسها الدجال، وينزل عيسى عليه السلام فيقتله ويقتل اليهود، فدولتهم الآن من دلائل قرب خروج الدجال الذى هو من علامات الساعة الكبرى، وبالله التوفيق .

****

هل عم الطوفان جميع الأرض ؟

هل عم الطوفان الأرض ؟ أو كان خاصاً بجزء منها ؟ والجواب: لم يعم الأرض كلها بسبب واضح هو: أن الأرض لم تكن حينئذ معمورة بالسكان وإنما كان المسكون منها منطقة الشرق الأوسط. فلما فار التنور بالماء أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل فى السفينة من كل زوجين أثنين من السباع والطير وغيرهما. وأن يحمل معه من آمن به من أهله وغيرهم. وهم قليل . وعم الطوفان هذه المنطقة كلها، فلم يبق فيها نازل دار، ولا نافخ نار، ولأجل أن هذه المنطقة التى عمها الطوفان كانت مسكونة دون غيرها، ترتب على ذلك أمران:

إحداهما: أن رسالة نوح بعد الطوفان كانت عامة. وهو عموم طارئ. لأنه لم يبق على الأرض غير من كان معه على السفينة .

ثانيهما: أن سكان الأرض اليوم كلهم من أولاد نوح عليه السلام، قال الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾(الصافات:٧٧) فهو أبو البشر الثاني بعد آدم عليهما السلام .

فإن قيل: أليس قد نجا معه ناس آمنوا به ؟ قيل: نعم، ولكنهم قليلون، قال تعالى ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾(هود:٤٠) وهم ـ وإن كانوا لهم ذرية كما يفيده قوله تعالى ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾(الإسراء:٣) ـ فهم مغمورون بالنسبة لذرية نوح الباقية إلى يوم القيامة بنص القرآن .

* * * * * * *

أدلة نبوة الخضر عليه السلام

قول الخضر عليه السلام ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾(الكهف:٨٢) دليل أنه فعل تلك الأمور بوحي من الله تعالى، فيكون نبياً، وهو الصحيح . وما قاله كثير من المفسرين: أنه فعل ما فعله بإلهام بناء على قولهم بولايته، ليس بصحيح لوجوه:

إحداهما: أن ما أقدم عليه من خرق السفينة، وقتل الغلام، لا يجوز حصوله بأمر إلهام.

ثانيهما: لا يجوز أن يدرك الخضر ـ وهو ولي ـ أن الغلام سيرهق أبويه كفراً، ولا يدركه موسى وهو نبي .

ثالثهما: لا يجوز أن يكون الولي ـ ولو بلغ أعلى درجات الولاية ـ أعلم من النبي .

رابعها: لو فعل ما فعله عن إلهام كما يقال، لوجب عليه القصاص في قتل الغلام ودفع قيمة تعييب السفينة، ولا تعفيه ولايته من ذلك. لكن شيئاً من ذلك لم يحصل، فدل على أنه كان يفعل بوحي تشريع .

خامسها: أن تعليله لما فعل بقوله ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ... فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ... فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ يدل على أنه واثق من نتيجة عمله، جازم بها، وهي غيب لا يدرك إلا بوحي نبوة، ولو كان إلهاماً لقال: فرجوت أن يكون كذا، ولم يجزم أبداً بحال .

سادسها: لو لم يكن نبياً يوحى إليه، لم يدرك بمجرد الإلهام أن الله أراد أن يبلغ اليتيمان أشدهما، ويستخرجا كنزهما .

سابعها: قوله لموسى عليه السلام بأسلوب الواثق المتأكد مما يقول ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾(الكهف:٦٧-٦٨) هذا وهو يعلم أنه موسى رسول بني إسرائيل،

كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما، فلولا أنه نبى يعلم أنه على شريعة لا يعرفها موسى، ما تجرأ على مخاطبته بهذا الأسلوب اعتمادا على مجرد الإلهام الذى يناله الأولياء. فضلاً عن رسول كريم.

ثامنها: أن موسى حين قابل الخضر عليهما السلام قال له ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾(الكهف:٦٦) فأراد أن يتعلم منه علماً زيادة على ما عنده فى التوراة. وذلك بأن يتعلم تشريعات ليست فى شريعته، والإلهام ليس بعلم ولا تشريع، وليس له قاعدة ينضبط بها، وإنما هو ـ كما قال أهل الأصول ـ: إيقاع شىء فى القلب ينشرح له الصدر. وهو لا يفيد اليقين، لجواز أن يكون للشيطان دخل فيه، إذ الولى غير معصوم، كما هو معلوم، فهل يعقل أن يطلب موسى أن يتعلم من شخص شيئاً ـ ولا أقول علماً ـ للشيطان فيه دخل ؟! .

إذن فالخضر كان نبياً، وهذا ما يفيده سياق قصتهما فى القرآن الكريم، وصرح بنبوته فى السنة النبوية، أنظر كتابنا " سمير الصالحين " بمكتبة القاهرة. والله الموفق.

****

المزية تقتضى التفضيل

مما يشاع بين كثير من أهل العلم، عبارة " المزية لا تقتضى التفضيل" فإذا قلت لأحدهم: كيف يكون الخضر ـ وهو ولى ـ أعلم من موسى وهو نبى يوحى إليه ؟ أجابك: بأن مزية، والمزية لا تقتضى التفضيل، وهى عبارة كما ـ ترى ـ قصد بها الاسترواح، وليس عليها دليل، بل الدليل يقتضى ضدها، وذلك أن التفضيل ينبنى على المزية، فبقدر مزايا الشخص يكون تفضيله، وكل نبى فضل بمزية اختص بها. كاختصاص إبراهيم بالخلة. وموسى بالكلام. ومحمد ﷺ بالرؤية، وهكذا، وفضل نبينا ﷺ لكثرة مزاياه التى اختص بها وهى التى تسمى "خصائص. ومناقب. وفضائل " والأولياء والعلماء يتفاضلون بالمزايا التى عند كل واحد منهم، وكذلك الشهور والأيام والساعات والأذكار، تتفاضل بالمزايا التى وضعها الله فيها. فقد تبين بطلان تلك العبارة من أساسها، وتجويز كون الولى أعلم من النبى، ينبنى عليه أمران خطيران :

إحداهما: فتح باب الزندقة للمدعين الذين يدعون الولاية، ويزعمون أنهم أعطوا علوماً لم يعطها بعض الأنبياء، وقد وضع بعض الملاحدة حديث " علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل " وهذا يؤدى إلى الاستخفاف بمقام النبوة.

ثانيهما: المساواة بين علم النبى الذى هو يقينى معصوم من الشيطان، وبين علم الولى الذى هو إلهام مظنون غير معصوم. فتأمل هذا جيداً. وبالله التوفيق.

من توسعات اللغة العربية

من توسعات اللغة العربية ورود الاستفهام بمعنى الأمر، مثل ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾(آل عمران: ٢٠) أى أسلموا ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (المائدة: ٩١) أى انتهوا. ولهذا قال عمر ﷺ عند نزولها: انتهينا يا رب، وورود الظن بمعنى العلم، نحو ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ يعلمون ﴿ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾(البقرة: ٤٦) ونحو ﴿ فَظَنُّوا ﴾ وعلموا ﴿ أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾(الكهف: ٥٣) وورود هل بمعنى قد مثل ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ ﴾(الإنسان: ١) ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾(النازعات: ١٥) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾(ص: ٢١) فهل فى هذه الآيات بمعنى قد؟ وورود المضارع بمعنى الماضى مثل ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾(البقرة: ١٤٤) ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ ﴾(الأحزاب: ١٨) أى قد رأينا، قد علم الله، وورود كلمة مكان أخرى نحو ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾(الكهف: ٧٧) أى يكاد ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾(طه: ١٥) أى أريد، ومثل ذلك كثير.

****

لمَ لم تتكرر قصة أهل الكهف وذى القرنين ؟

قصة يوسف عليه السلام وقصة ذى القرنين، وقصة أهل الكهف، ذكرت مرة واحدة ولم تتكرر كغيرها من القصص، والسر فى ذلك أنها نزلت إجابة للسؤال عنها، قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾(يوسف: ٧) وقال سبحانه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾(الكهف: ٨٣) وسأل أهل مكة عن أهل الكهف، فقال النبى ﷺ { أجيبكم غداً } فأبطأ عنه الوحى خمسة عشر يوماً، ثم نزل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾(الكهف: ٢٣-٢٤) ونزلت القصة.

ولم تتكرر قصة موسى والخضر عليهما السلام. لأنها تعتبر جانباً من حياة موسى المتعددة الجوانب، جانب تربيته فى بيت فرعون إلى أن قتل القبطى وخرج فاراً إلى مدين، وجانب رسالته إلى فرعون وقومه، وما قاسى من تكذيبهم وإذايتهم حتى أغرقهم الله تعالى، وجانب حياته بعد ذلك مع بنى إسرائيل ومجيئه بالتوراة، وما عانى من مخالفتهم وعصيانهم، وجانب على الاستذاده من العلم، وذهابه إلى مجمع البحرين، والتقائه بالخضر هناك، فقصته معه متممة لجوانب حياته المتعددة كما بينا، وبالله التوفيق.

أرسل الله إلى أهل المغرب رسولا

استخرجت من قصة ذى القرنين معنى لم أسبق إليه فيما أعلم، وهو أن الله تعالى أرسل إلى القوم عند مغرب الشمس رسولا. أقرا قوله تعالى ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ** ﴾ في رأى العين، لأن الشمس أكبر من الأرض ﴿ **وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً** ﴾ كفاراً، بدليل ما يأتى ﴿ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ** ﴾ بوحى إن كان نبياً، وإن لم يكن نبياً فبواسطة نبى بعث إليه، وقد قيل: أن الخضر كان معه ﴿ **إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ** ﴾ القوم بالقتل ﴿ **وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً** ﴾(الكهف.٨٦) بالأسر. ولو كانوا مؤمنين أو لم يبعث إليهم رسول، ما خير فيهم بين القتل والأسر، إذ كفرهم لا يتأتى إلا بعد إرسال رسول إليهم، وقبل ذلك لا يكون كفر ولا عذاب بالقتل ولا غيره، قال تعالى ﴿ **ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** ﴾(الأنعام: ١٣١) لم يرسل إليهم رسول، وقال سبحانه ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾(الإسراء: ١٥) وهذا واضح يزيده وضوحاً ما يأتى فى قوله ﴿ **قَالَ** ﴾ ذو القرنين ﴿ **أَمَّا مَنْ ظَلَمَ** ﴾ منهم بالشرك ﴿ **فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ۞ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً** ﴾(الكهف: ٨٧-٨٨) أى نأمره بما يسهل عليه، فكلام ذى القرنين دليل أيضاً على أن القوم أرسل إليهم رسول، وهو - على القوم بنبوته - لم يذهب إليهم داعياً، وإنما ذهب رحالة مستكشفاً، ولولا أن الله تعالى خيره منهم بين القتل والأسر، وما تعرض لهم، كما لم يتعرض لموسى - وهو رسول - للقوم الذين كانوا عاكفين على أصنام لهم، وقال بنو إسرائيل ﴿ **اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ** ﴾ لهم ﴿ **إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** (١٣٨) **إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ** ﴾ هالك ﴿ **مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(الأعراف: ١٣٨-١٣٩) ويلاحظ أن موسى عليه السلام لم يخبر من هؤلاء بأنهم معذبون لأنه لم يرسل إليهم رسولا، ويزيد هذا وضوحاً أن ذا القرنين لم يخبره الله تعالى فى القوم الذين وجدهم عند مطلع الشمس، بين القتل والأسر، وما ذاك إلا لأنه تعالى لم يرسل إليهم رسولا، فتأمله جيداً والله يتولى توفيقك.

* * * * * * * *

معنى: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾(يوسف: ٢٤)

قال الله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ** ﴾ أى همت امرأة العزيز بيوسف أن يواقعها حيث راودته على ذلك، وقالت له: هيت لك ﴿ **وَهَمَّ بِهَا** ﴾ أن يواقعها، لجمالها واستسلامها له بل تحريضها وإغرائها إياه، وكونه فى قبضتها ﴿ **لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾(يوسف: ٢٤) لواقعها، للمغريات

المذكورة. لكنه رأى برهان ربه، فلم يتجاوز الهم إلى العزم، فضلاً عن المواقعة، وبرهان من ربه، قيل: رؤيته أباه، فضرب على صدره، فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: هو ما لقى من حسن معاملة زوجها، وائتمانه إياه، وأمله أن ينفعه، أو يتبناه، فلا يليق به أن يخونه. ومن هنا يتبين أن يوسف عليه السلام ـ مع كونه تام الرجولة قوى الشهوة ـ ملك نفسه. وقمع شهوته. في ظروف مغرية. ودواع مهيجة فاستحق التنويه والثناء، وأما من فسره بأن المعنى ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ بدفعها عنه بالقوة أو ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ هم بها. فقد سلب عنه كمال الرجولة. وميزة العصمة لأنه إن لم تتحرك شهوته ـ مع جمالها وطلبها وإلحاحها عليه ـ لم يكن له فضل في الامتناع منها. لضعف رجولته حينئذ، وضعيف الرجولة لا يستحق الثناء في امتناعه مما لا يحل له من النساء. ومما يجب التنبيه عليه في هذا الموضع، أن الهم بالمعصية ليس محظوراً في حق الأنبياء عليهم السلام، وإنما المحظور في حقهم: العزم عليها، فهم ـ باعتبارهم بشر ـ قد يهمون بالمعصية. تتحقق بشريتهم. وبالإمتناع من العزم عليها ـ مع الدواعي إليها تظهر ميزة عصمتهم، وبهذه المناسبة نذكر بيتين في مراتب القصد مع بيان المعاقب عليه منها، وهما:

مراتب القصد خمس هاجس ذكروا ... فخاطر فحديث النفس فاستمعا

يليه هم فعزم كلها رفعت ... سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا

****

ترك المعصية على ثلاثة وجوه

قال العلماء: ترك المكلف للمعصية يقع على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يتركها طبعاً وعادة، كمن نشأ في عائلة لا يعرفون الخمر. ولا يشربونها فلم يشربها. ولم تدعه نفسه إلى شربها، فهذا لا يعاقب، لأنه لم يشرب الخمر. ولا يثاب. لأنه لم يتركها بقصد امتثال نهي الشارع.

الثاني: أن يتركها اضطراراً مع عزمه على فعلها، كأن عزم على الزنا أو شرب الخمر مثلاً. ومنعته ظروف قاهرة، أما مادية أو زمنية أو مكانية، فهذا يعاقب على عزمه. إذ تركه لم يكن باختياره.

الثالث: أن تتهيأ له أسباب المعصية وتدعوه نفسه إليها، ويتركها ـ مع ذلك ـ امتثالاً للنهي. وخوفاً من الله تعالى. فهذا يثاب ثواباً كبيراً. جاء ذكره في القرآن الكريم. في قوله

فـي قولـه تعـالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾(النازعات: ٤٠-٤١) .

****

الصبر على ثلاثة أقسام

وقسموا أيضاً الصبر على ثلاثة أقسام:

الأول: صبر على المعصية: وثوابه مذكور فى قوله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾(البقرة: ١٥٥-١٥٧) وهذا الثواب مشروط بأن يكون صبره جميلا، ولا يشربه تبرم بقضاء الله تعالى، ولا تسخط لقدره .

الثانى: صبر على الطاعة: أى صبر على عملها ومداومتها من غير كسل ولا تهاون .

الثالث: صبر عن المعصية: أى صبر عن فعلها. وهو تركها مع تهيؤ الأسباب كما سبق، وثواب هذين مذكور فى قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾(الرعد: ٢٢-٢٤) ويشمل الثلاثة قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(الزمر: ١٠) وتقسيم الصبر إلى هذه الأنواع مأخوذ من حديث ضعيف، وهو كتاب الأحياء للغزالى .

****

معنى الظلم

الظلم وضع الشيء فى غير مستحقه، ولذا ﴿ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(لقمان: ١٣) لأنه إطلاق وصف الألوهية على الملائكة أو عيسى أو الأصنام أو غيرهم من المخلوقات، وهم لا يستحقونها .

وجاء إطلاق الظلم على الشرك، والظالمين على المشركين، فى غير آية من القرآن الكريم، مثل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾(الأنعام: ٨٢) أى بشرك. كذا ثبت مفسراً فى حديث الصحيحين ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ﴾ بشرك ﴿ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾(الأنعام: ١٣١)

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أشرك ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾(الكهف: ٨٧) ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾(الأعراف: ٥) بالشرك ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(التوبة: ١٩) المشركين ﴿ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾(الأنبياء: ٢٩) المشركين ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ ﴾ المشرك ﴿ عَلَى يَدَيْهِ ﴾(الفرقان: ٢٧) ندماً، وهو أبى بن خلف ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ المشركين ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾(الشعراء: ١٠-١١) معه، وكل ظلم في القرآن معناه واضع الشيء فى غير مستحقه. مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾(النساء: ١٠) لأنهم أخذوا أموالا لا يستحقونها، لأنها حق لليتامى، والظلم بهذا المعنى هو الذى مدح الله تعالى نفسه بتنزهه عنه فقال ﷻ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً ﴾(يونس: ٤٤) أى لا يعذبهم وهم غير مستحقين ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾(الكهف: ٤٩) أى لا يعذب العاصى بغير استحقاق ولا ينقص من ثواب يستحقه مؤمن ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ليعذبهم بغير استحقاق ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(العنكبوت: ٤٠) بكفرهم الذى استحقوا به العذاب ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ[1] ﴾ بذى ظلم ﴿ لِلْعَبِيدِ ﴾(فصلت: ٤٦) فيعذبهم بغير ذنب .

وفى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر ﴿ يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ﴾ وهو فى الأربعين النووية، وللنبراوى فى حاشيته عليها - فى الكلام على هذه الجملة - عبارة لا تليق، وهذه النصوص تدل على أن الظلم تتعلق به القدرة، إلا أن الله تعالى تنزه عنه، وتمدح بأنه لا يفعله بل زاد: أنه لا يريده، فقال سبحانه ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ﴾(غافر: ٣١) .

والأشاعرة عرفوا الظلم بأنه التصرف فى ملك الغير، وبنوا عليه أن القدرة لا تتعلق به لأنه لا يوجد ملك لغير الله تعالى، وتمحلوا فى تأويل النصوص المذكورة التى تفيد إمكان تعلق القدرة بالظلم، حتى صدرت من النبراوى تلك العبارة غير اللائقة، كما أشرنا إليه آنفاً، وما سلكناه أسعد بموافقة النصوص، وأبعد عن التأويل .

فإن قلت: كيف يكون الظلم محالاً، ويجوز تعلق القدرة به؟ وهل هذا إلا تناقض ؟!

فالجواب: أن المحال نوعان:

عقلى بحت: لا يختلف فى استحالته كإيجاد شريك للبارى تعالى، أو لحوق العدم للذات المقدسة، أو طرد نقص أو آفة على الصفات العلية، ونحو ذلك .

---

(١) ظلام: معناه هنا: النسبة. أى وما ربك بمنسوب لظلم العباد، ومن معانى فعال فى اللغة النسب، مثل نجار. حداد. خياط. جزار. لبان. تمار. بناء. جمال. غنام. حمار.

ونقلي: كالظلم بالمعنى السابق، فإن العقل يجوز تعلق القدرة به، **إذ لا يرى فى تعذيب غير المستحق محظوراً عقلياً، ألا ترى أن الأشاعرة قالوا: يجوز فى حق الله تعالى تعذيب المطيع وإثابة العاصي وإيلام الدواب والأطفال، ألا أن الله تعالى أخبر أنه ظلم، وأنه لا يفعله، ولا يريده فصار محالاً من هذه الجهة، إذ العقل يقضى بأن خبر الله تعالى صدق وأن ما أخبر أنه لا يفعله دخل فى حيز المحال حتماً. وهذا من المحال الذى استعان فيه العقل بالنقل.**

والخلاصة: أن ما كان من المحال عقلياً صرفا لم يجز تعلق القدرة به[١]، **وما كان منه عقلياً مبنياً على النقل ـ كالظلم ـ جاز تعلق القدرة به، وبهذا ينحل الإشكال، وبالله التوفيق.**

وعدم تعلق القدرة بالمستحيل العقلي، ليس يرجع لنقص فيها، **بل لأنه لا يصلح متعلقاً لها، إذ هو كما لا يتصور فى العقل وجوده، فإن تعلقت القدرة به لتعدمه، فهو** معدوم، وإن تعلقت به لتوجده، فهو لا يقبل الوجود. وإن أوجدته ـ فرضاً ـ انقلب ممكناً والغرض أنه محال! فقد تبين لك عدم صلاحية المحال لأن تتعلق به القدرة. وبالله التوفيق.

****

تلخيص قصة إبراهيم عليه السلام

قصة إبراهيم عليه السلام فى كسر أصنام قومه، ذكرت مرتين فى سورة الأنبياء، **وفى سورة الصافات، وبينهما تخالف فى العبارة، قد يظنه ضعيف الإدراك تضارباً، فلهذا أردت تلخيصها** مع تفسير يزيل ما قد يتوهم من تضارب: لما جادل إبراهيم عليه السلام **قومه فى الأصنام التى** يعبدونها قال **﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾**(الأنبياء: ٥٢ـ٥٦) وقال لهم أيضاً[٢] **﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي**

---

(١) كتب أخى السيد حسن فى هذا الموضوع ما نصه: وذهب ابن حزم إلى جواز تعلق القدرة بالمحال العقلي، دون المحال المطلق. مستدلا على ذلك بأن المحال العقلي قد يرى فى المنام، والذى جعله ممكنا فى النوم، قادر على أن يجعله ممكنا فى اليقظة، وأنه إنما صار محالا منذ خلق الله العقل لا قبله، فلو شاء أن يجعله محالاً، لما كان محالا، بل الذي خلق العقل المحيل له، قادر على أن يخلق غيره يماثله أو يخالفه، واستدل كذلك بقوله تعالى **﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾** (الزمر: ٤) انظر كلامه إن شئت فى كتاب "الملل والنحل" له، فى مبحث القدرة ج٢، والمحال المطلق عنده هو ما أوى إلى تغيير صفة من صفاته تعالى، ومع ذلك جعل مسألة اتخاذ الولد من قبيل المحال العقلي، وظاهر أنها من قبيل المطلق على حد تقسيمه. ولهذا استهدف فيها إلى انتقادات مرة، حتى لعنه بعضهم، وأجاب الجمهور عن الآية التى استدل بها بأنها قضية شرطية، لا تقضى الوقوع.

(٢) فى سورة الشعراء.

إلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين * وَإذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين ﴾ (الشعراء: ٧٥-٨٢) ولم تكن له خطيئة لعصمته. وإنما قال ذلك تعريضاً بخطاياهم وتحريضاً لهم على الإيمان بالله تعالى ليغفر لهم، قال أيضاً ﴿ أَإِفْكاً ﴾ أكذباً ﴿ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الصافات: ٨٦-٨٧) إذا عبدتم غيره أن يترككم بلا عقاب ؟ لا حصلت هذه المجادلة والمراجعة بينه وبين أبيه وقومه. وحصلت أيضاً مجادلات أخرى. والقرآن ـ على طريقته فى الإيجاز ـ لم يذكر تلك المراجعات بتمامها، بل ذكر فى كل مرة روحها وخلاصتها. وهو توحيد الله تعالى، وبطلان عبادة الأصنام، ثم هذه الخلاصة ذكرها القرآن بأساليب مختلفة، متساوية فى بلاغة التعبير، ووضوح الحجة، وقوة التأثير .

بعد حصول هذه المناقشات التى تكررت من إبراهيم عليه السلام، أنذر من كان حاضراً من قومه بقوله ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾(الإنبياء: ٥٧) فانتقل من تغيير المنكر باللسان إلى تغييره باليد والقوة، حيث لم ينجح فيهم البرهان، وكان لهم يوم عيد يجتمعون فيه. فدعوا إبراهيم يذهب معهم، وتركوا طعامهم عند الأصنام للتبرك، فاعتذر إبراهيم من الذهاب معهم. وكانوا نجامين ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ يوهمهم أنه يتعمدها ليقبلوا كلامه ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ يقصد أنه عليل بكفرهم، وفهموا أنه مريض ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ إلى اجتماعهم ﴿ فَرَاغَ ﴾ فمال خفية ﴿ إِلَى آلِهَتِهِمْ ﴾ أصنامهم وعندها طعام ﴿ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ وبالضرور لم ينطقوا. فقال تهكماً ﴿مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ﴾ مال ﴿ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِين ﴾ (الصافات: ٨٨-٩٣) بالقوة، بفاس معه ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ فتاتاً ﴿ إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ ﴾ علق الفأس برأسه ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾(الأنبياء: ٥٨) فيرون ما فعل بالأصنام الصغيرة. فرآه من لم يخرج معهم لمرض وحراسة ونحوهما ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾(الصافات: ٩٤) يسرعون قالوا له: نحن نعبدها وأنت تكسرها ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(الصافات: ٩٦) أخذ منه أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى، خلافاً للمعتزلة القائلين: لأن العبد يخلق أفعاله، فلما رجع من الاجتماع رؤسائهم وأعيانهم، ورأوا أصنامهم مكسرة ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا ﴾ أى الذين سمعوه يقول: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾(الأنبياء: ٥٧) ﴿ سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ ﴾ بالعيب والتهديد ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ تجاهلوه استصغاراً له فى نظرهم، وعلموا أن ناساً ممن لم يخرجوا معهم شاهدود يكسرها ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ الذين رأوه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أنه الذى كسرها ﴿ قَالُوا ﴾ له بعد إتيانهم به

﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ وهذا استفهام تقرير. أى أقر بفعلك ﴿قَالَ﴾ ساكتاً عن فعله، لئلا يكون كاذباً لو نفاه عن نفسه ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ وليس فى هذا كذب. لأنه نسب الفعل إلى كبير الأصنام على تقدير حصول الشرط، وهو نطقهم. والمعلق على حصول شرط لا يقع إلا بوقوعه. وفى هذا تعريض لهم بما صرحوا به فى قولهم له ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ فاعترفوا بأن آلهتهم عاجزة عن النطق، وهى عن الفعل أعجز، وتمت الحجة عليهم باعترافهم. لكنهم استمروا فى كفرهم وعنادهم. فقال موبخاً لهم ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(الأنبياء: ٥٩-٦٧) فانقطعت حجتهم. ولم يبق لهم من برهان إلا أن ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً﴾ واملئوها حطباً فإذا اشتعل ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾(الصافات: ٩٧) و ﴿ قَالُوا ﴾ أيضاً ﴿ حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾(الانبياء: ٦٨) نصرتها، فأرادوا به كيداً بإحراقه، فأنجاه الله تعالى، وجعلهم الأسفلين الأخسرين، وتركهم إبراهيم ذاهباً ومعه ابن أخيه لوط إلى الشام، وبهذا تمت قصته معهم بما فيها من عظة وعبرة، وبالله التوفيق .

****

قصة يونس عليه السلام

ذكرت هذه القصة فى سورتى الأنبياء والصافات أيضاً. وخلاصتها: أن الله تعالى بعثه إلى أهل نينوى. فكذبوه وأتعبوه بكفرهم وعنادهم، فتركهم غضباً عليهم، ولم يؤذن له فى تركهم، وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ صاحب الحوت وهو يونس ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً ﴾ قومه، لما قاس منهم ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾(الأنبياء: ٨٧) نضيق عليه فى ذلك حيث خرج بغير إذننا، وجد مركباً فركب فيه كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ أَبَقَ ﴾ هرب من قومه ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء بالركاب وأمتعتهم. فركب فيه فتوقف الفلك وسط البحر. فقال الملاحون: هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ قارع أهل الفلك على أن من خرج سهمه يلقى فى البحر، فخرج السهم عليه ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ المغلوبين بالقرعة. فألقوه فى البحر ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ﴾ ابتلعه ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (الصافات: ١٤٠-١٤٢) آت بما يلام عليه. حيث ترك قومه بغير إذن من ربه ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(الأنبياء: ٨٧) وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى لكان بطن الحوت قبراً له ﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ ألقيناه من بطن الحوت ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ بساحل البحر ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ عليل ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ ما ينبت على ساق كالقرع ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ ﴾ ثانياً ﴿ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ ﴾ بل ﴿ يَزِيدُونَ ۞ فَآمَنُوا ﴾

عند رؤية أمارة العذاب كما فى سورة يونس ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِين﴾(الصافات:١٤٣-١٤٨) يبلغ فيه آجالهم، وقال ﷺ - يأمر رسوله بالصبر - ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ وهو يونس ﷺ ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ فى بطن الحوت ﴿ لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ ﴾ أدركه ﴿ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ ﴾ بالأرض الفضاء ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ لكنه رحم فنبذ غير مذموم ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ بالرسالة إلى قومه ثانياً ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(القلم:٤٨-٥٠) والصالح هو الذى يؤدى حق الله تعالى. وحق الناس هذا ما جاء عن يونس ﷺ فى القرآن الكريم، وليس فيه نسبة معصية إليه، غاية ما فى الأمر أنه لما بلغ الرسالة إلى قومه وكذبوه ؛ فارقهم مغاضباً بدون إذن من الله تعالى، مجتهداً فى ذلك، وما حصل له من ابتلاع الحوت إياه، ليس بعقاب، ولكنه عقاب، صاحبته معجزات وألطاف، وربك يفعل ما يشاء .

وثبت فى صحيح البخارى عن النبى ﷺ قال { لا تفضلونى على يونس ابن متى } .

سئل أمام الحرمين عن هذا الحديث ؟ فقال ((أنه ينفى الجهة عن الله تعالى، فقيل له : كيف ذلك؟ فقال: عندى ضيف، عليه ألف دينار، ؛ فإن كان فيكم من يؤديها عنه ذكرت الجواب، فتكفل بها رجلان فى المجلس، فقال: يشق عليه أن يتبع أثنين، فقال رجل فى المجلس: هى علىّ، فقال: إنما خص الحديث يونس دون غيره، للإشارة إلى أن النبى ﷺ - وهو عند سدرة المنتهى ليلة المعراج - لم يكن بأقرب إلى الله من يونس وهو فى بطن الحوت، وهو جواب نفيس، وبالله التوفيق .

****

أسماء يوم القيامة

ليوم القيامة فى القرآن أسماء كثيرة:

إحداها: يوم القيامة: وهو أشهدها وأكثرها، وروداً فى عدة آيات، منها قوله تعالى ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾(النساء:٨٧) .

ثانيها: يوم الدين: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾(الفاتحة:٤) .

ثالثها: اليوم الآخر: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾(البقرة:٦٢) .

رابعها: اليوم المشهود: ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾(هود:١٠٣) يشهده جميع المخلوقات.

خامسها: يوم البعث: ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾(الروم: ٥٦) .

سادسها: الساعة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾(سبأ: ٣)

سابعها: يوم الفصل: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾(الصافات: ٢١) .

ثامنها: يوم الحساب: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ كتاب أعمالنا ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾(ص: ١٦)

تاسعها: يوم التلاقي: ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾(غافر: ١٦) لتلاقي جميع المخلوقات فيه .

عاشرها: يوم الآزفة: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ﴾(غافر: ١٨) ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾(النجم: ٥٧) حادى عشرها: يوم التناد: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾(غافر: ٣٢) لأنه يكثر فيه النداء بالشقاء والسعادة، ونداء أهل الجنة لأهل النار، والعكس .

ثانى عشرها: يوم الجمع: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾(الشورى: ٧) تجمع فيه المخلوقات

ثالث عشرها: الواقعة: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾(الواقعة: ١-٢) .

رابع عاشرها: اليوم المعلوم: ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾(الواقعة: ٤٩-٥٠) .

خامس عاشرها: يوم التغابن: ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾(التغابن: ٩) يغبن المؤمنون الكافرين بأخذ منازلهم فى الجنة لو آمنوا .

سادس عاشرها: الحاقة: ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾(الحاقة: ١-٣) يحق ويثبت فيها ما أنكره الكفار .

سابع عاشرها: اليوم الموعود: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾(البروج: ١-٢)

ثامن عاشرها: الغاشية ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾(الغاشية: ١) تغشى الخلق بأهوالها

تاسع عاشرها: القارعة: ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ١-٣) تقرع القلوب .

العشرون: يوم عظيم ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(الأنعام: ١٥).

الحادى والعشرون: اليوم الحق: ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقّ ﴾(النبأ: ٣٩) .

الثانى والعشرون: يوم الحسرة: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾(مريم: ٩) يتحسر فيه الكافر على ترك الإيمان، والمسيئ على ترك الإحسان .

الثالث والعشرون: يوم الحشر: ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾(ق: ٤٤) .

الرابع والعشرون: يوم كبير: ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾(هود: ٣) .

ويمكن استخراج أسماء أخرى، مثل **يوم العرض**، لقوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾(الحاقة: ١٨) **ويوم النشور**، لقوله تعالى ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾(الملك: ١٥) ولا شك أن كثرة الأسماء تدل على عظم هذا اليوم، وشدة هوله، نسأل الله أن يهونه علينا، وينجينا من كربه، أنه قريب مجيب .

****

معنى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾(الزمر: ٤٤) ونحوه رد على المشركين الذين يعتقدون أن أصنامهم تقربهم إلى الله تعالى وتشفع لهم عنده، فبينت لهم هذه الآية وما فى معناها بطلان هذا الاعتقاد، وأن الأصنام لا تملك شيئاً لا شفاعة ولا غيرها، وليس معناه نفى الشفاعة من أصلها، كيف وقد قال تعالى لرسوله ﷺ ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ (الإسراء: ٧٩) وثبت فى الصحيحين وغيرهما أن المقام المحمود هو الشفاعة فى فصل القضاء، كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة إثبات الشفاعة يوم القيامة للأنبياء والملائكة وصالحى المؤمنين بل فى القرآن ما يشير إلى ذلك، فقد قدمنا آيتين أمر الله تعالى فيهما نبيه بالاستغفار لأمته، وإليك آية ثالثة ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ﴾ (النور: ٦٢) وقدمنا أن الاستغفار استشفاع، وبقيت آية رابعة وهى قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ (النساء: ٦٤) بل جعلت هذه الآية توبة المنافقين موقوفة على استغفار الرسول لهم. وقال تعالى ـ عن حملة العرش ـ ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ

السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(غافر: ٧-٩) وقال سبحانه ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ من المؤمنين ﴿ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(الشورى: ٥) فهذا استشفاع الملائكة للمؤمنين، وهو بالضرورة صادر بإذن الله تعالى ورضاه. والمقصود أن الشفاعة المنفية شفاعة المعبودات الباطلة لعابديها، والشفاعة المثبتة شفاعة الأنبياء والملائكة والصالحين بإذن الله تعالى ورضاه. فنفيهما جميعاً خلط يأباه الإنصاف. ويجافي الأمانة العلمية. وبالله التوفيق .

* * * * * * * *

معنى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾

قوله تعالى ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾(النجم: ٣٩) استدل به طائفة من العلماء على أن قراءة القرآن لا يصل ثوابها إلى الميت، وأجاب آخرون بأن المراد بالإنسان فيه: الكافر، أما المؤمن فله مع سعيه سعي إخوانه المؤمنين مما أهدوه إليه، ومنه قراءة القرآن، قالوا: لأن الإيمان رابطة قوية بين المؤمنين، يستطيع أن ينفع بعضهم بعضاً بسببها، واستدلوا بما رواه أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو: أن العاصي نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، فنحر هشام بن العاص خمسة وخمسين بدنة، وأن عمر سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال له النبي ﷺ { أما أبوك فإنه لو أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك } فالحديث يقرر بوضوح: إن الإيمان سبب في وصول عمل المؤمن إلى أخيه المؤمن .

وعندي في الآية وجه آخر وهو: الإشارة إلى تحقيق العدل المطلق. بأنه لا ينقل سعي الخير من شخص إلى آخر، ولو كانت بينهما قرابة الأبوة أو الأخوة مثلاً، فكل واحد له عمله الصالح. لا ينقص منه شيء يزاد لغيره. بدليل أن هذه الجملة ذكرت في مقابلة قوله تعالى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾(النجم: ٣٨) فكما لا يؤخذ الشخص بذنب غيره، وكذلك لا ينتفع بحسنة غيره، ولا علاقة للآية - على هذا - بإهداء عمل صالح كقراءة القرآن للميت. بل يستفاد حكمه من دليل آخر، فقد صح عن النبي ﷺ سمع في الجمع رجلاً يقول: لبيك عن شبرمة، فقال ﷺ { من شبرمة؟ } قال: أخ لي مات، قال ﷺ { هل حججت عن نفسك ؟ } قال: لا، قال { حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة } . وصح أيضاً أنه ﷺ أذن لرجل أن يحج عن أبيه، ولأمراة أن تحج عن أمها. وصح أيضاً عنه ﷺ أنه قال { من مات وعليه صيام صام عنه وليه } فأثبتت السنة الصحيحة وصول العبادة إلى الميت،

وهـل قـراءة القـرآن إلا عـبادة؟ فهـي تصـل كمـا يصـل غيرها من العبادات، لا سيما والحج المـأذون فـي فعلـه عـن الميـت مشـتمل على القراءة أيضاً. إذ ان من أفعاله صلاة ركعتين بعد الطواف عند مقام إبراهيم عليه السلام، وهذه خلاصة المسألة وبالله التوفيق .

****

أنـــــواع الجهاد

وللجهاد نوعان:

إحداهما: الجهـاد فى سبيل الله، وهو قتال الكفار والمنافقين إعلاء كلمة الله ودينه. وقد حـض الله عليـه. وبـين أحكامه فى سورة آل عمران والنساء والأنفال والتوبة وغيرها. ويكفي في الترغيـب فـيه. قولـه تعـالى ﴿ **إِنَّ اللَّـهَ اشْـتَرَى مِـنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾(التوبة: ١١١) .

ثانيهما: الجهـاد فـى الله، وهـو عـبارة عـن مخالفـة الـنفس فيما تهواه. ورياضتها بالصلاة والذكر ونحوهما من العبادة، وقد ذكره الله فى موضوعين[1] من كتابه:

الأول: قولـه تعـالى ﴿ **يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** ﴾(الحج: ٧٨) .

الـثاني: قولـه تعـالى ﴿ **وَالَّذِيـنَ جَاهَدُوا فِينَا** ﴾ فى ذاتنا وحقنا ﴿ **لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ طرق السير الموصلة إلينا ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾(العنكبوت: ٦٩) وبالرعاية والعناية والتأييد.

ولم يقـل { المؤمـنين } للإشـارة إلى أن الجهاد فى الله تعالى يوصل إلى مقام الإحسان الـذى هـو أعـلى مقامـات الدين. إذ هو ـ كما قال ﷺ { أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك } ـ وحاصله: أن تعبد الله على المشاهدة. فإن لم تستطع فعلى المراقبة .

وهذا دليل الصوفية على المجاهدة التى جعلوها أصل طريقهم. واعتمدوها فى سلوكهم وتكـلموا عـلى مـا تورثـه من الأسرار والمواهب حسب أذواقهم ووجداناتهم. وقالوا: إن جهاد الـنفس أشـق مـن جـهاد الكفار، واستدلوا بما رواه البيهقى فى الشعب عن جابر بن عبد الله

---

(١) تذكـرت موضـوعاً ثالثاً: وهو قوله تعالى ﴿ **وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾ (العنكبوت: ٦) وهى مكية.

ﷺ قال: لما رجعنا من غزوة تبوك، ووصلنا إلى المدينة قال النبي ﷺ { قدمتم خير مقدم رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد العبد هواه } سمى النبي ﷺ جهاد الكفار جهاداً أصغر، وجهاد النفس جهاداً أكبر، فدل على أنه افضل وأهم، واعترض عليهم ابن تيمية بأن الحديث موضوع، وهو خطأ، لأن الحديث ضعيف فقط بتأييد أمور:

١- أسلوب القرآن الكريم حيث سمى جهاد الكفار جهاداً في سبيل الله. وجهاد النفس جهاداً في سبيل الله. وبين العبارتين بون يؤذن بالفرق بين المقامين .

٢ - أن الجهاد في سبيل الله فرض كفاية، يتعين في بعض الحالات، وجهاد النفس فرض عين، وهو افضل من فرض الكفاية حسبما تقرر في علم الأصول .

٣ - أن الكفار أعداء ظاهرون، لا يكون بينهم وبين المسلمين حرب دائمة، بل في أوقات لمناسبات، ثم تنتهي بنصر، أو صلح، أو هدنة، أو غير ذلك، إذا قتلوا مسلماً فهو شهيد، بخلاف النفس، فإنها بين جنبي الإنسان لا يمكنه الانفصال عنها، وهي عدو له، لتحريضها إياه على اقتراف الشهوات والمعاصي، يساعدها الشيطان، فإن غلبت صاحبها وقتلته، كان مصيره إلى النار لكفره أو عصيانه، فمن هنا كان جهادها أكبر وأشق من جهاد الكفار .

****

أفضل الذكــــــــــــر

أفضل الذكر: **لا إله إلا الله**، لأن معناها: **إثبات الألوهية لله تعالى، ونفيها عمن سواه**، وهذا هو التوحيد الذي بعث الله به الرسل من لدن آدم إلى النبي ﷺ، ولذا جاء في الحديث { افضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله } وقد جعل الشرع النطق بهذه الكلمة علامة على إسلام الكافر لا يقوم غيرها مقامها، فإذا أضيف إليها وحده لاشريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كان تصريحاً بما أفاده مضمونها إجمالاً وزيادة ثناء على الله تعالى .

تليها: الحمد لله، ومعناها: **الثناء على الله تعالى بإثبات كل كماله سبحانه**. ولذا رغب الشرع في قول هذه الكلمة عقب حصول نعمة، كشبع وري وشفاء ونحو ذلك، لأن الإنسان بطبيعته ناقص محتاج إلى ما يكمل أغراضه، يحس بالجوع فيدفعه بالطعام، ويحس بالظمأ فيدفعه الماء، ويمرض فيلجأ إلى العلاج، وهكذا كلما اكتملت له نعمة وتكمل غرضه بها حق عليه أن يحمد صاحب الكمال المطلق ﷻ .

تليها: كلمة سبحان الله، ومعناها: **تنزيه الله عن كل نقص،** كالولد والصاحبة والظلم والغرض ونحو ذلك. فإذا اجتمع التسبيح والتحميد، نحو سبحان الله. والحمد لله، أو سبحان الله وبحمده، أفاد اجتماعهما الثناء على الله تعالى بشقيه: الإيجاب: وهو معنى الحمد. والسلب: وهو معنى التسبيح، ولذا ورد فى فضل ذكرهما معاً أحاديث كثيرة منها: قوله ﷺ { **سبحان الله والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض** } وقوله ﷺ { كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن **سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم** } وهو آخر حديث فى صحيح البخارى عند أبى هريرة، بل ونوه القرآن عنهما فى غير آية. مثل ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾(الإسراء:٤٤) أى ما من شىء من المخلوقات ناطقها وصامتها إلا وهو ينزه الله تعالى عن النقص، مثبتاً له الكمال المطلق. وفى الآية تعريض بالكفار الذين شذوا عن المخلوقات بنسبتهم النقص إلى الله تعالى كالشريك والصاحبة والولد، مثل ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾(الحجر:٩٨) ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾(غافر:٧) ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(الروم:١٧-١٨) إلى غير ذلك من الآيات.

تليها: الله أكبر، ومعناها: **الثناء على الله تعالى بأنه أعظم من كل عظيم،** ولذا جعل الشرع هذه الكلمة فى الأذان والإقامة والصلاة، ليستحضر المكلف عظمة الله ﷻ، فيقبل على العبادة بخشوع وخضوع، فإذا اجتمعت هذه الكلمات الأربع: **لا إله إلا الله؛ والحمد لله؛ وسبحان الله؛ والله أكبر؛** أفادت الثناء على الله تعالى بتوحيده وبكماله المطلق وبتنزهه عن النقائص؛ وبعظمته، وحق لكلام جمع هذه المعانى العظيمة أن يكون أفضل الكلام. ولذا صح فى الحديث { إن الله اصطفى من الكلام أربعاً لا يضرك بأيهن بدأت: **سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر** } وجاء فى الحديث { أن إبراهيم قال للنبى ﷺ أقرئ أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غرسها **سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر** } وكان هذا فى ليلة المعراج، والحديث صحيح.

وثبت أيضاً فى حديث صلاة التسابيح ـ وهو حديث صحيح، خلافاً لمن قال بوضعه أو ضعفه ـ { أن من صلاها غفر الله له ذنبه كله: أوله وآخره، قديمه وحديثه، وخطأه وعمده، وصغيرة وكبيره، وسره وعلانيته } لأنها تشتمل على ذكر تلك الكلمات ثلاثمائة مرة تضرب فى أربعة يصير المجموع ألفا ومائتى مرة. وجدير بمن ذكر هذا العدد ثناءاً وتمجيداً لله تعالى. أن تغفر ذنوبه كلها. وربك واسع المغفرة. ويحب من عبده أن يحمده ويمجده. ويعطى على ذلك ما لا يعطى على غيره.

وبعد هذا تأتى كلمة: **لا حول ولا قوة إلا بالله**، ومعناها: **لا تحول عن المعصية، ولا قوة على فعل الطاعة إلا بالله**، أى بإرادته وقدرته، ففيها الاعتراف بالقدر، وبأن قدرة العبد مخلوقة لله تعالى، وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى {أنها كنز من كنوز الجنة}

ثم يأتى **الاستغفار**. وله صيغ:

أستغفر الله. أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، رب اغفر لى. وأفضل صيغة ما ثبت فى صحيح البخارى عن شداد ابن أوس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ { **سيد الاستغفار: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت** } .

ومن فوائد الاستغفار تكثير الرزق ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً** ﴾ (نوح: ١٠-١٢) ومن فوائده أيضاً ما جاء فى الحديث { من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً } .

ثم تأتى الصلاة على النبى ﷺ، ولها صيغ وأفضلها الصلاة الإبراهيمية، **اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد**، ولهذه الصلاة صيغ كثيرة، استوعبها تقى الدين السبكى فى آخر كتاب " شفاء السقام " وتراجع فى كتاب (القول البديع) للحافظ السخاوى ويستحب ذكر السيادة فشأنها الواجب فى هذا المقام .

وحديث لا تسيدونى فى الصلاة، مكذوب، ومن فوائدها تفريج الهموم والكروب وقد أنشأت بهذا القصد صلاتين أثبتهما هنا .

١ - اللهم صل على عبدك المكمل، ورسولك المبجل، وخليلك المفضل سيدنا محمد الذى منحته المقام المحمود، والحوض المورود، وأخذت لأجله على الأنبياء المواثيق والعهود، مفتاح الكائنات، وختام النبوات، ومجلى الأسماء والصفات، صلاة تفرج عنا بها الكرب وتقضى لنا بها الحاجات، وتفتح لنا بها أبواب القُرَب وتيسر لنا بها أسباب المكرمات وعلى آله المطهرين من الأرجاس، وصحابته المخاطبين بـ ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾(آل عمران: ١١٠)، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين .

٢- اللهم صل وسلم على عبدك ونبيك، سيدنا محمد الذى نطق له الحجر، وسجد له الشجر، وأنشق بإشارته القمر، وزال ببركة مسحه عن ذوى العاهات الضرر، نبع من أصابعه الشريفة الماء النمير، ونزل بدعائه المطر الغزير، وانزاح بغوثه الكرب عن الخلق الكثير، وسلاماً يكونان سبباً فى كشف كربتنا وتفريج غمتنا، والتعجيل بزوال شدتنا، اللهم أجعل صلاتنا عليه وسيلة إليك، وأقبل استشفاعنا به لديك، فإنه رسولك الطاهر المطهر وحبيبك الشفيع المشفع هنا وفى المحشر، وأرضى اللهم عن آله الطيبين الطاهرين، وصحابته من الأنصار والمهاجرين[١] .

****

القرآن أفضل الأذكار

القرآن أفضل الأذكار على الإطلاق، لا يوجد ذكر يوازيه، فضلاً عن أن يكون أفضل منه، ومن فضل ذكراً عليه - كصلاة الفاتح - فقد ضل ضلالاً بعيداً، وإذا كان الحديث القدسى - وهو كلام الله أيضاً - دون القرآن، فكيف يكون غيره أفضل منه ؟! هذا لا يجوز ولا يعقل ! وأفضل أحوال القرآن قراءته فى الصلاة وإنما اختيار الصوفية للسالك ذكر الاسم المفرد أمر والهيللة على تلاوة القرآن لأمرين:

إحداهما: أن الاسم المفرد والهلليلة من القرآن الكريم .

ثانيهما: أن السالك يحتاج - أثناء سلوكه - إلى ما يجمع فكره وقلبه وليس ذلك إلا فى الذكرين السابقين، أما القرآن فإنه ينتقل بالتالى من الكلام على وحدانية الله تعالى، إلى الاستدلال على البعث، إلى بيان الأحكام، إلى الحض على جهاد الكفار، وإلى قصص الأنبياء وبيان ما فيها من عبرة، غير ذلك من المقاصد السامية التى عرض لها القرآن، وجلاها بأوضح بيان ولا شك أنها تشتت فكر السالك وقلبه، لكنه إذا وصل وفتح عليه، كان أحسن ما يعطاه فهماً فى كتاب الله تعالى، واستخراج ما فيه من حكم ومعارف وأسرار، فالقرآن هو المقصود على كل حال، وما اختاروه أثناء السلوك وسيلة إليه، فتقديمه من باب تقديم الوسائل أمام المقاصد، وبالله التوفيق .

****

(١) ذكرتهما مع صلوات أخرى فى كتاب " النفحة الإلهية فى الصلاة على خير البرية " وهو مطبوع بمكتبة القاهرة

معنى: ﴿ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾

قول الله تعالى ﴿ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾(المدثر:٦) معناه: لا تعط شيئاً لتطلب أكثر منه، وهذا الخطاب خاص بالنبى ﷺ، لأنه مأمور بأكمل الآداب، وبرفع الهمة عن الخلق، وقد اختص ﷺ بأشياء حرمت عليه وحده، زيادة فى رفع منزلته، هذا منها، ويجوز لغيره أن يهدى هدية ليطلب أكثر منها، وتسمى فى كتب الفقه " هبة الثواب " وصورتها: أن تهدى لصديقك فى مناسبة كزواج، هدية من نقود أو غيرها ليرد لك فى مناسبة عندك، مثلها أو أكثر منها، وهى " النقوط " فى عرف العامة فإن لم يفعل فلك أن تأخذ منه قيمة ما أهديت له، لا أكثر، ويحكم لك به القضاء، وهبة الثواب مذكورة فى سورة الروم فى قوله تعالى ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً ﴾ بأن تعطوا شيئاً لتطلبوا أكثر منه، وأطلق عليه ربا للزيادة فى العاملة ﴿ لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ ليزيد فى أموال المعطى لهم ﴿ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾(الروم:٣٩) أى لا يذكر عنده، إذ لا ثواب فيه، لأنه قصد به المعاوضة، فهو نوع من المعاملة كالبيع ونحوه، فالآية لم تحرمها، وإنما بينت أنه لا ثواب فيها، لأنها ليست بعبادة .

****

﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾

قوله تعالى ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾(الحشر:٢) استدل به الشافعية على أن المسلم لا يقتل بالكافر إذا قتله، وجه ذلك: أن الفعل يتضمن مصدراً منكراً، والنكرة فى سياق النفى تعم وصفاً، فيكون المعنى: لا استواء بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، ولو قتل مسلم بكافر لاستويا من هذه الجهة، والآية تنفى استواءهما من جميع الجهات، وايدها الحديث الصحيح { لا يقتل مسلم بكافر } وقد ذكرت طرقه فى كتابى " الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج " وهو كتاب ألفته من زمان الطلب، خرجت فيه أحاديث المنهاج للبيضاوى فى الأصول، وكنا نقرأه بشرح الأسنوى، وبتأليفه تدربت فى صناعة الحديث، وقد خرج أحاديثه قبلى العلامة المحدث المطلع " بدر الدين الزركشى، والحافظ ابن الملقن، ولا أعلم لهما ثالثاً، وقد وقفت على تخريجها فوجدت كتابى أوسع من كتابيهما، وأغزر مادة، وأكثر فائدة، ومع ذلك فقد استفدت من كل منهما فائدة واحدة، وخرجت أيضاً أحاديث كتاب " اللمع " فى الأصول لشيخ الشافعية الإمام أبى إسحاق الشيرازى، ولا أعلم أحد خرج أحاديثه قبلى .

****

معنى: ﴿ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد:٣٣) استدل به المالكية والحنفية على حرمة فطر الصائم المتطوع بغير عذر، وعلى حرمة قطع صلاة التطوع بغير عذر. لأنه إبطال لهما، وقد نهى الله عنه، والنهى يفيد التحريم، وهو استهلال قوى، إلا أن الجمع بين الأدلة واجب، وإلغاء أحدها لا يجوز، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال { الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء فطر } وصح أيضاً أنه ﷺ دخل بيته ضحى، فإما سأل عن إدام. وإما قدم له فقال {أرونيه فلقد أصبحت صائماً } وأفطر، وتقاس الصلاة عليه، وهو قياس جلى، فيخصصان من الآية بالحديث فى الصوم، وبالقياس فى الصلاة، وتبقى عامة فيما سواهما كالحج والصدقة ونحوهما، وبهذا أخذ الشافعية، ويؤيده أن النبى ﷺ ذم العائد فى هبته. فقال { العائد فى هبته كالكلب يقىء، ثم يهود فى قيئه } لأنه بعد أن أمضى هبته. حمله الشح على العود فيها فأبطل عمله؛ وكان عاصياً لله تعالى بمقتضى الآية الكريمة، واستحق الذم البليغ على لسان رسول الله ﷺ.

* * * * * * * *

أسماء النار

أسماء النار فى القرآن الكريم كثيرة:

إحداها: النار: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾(البقرة:٢٤).

ثانيها: جهنم: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(الحجر:٤٣).

ثالثهما: السعير: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾(الملك:٥).

رابعها: لظى ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾(المعارج:١٥-١٦).

خامسها: سقر ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾(المدثر:٢٦).

سادسها: الهاوية ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾(القارعة:٩-١١).

سابعها: الحطمة ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾(الهمزة:٤).

ثامنها: السوأى ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى ﴾(الروم:١٠).

وهى دركات، والمنافقون فى الدرك الأسفل منها ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾(النساء:١٤٥) أعاذنا الله منها بفضله وكرمه.

أسماء الجنة

أسماء الجنة فى القرآن الكريم:

الجنة: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾(محمد: ٦) .

دار السلام: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾(الأنعام: ١٢٧) .

الحسنى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى ﴾ الجنة ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾(يونس: ٢٦) النظر إلى وجه الله تعالى. بذلك فسرها النبى ﷺ كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث صهيب ﷺ .

عدن: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾(فاطر ٣٣) .

الفردوس: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴾(المؤمنون: ١٠-١١) .

روضة: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ جنة ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ يسرون (الروم: ١٥) .

دار المقامة: ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾(فاطر: ٣٥) .

المأوى: ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾(النجم: ١٥) .

النعيم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾(لقمان: ٨)

رحمة الله: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ أى الجنة ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(آل عمران: ١٠٧) وثبت فى الحديث الصحيح أن الفردوس أعلى الجنان وأفضلها، نسأل الله أن تجعلنا من أهلها من غير سابقة عذاب، بجوده وكرمه .

****

معنى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً ﴾(النساء ٩٣) الآية

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾(النساء: ٩٣) سألت عنه مولانا الوالد ﷺ، فقلت: هذه الآية تفيد أن القاتل مخلد فى النار، فكيف يجاب عنها لتتفق مع الأدلة الدالة على أن عصاة المؤمنين لا يخلدون فى النار؟ فقال: الجواب فى الآية نفسها. قلت: كيف ذلك ؟ قال: فى قوله تعالى ﴿ فَجَزَاؤُهُ ﴾ أى أن هذا جزاؤه ولكن الله تعالى تفضل فلم يعاقبه بهذا

الجـزاء، وهـذا كمـا يقـول الـرجل لولـده ـ إذا خالفـه ـ جـزاؤك أن أضـربك مائـة سوط، ثم يسـامحه، أو يضـربه عشـرة أسـواط، وبهـذا تكـون الآية متفقة مع الأدلة من الكتاب والسنة المتواترة المفيدة ـ بالقطع ـ أن عصاة المؤمنين يخرجون من النار، ويدخلون الجنة، وقد ثبت فـى الحديـث أن الكفـار ـ إذا رأوا العصاة خرجوا من النار ـ تمنوا لو كانوا مسلمين ليخرجوا مثلهم، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾(الحجر: ٢) وما ورد عـن ابن عباس من أنه حمل الآية السابقة على ظاهرها، وجعلها ناسخة لآيات المغفرة، لعله لا يصـح عنه، لأنه يعلم أن آيات المغفرة أخبار. وأن الأخبار لا يدخلها نسخ ولأنه أحد رواة الأحاديـث الدالـة عـلى خـروج العصاة من النار، والقاتل مؤمن، بدليل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَـنُوا كُتِـبَ عَلَـيْكُمُ الْقِصَـاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَـنْ عُفِـيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾(البقرة: ١٧٨) وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾(الحجرات: ٩)، والله أعلم .

****

المعاصـــــى نوعـــــان

قسـم الله تعـالى المعاصى إلى كبائر، وسيئات أو لـمم، فقال تعالى ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَـا تُـنْهَوْنَ عَـنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾(النساء: ٣١) وقال جل شأنه ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْـإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾(النجم: ٣٢) والسيئات أو اللمم هى الصغائر وتغفر باجتناب الكبائر كمـا سبق، أو يفعل الحسنات كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾(هود: ١١٤) ثبـت فى الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ قال: أصاب رجل ـ هو أبو اليَسَر ـ من امرأة قبلة، فـأتى النـبى ﷺ، فأخـبره، وأنزل الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَـنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾(هود: ١١٤) فقال الرجل: ألى هذا ؟ قال ﴿ لجميع أمتى كلهم ﴾ أمـا الفواحـش فهى من الكبائر، لكن القرآن يطلقها فى الغالب على الكبائر المتعلقة بالفروج، إيذاناً بشدة قبحها، كنكاح امرأة الأب، والزنا، واللواط .

وذهـب بعـض العلماء منهم تقى الدين السبكى إلى إن المعاصى كلها كبائر، وإنما يقال لبعضـها صـغائر، بالنسـبة لـما هـو أكـبر منها، وصنيع القرآن يرد عليهم، وأيضاً فإننا ندرك بالضـرورة أن القـبلة لا تـوازى الـزنا، وإن سـرقة قـرش لا تـوازى سـرقة مائـة، وأن قولـك لشخص: يا بخيل، أو يا لئيم، لا يوازى قولك له: يا زانى أو يا لأئط .

ثم أن أكبر الكبائر بعد الكفر: القتل للآية السابقة ﴿ **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً** ﴾(النساء: ٩٣) ولحديث { كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو يقتل مسلماً متعمداً } ولحديث { ولا يزال الرجل فى فسحة من دينه ما لم يتند بدم حرام } يليه الزنا. سماه الله فاحشة ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾(الإسراء: ٣٢) ولأن فيه مفسدة هتك الأعراض. واختلاط الأنساب. وغير ذلك. وجاء فى حديث {ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفه وضعها رجل فى رحم لا يحل له } وذكر النطفة خرج مخرج الغالب. لا مفهوم له. فالعزل أو استعمال حائل يمنع نزول المنى فى الفرج. لا يخفف الإثم لأن هتك العرض حاصل به على كل حال. وهو أنواع أقبحها: الزنا بإحدى المحارم، فقد سماه القرآن فاحشة ومقتاً قال تعالى ﴿ **وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾(النساء: ٢٢) ثم الزنا بامرأة الجار لقوله ﷺ { لأن يزنى أحدكم بعشرة نسوة أهون من أن يزنى بحليلة جاره } وفى معناه الزنا بامرأة من بينك وبينه صلة بقرابة أو صداقة أو معاملة، ثم اللواط، سماه الله تعالى فاحشة أيضاً. وعذب أهله بعذاب لم يعذب به أمة مثلهم. وفى الحديث { لعن الله من عمل عمل قوم لوط. لعن الله من عمل عمل قوم لوط. لعن الله من عمل عمل قوم لوط } ولأنه شذوذ فى الطبيعة. وانحطاط فى الأخلاق، ولذا ثبت فى الحديث { من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به } وللحافظ السيوطى فى تصحيح هذا الحديث رسالة " بلوغ المأمول من خدمة الرسول " وهى من جملة رسائل الحاوى للفتاوى، وبهذا الحديث أخذ المالكية .

ثم الربا لقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾(البقرة: ٢٧٨-٢٧٩) ولحديث { ما ظهر الزنا والربا فى قرية إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله } ونرى أن ما هو حاصل اليوم من الحروب والتهديد بها، وإصابة المزروعات بالجوائح، وذهاب البركة من المال والقوت والوقت، . سببه انتشار الربابين الدول والأفراد. حتى أصبح التعامل به من ضروريات الحياة. وانتشر معه جمود العين. وقسوة القلب. وعدم إجابة الدعاء. والزنا فى هذا دخل أيضاً. لكنه لم يأخذ طابع الدولية مثل الربا. كما هو ظاهر .

ثم الخمر. قرنها الله تعالى بالأصنام فى وجوب الإجتناب ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ** ﴾ الأصنام ﴿ **وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾(المائدة: ٩٠) لما نزلت هذه الآية مشى الصحابة بعضهم إلى بعض وقالوا: حرمت الخمر وجعلت عدلا للشرك. وقال أبو موسى الأشعرى: ما أبالى شربت الخمر أو عبدت هذه السارية

من دون الله. يعني أن القرآن جعلهما سواءً، وفي الحديث { مدمن الخمر كعابد وثن } وفي الحديث أيضاً { من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كم يخلع الإنسان القميص من رأسه } وسمى النبي ﷺ الخمر أم الخبائث، لأن الشخص إذا سكر وفقد عقله، استسهل الكفر والزنا وكل معصية، والميسر ـ وهو القمار ـ تفيد الآية أنه في درجة الخمر، لأنها جمعتهما في سياق واحد. وهو حقيق بذلك. لأنه يضيع على المقامر ماله. ووقته. ودينه. وعمله.

وقد يتسبب في فراق زوجه، وخراب بيته. وربما يموت حسرة. أو انتحاراً على خسارته، والقمار يشمل سباق الخيل ـ وهو غير المسابقة الشرعية ـ والنرد (الطاولة) والدومينو. والضامة والسيكة. وكل ما يلعب في مقابل شيء ولو مليماً فهو قمار. أخرج الإمامان مالك وأحمد عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ { من لعب بنرد أو نرد شير فقد عصى الله ورسوله } وفي حديث آخر { اللاعب بالنرد قماراً كآكل لحم الخنزير واللاعب به بغير قماراً كالدهن بشحمه } وشحم الخنزير نجس. والمدهن بالنجاسة آثم. ثم تأتي بقية الكبائر على حب ما فيها من مفاسد ومضار، كأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين وقذف المحصنة العفيفة، وغير ذلك والكبيرة كل معصية توعد الله أو رسوله عليها بالعذاب، أو اللعنة، أو الغضب، أو كادت تؤذن بتهاون مرتكبها بالدين، والصغيرة ما دون ذلك كالقبلة والنظرة واللمسة، وسرقة ما دون النصاب، وكشرب الدخان، والشيشة والجولاك ـ وهو نوع من الشيشة ـ يشربه أهل الحجاز. والقات يمضغه أهل اليمن، فكل هذه محرمة، لثبوت ضررها على الصحة والمال، والمداومة على الصغيرة يصيرها كبيرة، كذا قال الجمهور واستدلوا بحديث { لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار } لكنه حديث ضعيف.

وقد ناقش الشوكاني في ((إرشاد الفحول)) ما ذهب إليه الجمهور، وأختار أن الأصرار على الغيرة لا يخرجها عن حقيقتها، قلت: ومع ذلك فالإصرار عليها حرام. يضاف إلى حرمتها. فيكون فيه إثمان: إثم الصغيرة. وإثم الإصرار عليها. وقد حض القرآن على الإقلاع عنها. قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ كبيرة كالزنا ﴿ أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بما دونها كالقبلة ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ أي عقابه ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا ﴾ من الفاحشة وما دونها ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(آل عمران:١٣٥) أن ما فعلوه حرام، هذا وقد ألف في عدد الكبائر جماعة من العلماء منهم ابن القيم والذهبي ثم جاء الفقيه ابن حجر الهيثمي المكي الشافعي، فعمد إلى قسم الترهيب من كتاب ((الترغيب والترهيب)) للحافظ المنذري. فجرده في كتاب ((الذواجر عن اقتراف الكبائر)) وضم إليه بحوثاً فقهية. فجاء كتاباً حافلاً في موضوعه إلا أنه توسع فأدخل فيها ما لا يسلم له، وفي عزمي أن ألخصه

تلخيصاً جيداً، بحيث أحذف منه ما لا يساعد عليه الدليل، أو كان دليله ضعيفاً أو غير ظاهر الدلالة. وفق الله إلى ذلك وأعان عليه، وأنه الموفق المعين .

* * * * * * * *

ما يجب فيه الحد من المعاصى

المعاصى التى يجب فيها الحد الشرعى سبعة:

إحداها: الردة: إذا خرج المسلم عن دينه بقول أو عمل. يمهل ثلاثة أيام يستتاب فيها من غير إكراه ولا تعذيب، فإن تاب قبل، وإن لم يتب قتل لحديث { من بدل دينه فاقتلوه } وهو صحيح فى البخارى .

ثانيتها: القتل: من قتل مسلماً متعمداً، قتل به، لقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى** ﴾(البقرة: ١٧٨) .

ثالثتها: الزنا: من زنى - ولم يسبق له زواج - يجلد مائة جلدة، لقوله تعالى ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ﴾(النور: ٢) وينفى سنة، لحديث صحيح { البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام } ومن زنى - وقد سبق له زواج وهو محصن - يرجم حتى يموت، لأن النبى ﷺ رجم الزانيين المحصنين، ورجم بعده الخلفاء الراشدون وانعقد عليه الإجماع .

رابعتها: اللواط: يرجم الفاعل، وكذا المفعول به إن كان بالغاً، سواءً أكانا محصنين أم لا، لحديث { من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به } .

خامستها: القذف: من قذف مسلماً أو مسلمة بالزنا ولم يأت بشهود أربعة يثبتون ما قال، يجلد ثمانين جلدة، ويفسق، ولا تقبل له شهادة فى شىء إلا أن يتوب، لقوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾(النور: ٥) .

سادستها: الخمر: من شربها يجلد ثمانين جلدة، وثبت فى الحديث أن الشارب يقتل فى المرة الرابعة. وبه أخذ عبد الله بن عمرو وابن حزم وغيرهما فقالوا فى شارب الخمر: يجلد ثلاث مرات. وفى الرابعة يقتل .

سابعتها: السرقة: قال الله تعالى ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا**

كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(المائدة:٣٨) **وبينت السنة أن من سرق ربع دينار نقداً أو ما يعادله من ثياب وغيرها تقطع يده اليمنى من الكوع، فإن عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم، فإن عاد الثالثة قطعت كفه اليسرى، فإن عاد الرابعة قطعت قدمه اليمنى، فإن عاد الخامسة يعذر فيما يكون دعا له، وذلك موكول إلى اجتهاد الحاكم، وورد فى حديث: { أنه يقتل } ولكنه حديث ضعيف .**

وبقية المعاصى التى لا حد فيها شرعاً، يجب التعزير بضرب أو نفى أو غيرهما حسب اجتهاد الحاكم .

والحكمة فى اختصاص الحد بهذه السبعة: أنها تتعلق بالضروريات التى لا يستغنى عنها، وهى:

١- الدين: وهو ضرورى للإنسان، وللمجتمع، ومحافظة على بقائه وجب جهاد الكفار، وقتل المرتد .

٢- النفس: وهى أساس الحياة، فوجب القصاص ممن أزهقها بغير حق .

٣- النسب: وبه يمتاز النوع الإنسانى، وحفظاً له من التلوث والإختلاط، وجب حد الزانى، وألحق به اللواط لأنه - مع شذوذه - ينشأ عنه امتهان الرجولة، وتقليل النسل، وفى تقليله قطع للنسب، ولكونه قلباً للطبيعة، عذب الله قوم لوط بقلب بلدهم بأن جعل عاليها سافلها، جزاءاً وفاقاً .

٤- العرض: وهو مناط الكرامة، وبدونه لا كرامة للشخص، فلهذا وجب حد خادش العرض بغير حق، فعيش الإنسان مصون العرض موفور الكرامة .

٥- العقل: وهو الموهبة الكبرى، وبه يمتاز الإنسان، ويتقدم فى العلوم والمخترعات، وإستجلاء أسرار الطبيعة، فوجب الحد على شرب الخمر، لأنها تغتاله . وتعطل مواهبه، ومن هنا حرمت سائر المخدرات: الحشيش، والأفيون وغيرهما، ووجب التعزير على تعاطيها، والذين يتعاطونها للناحية الجنسية واهمون مخطئون، لأنها لا تأثير لها فى تلك الناحية إلا فى خيالهم، ولأن حفظ عقولهم - لو علموا - أهم من المتعة التى يطلبون .

٦- المال: وهو عصب الحياة، وبه قوامها، فوجب حفظه بالحد على السرقة .

****

أنواع الكفر

الكفر أنواع:

١- الإشراك: وهو أيضاً أنواع، اعتقاد أن الملائكة بنات الله تعالى، أو عزير ابن الله، أو عيسى ابن الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، أو عبادة الجن، أو الأصنام، أو الشيطان، أو الكواكب كلها أو بعضها، أو النار، أو ملك كافرعون، أو البقر، أو بعض الحيوانات، أو فروج النساء، أو اعتقاد أن للعالم إلهين: إله الخير، وإله الشر، أو اعتقاد أن الإله مركب من أقانيم، أو أجزاء أو له جوارح كالأيدى مثلاً، أو أنه حلى فى جسم من الأجسام، أو امتزج به، فكل هذا شرك يشمله قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾(المائدة:٧٢) .

٢- إنكار وجود الله تعالى .

٣- إنكار نبوة نبى، كإنكار اليهود نبوة سليمان وعيسى ومحمد عليهم السلام، وكإنكار النصارى نبوة محمد ﷺ .

٤- نسبه كفر أو معصية إلى نبى، كقول اليهود: كان سليمان ساحراً، وقولهم أيضاً: أن داود شرب الخمر وزنى ببنته، لعنهم الله .

٥- سب نبى أو لعنه، أو الاستهزاء به - أو التحريض على إذايته .

٦- سب ملك: كجبريل أو ملك الموت، أو وصفه بما لا يليق بمنصبه .

٧- إهانة المصحف أو تقديره، أو نسبه الخطأ إليه، أو دعوى إمكان معارضة سورة منه

٨- اعتقاد نبوة شخص بعد نبينا ﷺ، مثل القاديانية الكفرة الذين يعتقدون نبوة رئيسهم الكذاب أحمد القاديانى الذى كان يعمل لمصلحة الاستعمار البريطانى فى الهند، وكان يصرح بحبه للإنجليز، ويحض على اتباعه على حبهم .

٩- إنكار البعث وما بعده، مثل البهائية الذين ينكرون البعث، ويزعمون أن الدنيا لا تفنى، وزادوا كفراً آخر، فزعموا أن الإسلام نسخ بدينهم الباطل، وهم يخدمون الاستعمار فى كل مكان، بدليل إن فرنسا سمحت لهم بإنشاء فرع فى تونس، لأنهم يدعون إلى ترك الجهاد، ويقولون: أن دينهم نسخ الجهاد وأتى بالسلم العام .

وقد ناقشت أحدهم فى هذا فقلت له: هذه البلاد المصابة بالاستعمار الإنجليزى أو

الفرنساوى، وما يفعل أهلها هل يتركون الجهاد؟ قال: نعم، قلت: ويتركون المستعمرين يستغلونهم؟ قال: يبشرونهم بالدين البهائى، فإن المستعمرين إذا اعتنقوا هذا الدين تركوا الاستعمار بدون جهاد، قلت له: وإذا لم يعتنقوه؟ قال: لابد أن يعتنقوه، قلت: كم سنة تلزم لاعتناقهم الدين؟ قال: ليس المهم المدة. فقد تكون خمسين سنة أو أكثر. وإنما المهم اقتناعهم بالدين. واعتناقهم له، قلت له: وعلى هذا نترك المستعمرين يتحكمون فينا مئات السنين. في انتظار اقتناعهم بدينكم. ليدعوا بلادنا عن طيب خاطر منهم!!! قال: فالتبشير جهاد!! ولهذا يجدون المساعدات المادية والأدبية من المستعمرين فى مستعمراتهم. ولأنهم يثبطون الناس عن جهادهم. ومقاومة استغلالهم وطغيانهم.

١٠- السحر: قال الله تعالى ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ باستعمال السحر ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾(البقرة: ١٠٢)[١].

١١- إنكار أحد أركان الإسلام، كالصلاة أو الزكاة أو الجمع. أو إنكار حرمة الزنا أو الخمر أو الربا، أو نحو ذلك مما هو معلوم فمن أرتكب أحد الأنواع المذكورة فهو كافر[٢]، وإن أدعى الإسلام بلسانه، لا يقبل الله منه عملا، وإن مات كافراً، وكان مخلداً فى النار أبداً.

****

الفرق بين العقيدة والتعصب والتسامح

كثير من الناس فى مصر - ومنهم علماء - يخلطون بين هذه الأشياء خلطاً معيباً يؤدى إلى خلل فى دينهم. وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، فإذا سمعك أحدهم تقول: لا يجوز الترحم على اليهودى أو النصرانى، لأنه لا يدخل الجنة، اعتبر هذا تشدداً وتعصباً، وتشدق بأن رحمة الله واسعة. وعد نفسه متمسكاً بسماحة الإسلام، وما درى أنه خرج من دينه وهو لا يشعر، وما أتى إلا من قبل جهله، وضعف عقيدته. ولكشف النقاب عن خلطهم نقول:-

إن التعصب. والتسامح لا يكونان إلا فى المعاملة فالتعصب أن تعامل اليهودى والنصرانى بحيف. وتبخسه حقه، والشرع يأبى ذلك ولا يرضاه، والتسامح أن تحسن معاشرته، وتجامله فى المناسبات. فإذا حصلت له مصيبة واسيته فيها. وإذا حصل عنده فرح كعيد مثلاً هنأته عليه، ولا

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى فى هذه الآية، وكذا تفسير القرطبى.
(٢) للعلامة الفقيه أحمد بن حجر الهيثمى الملكى الشافعى كتاب "الأعلام بقواطع الإسلام" ذكر فيه الأمور المكفرة التى يعتبر فاعلها خارجا عن الدين. وهو مفيد على توسع فيه.

بأس أن تقدم له هدية أو تمشى إلى كنيسته. بشرط أن لا تشارك فى شىء من طقوس دينه. ولا بأس أيضاً أن تساعده فى أمور دنياه كقرض أو صدقة إن كان محتاجاً أو نحو ذلك مما لا تعلق له بالدين، وتراعى جيرته إن كان جاراً لك، وإن كان بينك وبينه قرابة فصله. وبر قرابته، غير ألا تعطيه من زكاة مالك ولا من زكاة فطرك، لأنهما خاصتان بفقراء المسلمين. وإذا كان بينه وبين أحد من المسلمين نزاع فى شىء من المعاملة. ورأيت الحق فى جانبه فانصح أخاك المسلم بإعطائه حقه .

والخلاصة: أن المطلوب منك أن تعامل اليهودى أو المسيحى بالعدل والإنصاف، وتعاشره بالمجاملة والألطاف. ومع هذا يجب عليك أن تعتقد اعتقاداً جازماً لا تردد فيه أنه على باطل. وأنه إن مات كافراً. لا يجوز الترحم عليه. ولا الدعاء له بالمغفرة. لأنه لا يدخل الجنة أبداً. وإذا عمل صالحاً فإن الله تعالى يجازيه عليه فى الدنيا بالصحة أو المال أو الأولاد. أو تيسير الأمور، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له ثواب لقوله تعالى ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ** ﴾ من الخير كصدقة وصلة رحم وإغاثة ملهوف ﴿ **فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً** ﴾ (الفرقان: ٢٣) لا ثواب له. وهذه الآية تفيد أنه لا يوجد منهم ولى أو قديس كما يقولون، لأن الولاية أو القداسة نتيجة العمل الصالح المقبول. وعملهم غير مقبول. لبطلان دينهم بظهور الإسلام، فمن جوز وجود ولى منهم، أو تبرك بأحد قديسيهم، أو توسل به، فقد تخلى عن عقيدته ودينه، إذا التساهل فى شىء من العقيدة لا يكون تسامحاً كما ظن المخلطون الواهمون لكنه تنازل عنها، يلزم منه الخروج من الدين، لأنه مبنى على العقيدة، فإذا فقدت فقد. وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان، لولا خفاؤه على كثير من الناس، وبالله التوفيق .

* * * * * * * *

أفراد القــــــرآن

لفظ: الأرض حيثما ورد فى القرآن. فالمراد به معناه المعروف. إلا فى سورة سبأ. فى قوله تعالى ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ** ﴾ (سبأ: ١٤) فهو مصدر أرضت الخشبة بالبناء للمجهول. أكلتها الأرضية .

ولفظ: التقوى . حيثما ورد فى القرآن. فالمراد به طاعة الله تعالى، إلا فى سورة البقرة. فى قوله تعالى ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى** ﴾ (البقرة: ١٩٧) فالمراد به ما يتقى به سؤال الناس .

ولفظ: الجنة . حيثما أطلق، فالمراد به جنة الخلد. إلا فى سورة نَ. فى قوله تعالى ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ** ﴾ (القلم: ١٧) فالمراد به بستان فى الدنيا .

ولفظ: الدنيا . حيثما ورد في القرآن، فالمراد به مقابلة الآخرة، إلا في الصافات وحم السجدة في قوله تعالى ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾(الصافات:٦) فالمراد به القربى إلى الأرض، وإلا في سورة الأنفال في قوله تعالى ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾(الأنفال:٤٢) فالمراد به القربى إلى المدينة .

ولفظ: الكفار . حيثما ورد، فالمراد به مقابل المؤمنين، إلا في سورة الحديد، في قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾(الحديد:٢٠) فالمراد به الزرع .

ولفظ: ربا . يراد به الربا المحرم، إلا في سورة الروم، في قوله تعالى ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾(الروم:٣٩) فالمراد به هبة الثواب .

ولفظ: شركاء . يراد به ما أتخذ ألهاً من دون الله، إلا في سورة الزمر، في قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾(الزمر:٢٩) فالمراد به المشركون في ملكية عبد .

ولفظ: الذرية . يراد به معناه المعهود، إلا في سورة يس، في قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾(يس:٤١) فالمراد به آباءهم .

ولفظ: البروج . حيثما ورد، يراد به منازل الكواكب، إلا في سورة النساء في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾(النساء:٧٨) فالمراد به الحصون المنيعة .

ولفظ: حق . يراد به الأمر الثابت، إلا في سورة هود، في قوله تعالى ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾(هود:٧٩) فالمراد به: حاجة .

ولفظ: الأسف . ويراد به الحزن، إلا في سورة الزخرف في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾(الزخرف:٥٥) فالمراد به أغضبونا .

ولفظ: البر والبحر . يراد بهما معناهما المعروف، إلا في سورة الروم في قوله تعالى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾(الروم:٤١) فالمراد بالبر القفار، وبالبحر: القرى التي على شواطئ الأنهار .

ولفظ: اليأس ، يراد به عدم الأمل، إلا في سورة الرعد، في قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾(الرعد:٣١) فالمراد به يعلم .

ولفظ: الفحشاء . يراد به المعصية القبيحة كالزنا، إلا في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾(البقرة:٢٦٨) فالمراد به البخل هذا النوع يسمى ((أفراد القرآن)) وللإمام أبي الحسين بن فارس اللغوي المالكي، فيه مؤلف خاص .

لمَ لم يكن فى الجن نصارى

قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(الأحقاف ـ ٣٠) .

سئلت : ما السر فى عدم ذكرهم لعيسى عليه السلام ؟[1]

والجواب: السر فى ذلك أحد أمرين: أما أنهم كانوا على دين موسى عليه السلام، ولم يسمعوا بعيسى، أو لم يؤمنوا به، وأما أنهم أرادوا أن القرآن كتاب تشريع وأخبار وقصص، كالتوراة، بخلاف الإنجيل، فإنه لم يكن كذلك، وإنما نزل تابعاً لشريعة التوراة، ومتمماً لها، ولم يخالفها إلا فى شىء قليل، كما ينبئ عنه قول عيسى عليه السلام ـ مخاطباً اليهود ـ ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾(آل عمران: ٥٠) هذا ما ظهر فى الجواب، والله الموفق للصواب .

* * * * * * * *

من أدب الجن

روى الحاكم بإسناد صحيح عن جابر رضي الله عنه قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، فقال { ما لى أراكم سكوتاً ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(الرحمن: ١٣) إلا قالوا: ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد } فى هذا تشريف للجن، حيث أثنى على آدبهم فى استماع السورة وحسن ردهم، وأخبر الصحابة بذلك، وليعملوا مثله، وهذا من الأدب المأخوذة عن الجن، وبالله التوفيق .

* * * * * * * *

الجمع بين آيتين

قال الله تعالى ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾(القصص: ٧٨) يعنى الكافرين، وقال تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(الحجر: ٩٢-٩٣) ليس بين الآيتين تعارض، كما قد يتوهم البعض، بل هما متوافقتان تمام الموافقة، وبيان ذلك أن السؤال نوعان:

١ ـ سؤال عتاب، يعقبه غفران، وهذا يقع لبعض عصاة المؤمنين، يسألهم الله تعالى عن

---

(١) السائل هو الدكتور / محمد عبد السلام العيادى ـ رحمه الله ـ .

ذنوبهم، سؤال تقرير وعتاب، حتى إذا أقروا واعترفوا بها، ونكسوا رؤوسهم حياء وخجلا، قال الله تعالى لهم ﴿ سترتها عليكم فى الدنيا وأنا أغفرها لكم اليوم ﴾ فهذا هو المنفى فى الآية الأولى، والمعنى على هذا (ويسأل عن ذنوبهم المجرمون) سؤال عتاب، لأنهم لا نصيب لهم فى المغفرة .

٢ ـ سؤال توبيخ وحساب؛ يتبعه عذاب، وهذا هو المثبت فى الآية الثانية والمعنى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) سؤال حساب لا نترك لهم مثقال ذرة، ثم نعذبهم بعد ذلك، كما قال الله تعالى ﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً** ﴾(الطلاق:٨) وإنما يكون هذا يوم القيامة، وعبر عنه بالماضى لتحقيق وقوعه، فحيثما وجدت سؤالا منفياً عن الكفار فى آية فاحمله على المعنى الأول، وحيثما وجدت مثبتاً فى آية أخرى، فاحمله على المعنى الثانى وبالله التوفيق.

****

لا يعذب الله أحباءه

قول الله تعالى ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ** ﴾(المائدة:١٨) يفيد أن الأب لا يعذب ولده، ولا الحبيب حبيبه، وعلى هذا فالله تعالى لا يعذب أحبابه، وذنوبهم مغفورة، يؤيد هذا ما ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ أطلع على كتاب من حاطب بن أبى بلتعة ـ وكان بدرياً ـ إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم فيه ببعض أمر النبى ﷺ فقال { ما هذا يا حاطب ؟ } قال: لا تعجل على يا رسول الله، إنى كنت ملصقاً فى قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتنى ذلك من نسب فيهم أن أتخذ يداً يحمون بها قرابتى، وما فعلت ذلك كفراً، ولا أرتداداً عن دينى، ولا رضا بالكفر . فقال عمر ﷺ دعنى أضرب عنقه، فقد نافق، فقال النبى ﷺ { وما يدريك ؟ لعل الله أطلع إلى أهل بدر فقال: أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم } .

فأنظر كيف غفر الله ذنوب أهل بدر ؟! لأنهم أحبابه، نصروا دينه فى موقعة كانت الحد الفاصل بين الإسلام والشرك، ولولا انتصارهم فى هذه المعركة لم يكتب للإسلام بقاء، كما قال النبى ﷺ فى دعائه يوم بدر { **اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض** }

ومن دعاء الصوفية : ((**اللهم أجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت**)) وهو دعاء جميل يرمى إلى فلسفة وجيهة، ذلك أن سيئات المحبوب مغفورة، وحسنات المبغض مكفورة ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً** ﴾(الفرقان:٢٣) .

من ذكروا فى القرآن بأسمائهم

الأشخاص المذكورين فى القرآن بأسمائهم من غير الأنبياء سبعة عشر، تسعة مؤمنين، وثمانية كفار، **فالمؤمنون هم:**

١) ذو القرنين: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾(الكهف:٨٣) . جنسيته (رومى)
٢) عزير: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾(التوبة:٣٠) . جنسيته (إسرائيلى)
٣) لقمان: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾(لقمان:١٢) . جنسيته (نوبى)
٤) طالوت: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ﴾(البقرة:٢٤٧) . جنسيته (إسرائيلى)
٥) عمران: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾(آل عمران:٣٥) . جنسيته (" ")
٦) مريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ﴾(التحريم:١٢) . جنسيته (" ")
٧) هارون: رجل صالح شبهت به مريم ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾(مريم:٢٨) (" ")
٨) تبع: ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾(ق:١٤) .وكان ملكاً صالحاً . جنسيته (يمنى)
٩) زيد بن حارثة الصحابى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾(الأحزاب:٣٧) (عربى)

والكفار هـــم:

١) آزار والد إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾(الأنعام:٧٤) . جنسيته (حرانى)
٢) العزيز: ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ﴾(يوسف:٥١) . جنسيته (قبطى)
٣) السامرى: ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾(طه:٨٥) . جنسيته (يهودى)
٤) فرعون: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾(الفجر:١٠) . جنسيته (قبطى)
٥) هامان: ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً ﴾(غافر:٣٦) . جنسيته (قبطى)
٦) قارون: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾(القصص:٧٦) . جنسيته (قبطى)
٧) جالوت: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾(البقرة:٢٥١) . جنسيته (أبو البربر)
٨) أبو لهب: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾(المسد:١) . جنسيته (عربى)

تنبيهان:

الأول: ذو القرنين وعزير ولقمان قيل بنبوتهم، والصحيح أنهم ليسوا بأنبياء .

الثانى: قيل أن العزيز آمن بيوسف عليه السلام. فإن صح هذا فيكون مؤمناً يعد مع المؤمنين التسعة. والله أعلم .

الحشرات والحيوانات المذكورة فى القرآن

ذكر فى القرآن من الحشرات والحيوانات:

١) البعوضة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾(البقرة:٢٦).

٢) البقرة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾(البقرة:٦٧).

٣) السبع والخنزير: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ .. وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾(المائدة:٣)

٤) الغراب: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ﴾(المائدة:٣١).

٥) القردة و الخنازير: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾(المائدة:٦٠).

٦) الأبل . والبقر . والضأن . والمعز: ﴿ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾(الأنعام:١٤٣) ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾(الأنعام:١٤٤).

٧) العجل: ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾(الذريات:٢٦).

٨) الجمل: ﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾(الأعراف:٤٠).

٩) الناقة: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾(الإسراء:٥٩).

١٠) الغنم: ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾(طه:١٨).

١١) الجراد .القمل . الضفاضع ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ ﴾ (الأعراف:١٣٣) والقمل هو السوس، أو نوع من القراد.

١٢) الثعبان: ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾(الأعراف:١٠٧).

١٣) الحية: ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾(طه:٢٠).

١٤) الذئب: ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾(يوسف:١٣).

١٥) الكلب: ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾(الكهف:١٨).

١٦) الخيل . البغال . الحمير ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾(النحل:٨).

١٧) الحمار: ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾(الجمعة:٥).

١٨) النحل: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾(النحل: ٦٨) .

١٩) النمل . النملة: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾(النمل: ١٨) .

٢٠) الذباب: ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾(الحج: ٧٣) .

٢١) الهدهد: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾(النمل: ٢٠) .

٢٢) الحوت: ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾(الكهف: ٦٣) .

٢٣) العنكبوت: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾(العنكبوت: ٤١) .

٢٤) الأرضة: ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾(سبأ: ١٤) .

٢٥) الحمر الوحشية: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾(المدثر: ٥٠) . وحشية وأكلها حلال .

٢٦) الأسد: ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾(المدثر: ٥١) . أسد .

٢٧) الفيل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾(الفيل: ١) .

وفي القرآن الكريم ست سور مسماة بأسماء بعض الحيوانات والحشرات هي: سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة النحل، وسورة النمل، وسورة العنكبوت، وسورة الفيل .

****

حرمة مجالسة أهل المعصية

قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(الأنعام: ٦٨)

وقال ﷻ ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ ﴾(النساء: ١٤٠) .

تفيد هاتان الآيتان حرمة مجالسة أهل المعصية حال أرتكابهم لها، ووجوب الأعراض عنهم حتى يتركوها. وأن من جالسهم كان مثلهم في الآثم إن لم يعمل معصية .

وفي الحديث: {من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يشرب عليها خمر} وعلى هذا لا يجوز القعود في مجلس يشرب فيه الخمر، أو الحشيش أو تنتهك فيه الأعراض بغيبة. أو بذكر محاسن النساء أو الغلمان أو نحو ذلك، وإن كان قاعداً وجرى شيء من

المعاصى المذكورة أو غيرهما، وجب عليه أن يقوم فى الحال، بعد أن ينصحهم إن وجد فرصة للنصيحة . وكذا لا يجوز مساعدة مرتكب المعصية، فيحرم مناولة شارب الخمر كأساً يشرب فيها، ومناولة مفطر رمضان بغير عذر، أكلا أو شرباً. وإخفاء سرقة ستراً على سارقها .

والقاعدة الشرعية: أن من ساعد عاصياً كان مثله فى الآثم، ولا يقبل اعتذاره بأن عمله يقتضى ذلك، فالذى يفتح مطعمه فى نهار رمضان عاص آثم، وإن كان هو صائماً. والصائم الذى يقدم لزائره فى نهار رمضان القهوة أو الدخان آثم وإن كان الزائر نصرانياً، لأنه مأمور بالإسلام وبالصيام، إذ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، كما تقرر فى علم الأصول. وهذه أحكام يجهلها كثير من المسلمين اليوم، وبسبب جهلها يقعون فى معاصى بمساعدتهم أصحابها وهم لا يشعرون .

ومن هنا عم الحرام أسباب معايشتهم، وارتفعت البركة من أرزاقهم، وقست قلوبهم، وشاركهم فى هذا الجهل عدد غير قليل من العلماء .

زار فرنسى أزهرياً فى مكتبه ـ وهو وزير للأوقاف ـ وكانت الزيارة فى رمضان، فقدم له القهوه والدخان، وكان الواجب عليه أن يعتذر لزائره بالصيام، ويدعوه إلى العشاء أو شرب الشاى فى بيته، فإن هذا أوفق بدينه وإكرام له فى عين زائره، إذ الأجانب ينظرون بعين الاحترام إلى المسلم الذى يرونه متمسكاً بدينه، ولكن معظم الأزهريين يشاركون العامة فى الجهل بحرمة مساعدة العاصى، فيقعون فى أشياء من هذا القبيل .

****

التجارة فى الحرام

فى الحديث الصحيح { إن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه } فلا تجوز التجارة فى الأشياء المحرمة كالخمر والخنزير ونحوهما، ولكن كثير من المسلمين يتعاطون هذه التجارة لجهلهم بأحكام الدين .

كنت فى مرسليا سنة ١٣٥٤ هـ مع المرحوم أخى الأكبر الحافظ أبى الفيض والسيد محمد الزمزمى، وذهبنا نسأل عن شخص مغربى مقيم هناك أسمه الحاج على، فدللنا عليه فى خمارة، فلما وصلنا إليها، وجدنا امرأته وهى فرنسية ـ تبيع الخمر ـ فسألناها عنه فأشارت إلى محل داخل الخمارة فإذا هو زاوية، وعلى بابه ستارة، وهو مفروش بحصر مغربية جيدة، وفى القبلة علامة على المحراب برسوم، ووجدنا الحاج عليا قد انتهى من

صـلاة المغـرب، وفـى يـده مسبحة يذكر فيها ورد الطريقة الناصرية !! فقلنا لـه بعد التحية والملاطفـة: زاويـة فى قلب خمارة ؟ وصلاة وذكر وبيع خمر ؟! إيش هذا ؟ قال: إيش فيه ؟ قلـنا: أنـت رجـل حاج، ومحافظ على دينك، وبيع الخمر يضيع الدين، قال: هذا رزقى لا دخـل لــه بـالدين، قلـنا: افتح قهوة، وقدم فيها الشاى الأخضر المغربى، وأنواع المشروبات المـباحة، أو افـتح مطعمـاً وقـدم فـيه الأطعمـة المغربية المرغوبة هنا، فلم يقبل النصيحة، بل نصـحنا هـو بـأن نترك هذا التشدد المنافى للدين !!! وهذا وهو يناهز السبعين، ولكن جهله حسن له هذا العمل فرآه حلالاً طيباً، وهنا فى مصر كثير من الناس يتاجرون فى الخنازير أو الخمـر أو الحشـيش، ويحجـون من كسب هذه التجارة المباركة !!! وأعرف فى حى الدرب الأحمر حاجاً يبيع الخمير وأهل الحى يسمونه الحاج بنيوتى، تنكيتاً عليه.

* * * * * * * *

الغموس هو الصبغ

الغمـوس فـى اللغة المصرية، أو الجواز، بلغة المغرب، أسمه فى القرآن ((صبغ)) قال الله تعـالى ﴿ وَشَجَرَةً تَخْـرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بالدُّهْنِ ﴾ وهى شجرة الزيتون ﴿ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴾(المؤمنون: ٢٠) أى ادام يصبغ اللقمة بغمسها فيه .

* * * * * * * *

الحصانة الدبلوماسية فى القرآن

قـول الله تعـالى ﴿ وَإِنْ أَحَـدٌ مِـنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْـهُ مَأْمَـنَهُ ﴾(التوبة: ٦) أصل فيما يسمى فى العرف الدولى بالحصانة الدبلوماسية ونفذه النبى ﷺ مـع الرسـل الوافدين عليه فى مهمة دينية أو سياسية، ومن ذلك: أن مسيلمة الكذاب أوفد إلـيه شخصـين يـبلغانه أنـه أشرك معه الأمر، ويفاوضانه فى أن ينضم إليه على أن يكون الأمر لمسـيلمة بعـده ﷺ، فقال لهما { ما تقولان ؟ } قالا: نقول أنه رسول الله، فقال ﷺ { لولا أن الرسـل لا تقـتل لضـربت أعـناقكما } ورفـض مـا أتيا لأجله، مع أن مسيلمة كان قد وفد على النـبى ﷺ فـى وفـد بنى حنيفة، وأسلم، ثم ارتد وأدعى النبوة، فلم يكن إلا مجرد ثائر فاشل، ولكن النبى ﷺ عامل رسله معاملة رسل دولة رسمية! وهذا من كرمه ﷺ فى المعاملة .

* * * * * * * *

الاستيلاء على الأقوات وقت الأزمات

ما تفعله حكومات هذا العصر، عند أزمات الحروب أو المجاعات، من استيلائها على الأقوات الضرورية كالدقيق، وتوزيعها على الشعب بثمن محدد، سبق إليه يوسف عليه السلام وهو أول من سن هذا النظام، وذلك حينما رأى ملك مصر رؤيا أفزعته، وسأل عن تعبيرها، فعبر له يوسف بقحط يصيب القطر المصرى سبع سنوات، وعلمه كيف يتفاداه؟ ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ﴾(يوسف:٤٧) فلما طلبه الملك، وسأله من يقوم بتنفيذ هذا النظام ؟ قال يوسف ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾(يوسف:٥٥) فولاه وزارة التموين .

وأخذ العلماء من هذه الحادثة: أن الإنسان إذا كان كفئاً فى عمل من الأعمال ولم يكن غيره فى كفاءته، تعين عليه أن يطلب ذلك العمل، ويبين كفاءته فيه، ويكون ذلك من النصيحة التى يقدمها لأولى الأمر، حتى يمكنه خدمة المجتمع يتولى ذلك العمل[1] وله عند الله ثواب كبير، وإن لم يقصد غرضاً آخر كرياسة أو جمع مال لمصلحته الشخصية وبالله التوفيق .

* * * * * * * *

آزر[2] والد إبراهيم عليه السلام

قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(الأنعام:٧٤) يفيد أن أباه كان زعيم قومه ورئيسهم وآزر لقبه، واسمه تارح، وزعم بعضهم أنه عمه، وليس كذلك فقد ذكره القرآن بوصف الأبوة عدة مرات، فى هذه الآية، وفى آيات أخرى ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾(التوبة:١١٤) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾(مريم:٤١-٤٢) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾(الشعراء:٧٠-٧١) ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾(الشعراء:٨٦) ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾(الصافات:٨٣-٨٥) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾(الأنبياء:٥١-٥٢) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾(الزخرف:٢٦-٢٧) ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الممتحنة:٤) وكذا جاء وصفه بالأبوة فى حديث الصحيحين .

---

(١) من هنا يتبين خطأ بعض المتشددين الذين يعيبون العالم الفاضل بتوليه منصب القضاء ونحوه، وقد عيب على الحافظ ابن حجر أنه تولى منصب قاضى القضاة بمصر، وليس ذلك بعائبة .

(٢) هذا لقبه واسمه المعروف فى كتب التاريخ: تارح .

ولا يعيب الرسول أن يكون أبوه أو ابنه كافراً، وإنما قلنا بنجاة أبوى النبى ﷺ، لأنهما كانا فى زمن الفترة، لم يكن فى زمنهما رسول، والله تعالى يقول ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء: ١٥) وبعضهم استدل على إيمان أجداد النبى ﷺ - ومنهم والد إبراهيم وهو غير آزر على هذا القول - بقوله تعالى ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٧-٢١٩) أى أنه ﷺ كان يتنقل نطفة فى أصلاب آبائه الساجدين، وهو استدلال بعيد لا يفيد المقصود، والمتبادر من الآية الكريمة ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۞ ﴾ إلى الصلاة ﴿ وَ ﴾ يرى ﴿ تَقَلُّبَكَ ﴾ فى أفعالها قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً ﴿ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٧-٢١٩) أى المصلين، ويمكن توجيه الاستدلال السابق على وجه آخر وهو: أن آزر حينما ولد إبراهيم كان من أهل الفترة، إذ لم يرسل إليه رسول، وإنما كفر بعد بعثة أبنه إليه، فصح أن النبى ﷺ تقلب نطفة فى أصلاب أجداده وليس فيهم مشرك، وهذا وجه دقيق يحتاج إلى تأمل .

وإن تعجب فعجب من الحافظ السيوطى الذى ألف ست رسائل فى نجاة الأبوين الكريمين، واستدل بهذه الآية وغيرها، ثم يذكر فى كتاب أسباب النزول عن محمد بن كعب القرظى، وداود ابن أبى عاصم: أن النبى ﷺ قال { ليت شعرى ما فعل أبواى ؟ } فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (البقرة: ١١٩) فما ذكرهما حتى مات ! ! وهذان مرسلان ضعيفان يزيدهما ضعفاً أن النبى ﷺ لا يسأل ما فعل أبوه؟ وهو يقرأ منذ كان بمكة قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء: ١٥) ويذكر السيوطى أيضاً فى سورة التوبة أحاديث عن ابن مسعود وابن عباس وبريدة أن النبى ﷺ وقف على قبر أمه فبكى طويلاً، ثم قال { استأذنت ربى أن استغفر هلا فنهيت } ونزل قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ (التوبة: ١١٣) مع أنه خرج حديثاً للصحيحين يصرح بنزول الآية فى أبى طالب ! ويظهر أنه أعتمد على الأدلة التى أوردها فى رسائله المشار إليها، ورأى أن ما ذكره فى سبب نزول الآيتين المذكورتين لا يقوى على معارضتها، ولكن كان يجب عليه أن يبين، لئلا يسبق إلى الوهم أنه تناقض .

* * * * * * *

أهل الفترة ناجون

أهل الفترة هم الذين عاشوا فى زمن لم يكن فيه رسول إليهم كالعرب الذين عاشوا فيما بين زمنى إسماعيل والنبى ﷺ، وكأهل الكتاب الذين كانوا بين زمنى عيسى والنبى ﷺ .

والحكم فيهما عند الجمهور أنهم ناجون، ولو عبدوا الأصنام، لقوله ﷺ ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(الإسراء: ١٥) ولقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى إرسال الرسل ﴿ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ﴾ بشرك ﴿ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾(الأنعام: ١٣١) لم يرسل إليهم رسول، وأجابوا عن الأحاديث التى تفيد تعذيب بعض أهل الفترة، بأنها آحاد، لا تقوى على معارضة القرآن، وذهب جماعة من العلماء منهم النووى والأبى والحافظ ابن حجر إلى أن أهل الفترة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام .

الأول: قوم اتبعوا شريعة من الشرائع الصحيحة، وإن لم يكونوا مخاطبين بها، مثل تبع أحد ملوك اليمن، الذى اتبع دين اليهودية، ومثل زيد ابن عمرو الذى تنصر فى الجاهلية، فهؤلاء مؤمنون بلا شك لأتباعهم شريعة لم تنسخ .

الثانى: قوم أشركوا وغيروا بابتداع أمور شركية، مثل امرئ القيس، وعمرو بن لحى الخزاعى، وهؤلاء يعذبون لشركهم، ولا يعذرون بعدم وجود رسول بينهم، لأن التوحيد كلف به الخلق منذ أرسل الله آدم إلى أولاده، ثم تتابعت الرسل، وإنما اختلفت شرائعهم فى غيره من الأحكام، لحديث { الأنبياء أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد } وهو التوحيد. وعلى هؤلاء تنزل الأحاديث الواردة فى عذاب أهل الفترة، وقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ أى على العاصى كالزنا والظلم ﴿ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(الإسراء: ١٥) يبين الأحكام فهو مؤول كما علمت .

الثالث: قوم لم يتبعوا شريعة سابقة، ولا أشركوا، ولكنهم عاشوا على الطبيعة، ما عرفوا كفراً ولا إيماناً، فمنهم من قال: أنهم ناجون ومنهم من قال: يمتحنون يوم القيامة، مع من يمتحن، وهم الذين أدركوا البعثة وقد فقدوا الوعى، لكبر وخرف، والذين أدركوا البعثة وهم مجانين، وكيفية امتحانهم أن يخرج لهم عنق من النار، ويقال لهم اقتحموه، فمن أجاب واقتحم كانت عليه برد وسلاماً، ودخل الجنة، ومن تلكأ، قال الله له أياى عصيت، فكيف برسلى ؟ ويدخل النار، وكذا جاء فى أحاديث رواها البزار وغيره، وقال الحافظ ابن حجر. والظن فى أبوى النبى أن يجيبا، ولتقر بهما عينه ﷺ .

قلت: والذى أرجحه رأى الجمهور، لأن القرآن قاطع فيه، ولأنه اللائق بكرم الله وفضله، فأهل الفترة ناجون بدون امتحان ولا غيره، والأحاديث الواردة بخلاف ذلك معلولة، والصحيح منها آحاد ثم هو يحتمل التأويل، ومما يؤيد ما ذهب إليه الجمهور قوله تعالى ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ يعبدونها ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ﴾ هالك

﴿ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(الأعراف: ١٣٨-١٣٩) فموسى لم يخبر عن هؤلاء القوم الذين يعكفون على الأصنام بأن الله معذبهم أنهم أهل الفترة، لم يأتهم رسول ولابد أنهم سمعوا بموسى وبدعوته، ومع ذلك لا يلحقهم عذاب، إذ لم يعرفوا شريعة، ولا أتاهم رسول.

ويزيده تأييداً قول الله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ محمد ﷺ ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ الدين أصوله وفروعه ﴿عَلَى فَتْرَةٍ ﴾ انقطاع ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ لأجل ﴿ أَنْ ﴾ لا ﴿تَقُولُوا ﴾ يوم القيامة ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾(المائدة: ١٩) فلا عذر لكم بعد مجيئه. فإذا كان اليهود والنصارى وهم أهل كتاب جاءهم به رسل - يقبل عذرهم عند الله حسبما أفادته الآية، لو لم يأتهم نبينا ﷺ، فما ظنك بالعرب الأميين الذين ما عرفوا رسولاً، ولا قراءوا كتاباً منذ عهد إسماعيل ﷺ ؟! لا شك أنهم أولى بقبول العذر، وأجدر بالنجاة .

أما بعد البعثة المحمدية التى عمت أصل أهل الأرض جميعاً، فلا يوجد أهل فترة، ولا محل لافتراض وجودهم، ولكن قد يعترض وجود من لم تبلغه الدعوة، فلو افترضنا وجود شخصاً فى بعض مجاهل القارة الأفريقية مثلا لم يسمع بالإسلام، ولا بالقرآن، ولا عرف شيئاً عن توحيد الله تعالى، وعاش بين الجبال والغابات، فإنه ناج بلا شك، حتى ولو اعتنق بعض الديانات الشركية، كالنصرانية مثلا، ذلك لأن بلوغ الدعوة شرط فى توجيه التكليف للشخص، فحيث لم تبلغه بدون تقصير منه لم يكلف، وبالله التوفيق .

أما الذين ولدوا بين أبوين يهوديين أو نصرانيين. فهم كفار بلا نزاع أنهم سمعوا القرآن، وعرفوا المسلمين ويضمرون للإسلام كراهية شديدة، بحيث لو خير أحدهم بين الإسلام والموت، لأختار الموت عليه، وكثير من المسيحيين يقرون ببلاغة القرآن، وبتأثرهم بروعته عند سماعه، وباشتماله على حقائق علمية، ويصرون - مع ذلك على مسيحيتهم، فكفر هؤلاء عن إصرار وعناد، وهو أقبح الكفر، والعياذ بالله تعالى .

* * * * * * *

أيما أفضل فى الصلاة: طول القيام ؟ أم الركوع والسجود ؟

اختلف أيما أفضل في الصلاة: طول القيام ؟ أم كثرة الركوع والسجود ؟ قال بكل طائفة، ورجح المالكية الأول، مستدلين بقوله تعالى ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾(البقرة: ٢٣٨) ومما قيل فى تفضيل الركوع، ما ينسب إلى الإمام البخارى:

اغتنم فى الصلاة فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغتة

كم صحيح رأيت من غير سقيم ... ذهبت نفسه الصحيحة فلتة

وقال أديب يرد على من فضل السجود:

كأن الدهر فى خفض الأعالى ... وإعلاء الأسافلة اللئام

ففيه صح فى فتواه قول ... بتفضيل السجود على القيام

وإذا تأملت صنيع القرآن وجدته يقتضى السجود والركوع، لأنهما أكثر ما ذكره من أركان الصلاة، نحو ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾(البقرة: ٤٣) ﴿ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(البقرة: ١٢٥) ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾(آل عمران: ٤٣) ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾(التوبة: ١١٢) ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾(الحجر: ٩٨) ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(الحج: ٢٦) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾(الحج: ٧٧) ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾(الشعراء: ٢١٨) ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾(الشعراء: ٢١٩) إلى غير ذلك من الآيات التى ذكر فيها السجود وحده، وذلك يقتضى تفضيله على الركوع وهو على القيام، ووجه ذلك من جهة المعنى: أن الحكمة فى الصلاة إظهار الخضوع لله تعالى: وهو فى الركوع أقوى منه فى القيام، وفى السجود أقوى منه فيهما، بل هو نهاية الخضوع، حيث يضع الإنسان وجهه ـ وهو أشرف أعضائه ـ فى الأرض، تواضعاً لله تعالى، ولذا كان السجود وحده عبادة مستقلة، كسجود التلاوة، وسجود الشكر.

وأخبر الله أن جميع مخلوقاته يسجدون له تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾(النحل: ٤٨) ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(النحل: ٤٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾(الحج: ١٨) وفى الحديث الصحيح { أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه الدعاء } وفى حديث صحيح أيضاً { وأعلم أنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة } وطلب صحابى من النبى ﷺ أن يشفع له يوم القيامة، فقال { سأفعل فأعنى على نفسك بكثرة السجود } إلا أن القيام يترجح بقراءة القرآن فيه، وهى مكروهة فى الركوع والسجود، وهذا مدرك من فضله عليهما، وهو مدرك قوى، ويمكن التفضيل فى التفصيل بحسب الأفراد، فمن كان فى صلاته يرتل القرآن، ويجود تلاوته، ويتدبر معانية، كان طول

القيام فى حقه أفضل، وهذا كان حال النبى ﷺ فى صلاته. يقوم فى الركعة بسورة البقرة ونحوها. يقرأ قراءة لوعدها العاد أحصاها. لا يمر بآية رحمة إلا وقف عندها وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، وهكذا كان حال الصحابة أيضاً. ومن لم يحسن القراءة بالكيفية المذكورة. فكثرة الركوع والسجود فى حقه افضل. وبهذا التفضيل يزول الإشكال.

* * * * * * *

لمَ قيل لمريم: واركعى مع الراكعين

سئلت عن قول الله تعالى ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٣) لمَ لم يقل: واركعى مع الراكعات ؟

والجواب: لم يقل ذلك، لأنها كانت مقيمة بغرفة داخل المسجد، خصصها لها زكريا عليه السلام. ولم يكن فى المسجد إلا رجال هم خدمته. وهى المرأة الوحيدة بينهم، فأمرت بالصلاة معهم. وفيه دليل مشروعية الصلاة فى الجماعة.

أما قوله تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾(التحريم: ١٢) الطائعين، يوم القيامة، فلم يقل: القانتات. لإفادة أن الرجال أغلبية الطائعين وأن النساء قليلات بالنسبة لهم، ولا يرد على هذا أن المؤمن فى الجنة يكون له عدة أزواج. لأن تلك الأزواج من الحور العين المنشآت فيها كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ (الواقعة: ٣٥-٣٨) ولو كانت المؤمنات فى الدنيا أكثر من المؤمنين لم ينشئ الله لهم الحور العين.

* * * * * * *

عزيز مصر كان عديم الغيرة

قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَى ﴾ العزيز ﴿ قَمِيصَهُ ﴾ قميص يوسف ﴿ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ﴾ قطع من الخلف ﴿ قَالَ ﴾ لامرأته ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ... الخ ﴿ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ ﴾ أيها النساء ﴿ عَظِيمٌ ﴾ وقال ليوسف يا ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ الذى حصل ولا تذكره لئلا يشيع. ثم قال لامرأته ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾(يوسف: ٢٨-٢٩) الآثمين أخذ من هذا أن العزيز كان عديم الغيرة. فاقد النخوة. إذ مع تحققه بخيانتها. وتلويث عرضها. لم يزد على أن نصحها فى هدوء بأن تستغفر لذنبها وفى هذا الموضع من تفسير " البحر

المحيط " كلام ينبغي الوقوف عليه، وفي التعبير بالخاطئين دون الخاطئات إشارة إلى أن ما تجرأت عليه من المراودة، يكون من الرجال لا من النساء، والله أعلم .

****

الخلاف فى أكل الفسيخ

أهل مصر يأكلون السمك الفسيخ بنهم وشره. مع أنه مختلف فى إباحته. فحرمه المالكية والشافعية والحنابلة. وأباحه الحنفية بناء على أنه طاهر. إذ لا دم له. وما ينزل منه دهن. بدليل أنه لو نشف صار أبيض لا أحمر. والدليل يقتضى تحريمه. لأمرين:

الأول: أنه منتن. والنبى ﷺ لما سئل عن سمك العنبر الذى وجده الصحابة ميتاً على سيف البحر قال { كلوه ما لم ينتن } .

الثانى: أنه متنجس بما يخرج منه من فضلات، ووقفت على رسالة مخطوطة، أسمها " ألف سيخ[1] فى عين من يقول بطهارة الفسيخ " رد بها العلامة السجاعى الشافعى على بعض أهل مذهبه، حيث قال: بطهارته. وقال الشيخ الدردير المالكى: الذى أدين الله به أن الفسيخ بجميع أجزائه طاهر، يجوز أكله. ومما شاهدته بنفسى مما يؤكد نتانة الفسيخ أنى كنت فى منزل صديقى الحاج عبد الخالق إبراهيم الزهيرى بشرمساح، وبينما نحن نتغذى أحضر بعض أهل البلدة سردينا وهو نوع من أنواع الفسيخ فرمى صاحب البيت سردينة إلى كلب، فشمها وأبتعد عنها، فعجبنا لذلك ؟

وليس فى البلاد الإسلامية من يأكل الفسيخ غير المصريين. كما أن سائر البلاد الإسلامية يأكلون الجراد، إلا المصريين، فإنهم يستقبحونه ويعجبون ممن يأكله، ويجهلون أنه مباح شرعاً. حسبما ذكره العلماء، لقوله ﷺ { أحلت لنا ميتتان ودمان. فأما الميتتان فالسمك والجراد. وأما الدمان فالكبد والطحال } وهو لذيذ يأكل مشوياً أو مسلوقاً. ويعمل منه سفوف لتقوية الباه، وطعمه أشبه بطعم البيض. فالعجب ممن يأكلون الفسيخ والملوحة وأم الخلول، كيف يستقبحون الجراد المباح الطاهر ؟

****

(١) هو المغرس بلغة العرب .

قدماء المصريين يقدسون السحر والسحرة

كان قدماء المصريين مهرة فى علم السحر، يشهد لذلك قول الله تعالى فى سحرة فرعون ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾(الأعراف:١١٦) وكانوا يعتقدون السحر علماً عظيماً، ويقدسون السحرة، يدل على ذلك قوله تعالى فى سورة الزخرف ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ أى فرعون وقومه ﴿ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن كفرهم ﴿وَقَالُوا﴾ لموسى حين رأوا الآيات: الطوفان والجراد .الخ ﴿ يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾(الزخرف:٤٨-٤٩) أى العالم الكامل، لأن السحر عنده علم عظيم، ولولا أنه عندهم كذلك ما نادوا موسى فى ساعة شدتهم واستغاثتهم بهذا اللقب ولا زالوا إلى الآن يعتقدون السحر، ويلجئون إلى السحرة فى أشياء تهمهم إلا أنهم يرمون المغاربة بمعرفته، وإذ طبع أحد أصحاب المكتبات كتاباً فى السحر وما يتصل به، وأراد أن يضمن له الرواج، نسبه إلى بعض أهل المغرب كابن الحاج الكبير مثلاً، أو كتب عليه أنه طبع على أصل مخطوط بخط مغربى، وأذكر لهذه المناسبة أن بعض علماء الأزهر - ممن تلقى عنى علوم التوحيد والأصول والمنطق - عرفنى ببعض كبار الموظفين، فى إحدى الوزارات وقدمنى له بصفتى عالماً من علماء الحديث المبرزين فيه، فتكلمنا فى مسائل شتى ثم سألنى عن السحر؟ فقلت: لا أعرفه، وهو عندنا قبيح، وأكثر من يتعاطاه أهل سوس - إقليم بالمغرب - يغلب عليهم الجهل، لبعدهم عن الحضارة، وذكرت له أن مذهب مالك الذى يعتنقه المغاربة يحرمه تحريماً بالغاً فقال لى - بعد سماع الكلام - لا تحاول الإنكار، فأنا أعتقد أنكم تعرفون السحر، كما أعتقد أن القرآن أنزل على محمد ﷺ واعتبر ما قلته من ذم السحر وتقبيحه تهرباً منى، وضناً به عليه .

وبالضرورة لم يستند فى اعتقاده هذا على حقيقة تاريخية، وإنما استند على ما هو شائع بين عامة المصريين، رجماً بالغيب، وكم لهذا من نظير لجئوا إلى لأساعدهم بالسحر فى مسائل تهمهم، وكنت أجد صعوبة فى إقناعهم بأنى لا أعرفه، بل وأمقته، وقد قدمنا أن مذهب المالكية يحرمه تحريماً بالغاً، وذلك إن تعلمه ليسحر به الناس، فإن تعلمه لا لشىء فهو مكروه، وإن تعلمه ليبطل به السحر فهو جائز، وهذا بناء على تعريفة بأنه علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة، بأسباب خفية، وعرفه ابن العربى المعافرى المالكى بأنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى وتنسب له المقادير،وعليه فهو كفر مطلقاً من غير تفضيل، وأغرب بعض النظار حيث جعل تعلمه فرض كناية، لجواز

ظهور ساحر يدعى النبوة، فيكون فى الأمة من يكشفه[1] ويقطعه، نقله ابن صاعد فى "إرشاد المقاصد" وقد عده الحديث من السبع الموبيقات، وبالله التوفيق .

****

علامات الساعة الكبرى

علامات الساعة الكبرى عشرة، ذكر منها فى القرآن أربعة :

١- طلوع الشمس من مغربها ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا ﴾ (الأنعام: ١٥٨)، فسر حديث الصحيحين بعض آيات ربك بذلك .

٢- يأجوج ومأجوج: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾(الأنبياء: ٩٦)

٣ ـ الدابة : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُم ﴾(النمل: ٨٢) .

٤ ـ نزول عيسى عليه السلام ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ تعلم بنزوله ﴿ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ (الزخرف: ٦١) بذلك فسره حديث فى صحيح ابن حيان .

٥ ـ الدجال: تواترت به الأحاديث عن النبى ﷺ، ومن السنة العملية المنقولة بالتوارث: التعوذ الذى يقال قبل السلام من الصلاة ولفظه ((اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب جهنم، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال)) وهذا التعوذ مرغب فيه ترغيباً أكيداً بل أوجبه الظاهرية، بحيث من لم يقلها بطلت صلاته عندهم، وقد أشار إليه القرآن، على ما قال بعض التابعين:

ورد عن أبى العالية قال: جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ فذكروا الدجال، فقالوا: يكون منا فى آخر الزمان، فعظموا أمره، وقالوا: يصنع كذا، فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾(غافر: ٥٦) فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾(غافر: ٥٧) قال: من خلق الدجال، وقال كعب الأحبار فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ هم اليهود نزلت فيما ينتظرونه من أمر الدجال، وعلى هذا فإطلاق الناس على الدجال، من قبيل العام المراد به الخصوص، نظير

---

(١) يرد هذا بأن النبي ﷺ خاتم النبيين، كما نطق به القرآن الكريم والسنة المواترة إلا أن يقال: يمكن ظهور مدعى النبوة فى قوم جهلة يؤمنون بالسحر ولا يعرفون الحجة والبرهان فلا يقنعهم إلا من يرد دعوى المتنبى بسحر مثله. أو أقوى منه .

إطلاقـه عـلى نعيم بن مسعود فى قولَه تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ (آل عمران: ١٧٣) . فالمراد بلفظ الناس الأول: نعيم .

٦ ـ الدخان: ثبت به الحديث فى صحيح مسلم .

٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ثلاث خسوفات: خسف بالمشرق. وخسف بالمغرب. وخسف بجزيرة العرب.

١٠ ـ نـار تخـرج مـن عدن تسوق الناس إلى المحشر، ثبتت هذه العلامات فى صحيح مسـلم مـن حديث أبى أسَيْد الغفارى ﷺ، لا تقوم الساعة حتى تحصل هذه العلامات، ومن أدعـى إمكـان قـيام السـاعة قـبل هـذه العلامات بسبب طارئ من الطوارئ كحرب ذرية، أو اجتماع كواكب فى برج من البروج، فهو كاذب لا يلتفت إلى كلامه .

****

حكم الدخان والنشوق

قدمنا فيما مضى أن الدخان حرام، وأنه صغير، ونبسط الكلام عليه هنا بعض البسط فنقول:

ظهـر شـرب الدخـان فـى القـرن العاشـر الهجرى، فى تنبكتو، من بلاد سودان المغرب، فـألف فـى إباحـته العلامـة الشـيخ / أحمـد بابـا السـودانى، ونظم قصيدة تائية ذكر فيها منافعه وفوائـده، ثـم وصـل إلى المغرب. فاتفق العلماء عندنا على تحريمه، وقد جلب كثيراً من نصوصهم شـيخنا العلامة المرحوم / السيد محمد بن جعفر الكتانى فى كتابه الذى ألفه فى تحريم الدخان، وقـد قـرأته ايـام الطلـب، وحـرمه أيضاً من مالكية مصر العلامة الشيخ / إبراهيم اللقان فى كتاب ألفـه لذلـك. أمـا بقيـتهم ومعهم الشافعية فتردد رأيهم فيه بين الإباحة والكراهة. وزاد الباجورى فـى حاشـية عـلى بـن قاسم: إن المرأة لو كانت تشرب الدخان فعلى زوجها أن يحضره لها فى ضـمن الـنفقة توسـع كـبير وتسـاهل غـير مرضـى. وممـن ألف فى إباحته الشيخ / عبد الغنى بن إسماعـيل النابلسـى الحـنفى. وقـال: إنه لم يشربه. وإنما أباحه بحسب ما ظهر له من الدليل، أى عـلى أصـول مذهـبه. وهـو إباحـته الدخـان شـذ عـن الصـوفية فـإنهم متفقون على تحريمه، والتشـديد فيه. ثم أن العلامة الشيخ / عبد الحى اللكنوى ـ من محققى الحنفية ـ ألف رسالة فى الدخـان. اسـتعرض فـيها الآراء. ومحـض أدلـتها. وانتهى إلى أنه مكروه كراهة تحريم بناء على أصـل الحنفـية فـى الـتفريق بين قولهم فى الشيء: حرام. وقولهم: مكروه كراهة تحريم. والاسم شـامل الـنوعين. والتفرقة مجرد اصطلاح لهم. ومالكية المغرب استدلوا على تحريمه. بقوله تعالى ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧) قالوا: وهو خبيث كريه الرائحة. ويكفى فى خبثه أن

شاربه يستف النار فى جوفه استفافاً، ويورث سواداً فى الأسنان، وصفرة كريهة المنظر فى الأصابع ويحرك البلغم، ويكثر السعال، إلى غير ذلك من الأضرار، هذا إلى جانب ضرره فى المال، وما كان كذلك فهو حرام، لقوله ﷺ { لا ضرر ولا ضرار } وهو خبر بمعنى النهى. أى ((لا تضروا أنفسكم، ولا تضروا غيركم))، ومنه أخذ العلماء القاعدة الفقهية الأصل فى المضار التحريم، ومما استدل به على تحريمه: ما ذكره لى مولانا الإمام الوالد ﷺ أن العلامة الولى الشيخ محمد[1] ابن ناصر، لما حج مر بمصر، واجتمع بعلمائها وجرت بينهم مناقشات فى مسائل علمية، منها الدخان ـ وكانوا يرون إباحته ـ فكان مما قال لهم: أرأيتم لو أن النبى ﷺ دخل عليكم وأنت تشربونه، فهل تستمرون ؟ أو تخفونه استحياء منه ؟ قالوا: نخفيه استحياء منه ﷺ، قال: إذن فهو حرام، إذ لو كان مباحاً ما أخفيتموه استحياء، فلم يجيبوا بشىء، وقد يبدوا هذا الاستدلال غريباً لأول وهلة لكن إذا تأملته وجدته سليماً، يتمشى مع ما عرف من حال النبى ﷺ وطبعه، فإنه ﷺ كان يكره النار ولا يحبها[2] وقد استعمل ﷺ الحجامة وغيرها من الأدوية ولم يكتو قط لبغضه النار، وقال ﷺ { إن كان فى شىء من أدويتكم شفاء ففى ثلاث: لعقة عسل، أو شرطة محجم، أو كية بنار . وأنا أكره الكى } وقدم إليه طعام فوجده حاراً، فرفع يده عنه وقال { الله لا تطعمنا ناراً } وقال أيضاً { الطعام الحار لابركة فيه } وذلك لقرب عهده بالنار، وكذلك الملائكة الكرام، يبغضون النار أيضاً، فقد صح من طرق أنهم كانوا يسلمون على عمران ابن حصين ﷺ لصبره على ألم البواسير، فلما شق عليه الآلم واكتوى، انقطع تسليمهم عليه، ولم يعودوا إلا بعد ذهاب أثر الكى نهائياً، فنحن نجزم بأنه ﷺ لا يحب الدخان، ولا يحب مجلساً يشرب فيه، وكذا الملائكة الكرام عليهم السلام، وما يقال فيه من المنافع والفوائد تخيلات وأوهام، نعم ثبت فى علم الطب أن له علاقة وثيقة بسرطان الرئة ومرض القلب، وأنه يورث ضيق التنفس، وضعفاً فى العملية الجنسية، واضطراباً فى جهاز الهضم، ويقلل شهية الأكل، إلى غير ذلك .

ولو سلمنا جدليا ـ أن فيه منافع، فهى لا تعادل ما فيه من المضار، وحتى لو عالتها فيجب تركه أيضاً، للقاعدة المقررة وهى: دفع المضار يقدم على جلب المنافع .

---

(١) كتب أخى السيد حسن فى هذا الموضع ما نصه: وفى حاشية ابن الحاج على المرشد نسبة الحكاية إلى ابن ذكرى، فحققه، ولا مانع أن تكون الحادثة حصلت لكليهما ويجوز أن يكون حصل لى سهو، فإنى سمعتها منذ أربعين سنة .

(٢) كتب أخى ما نصه: وقد ذكر لى أخى أبو الفيض رحمه الله عن سيدى محمد بن جعفر الكتانى: أن بعض الأغوات خدام الحجرة الشريفة، فمن كان يشار إليه بالفتح والمعرفة رأى النبى ﷺ فقال له: كل من دخل الحجرة من باب الرحمة استقبلته ماعد شارب الدخان .

أمـا النشـوق ـ وتسـمى طابا بلغة المغرب ـ فعلماء المغاربة متفقون أيضاً على تحريمها، قال صاحب العمليات:

وحرموا طاب للاستعمال وللتجارة على منوال

والصـوفية متفقون معهم على التحريم، ومتشددون في استعمالها. حتى لقد قال جدى الإمـام القطـب الكـبير سيدى الحاج أحمد ﷺ: إذا رأيتم الفقير (المريد) ينفخ بتشديد الفاء المكسـورة (يتنشـق) فاعـلموا أنـه شيطان فى الطريق، ومالكية مصر ـ ومعهم الشافعية ـ رأو إباحتها، ومنهم من كرهها. وأنا أميل إلى التحريم لوجوه:ـ

الأول: أن إنفاق المـال فـيها إسـراف، وإضـاعة لـلمال، لأنهـا ليست بأكل ولا شرب، ولا فاكهـة، ولا نفـع فـيها للجسـم، وقـد قـال الله تعـالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾(الأعراف:٣١) وقال النبى ﷺ { وكره ـ الله ـ لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال }.

الـثاني: أنهـا مسـتقذرة والمسـتقذر يحرم، ولو كان طاهراً، ألا ترى إلى المخاط ؟ فإنه طاهر، وتناوله حرام لاستقذاره، وكذلك المنى، يحرم لاستقذاره، وهو طاهر .

الثالـث: أنها تؤثر طبقة سميكة تحت الأنف، وتمنع وصول الماء على البشرة، فيبطل وضوء متعاطيها وغسله، وتبطل تبعاً لذلك صلاته .

الـرابع: أنـه تؤثـر خلـلا فـى بعـض مخارج الحروف، كالميم والنون وذلك يؤدى إلى بطلان الصلاة، لأن الفاتحة من أركانها، فإذا لم يحسن المصلى حروفها، بطلت صلاته لاختلال ركن منها.

الخـامس: أنهـا تـنزل الحلق بعد الصبح، فتفطر الصائم على مذهب المالكية وقد كان مولانـا الإمـام الوالـد ﷺ يتكـلم عـليها فى بعض مذكراته العلمية، فكان مما قاله: من تنشق بعـد السـحور، ووجدها فى حلقه بعد الفجر، بطل صومه، ووجبت عليه الكفارة، فظن بعض أهـل العـلم أنـه قصـد المـبالغة فـى التحذير منها، فأطلعهم على شرح الشيخ خليل، فإذا هو يـنص عـلى ذلك[1] فأذعنوا مذهب المالكية وجوب الكفارة بأى مفطر لأن علة الكفارة عندهم: انـتهاك حـرمة رمضـان وهـو موجـود فـى كل مفطر، وقالوا: أن الحديث أوجب الكفارة فى الجماع، لأنه مفطر، ولأن الانتهاك به أشد .

---

(١) كتب أخي أيضاً ما نصه: لكن ابن الحاج محشى ميارة، نص على أنه لا عبرة بالنازل إلى الحلق بعد الفجـر، لأنـه بمـثابة المـنحدر مـن الـرأس، قلـت: هـذه طريقة مالكية المغرب، والشيخ عليش طريقته الأجاهـرة مالكـية مصـر، ونظريـتهم فـى هذه المسألة أن المتنشق بعد السحور يعلم أن النشوق ينزل إلى حلقه، فقد تعمد تعاطى ما يفطر. وهى نظرية فيها شدة، فذلك لم يتعمدها مالكية المغرب .

الاجتهاد نوعان

الاجتهاد: بذل الفقيه ـ وهو العالم ـ وسعه لتحصيل ظن بحكم شرعي وهو نوعان:ـ

الأول:ـ اجتهاد استقلال، وهو أن يستقل العالم بتأصيل أصول، وتقعيد قواعد، يمشى عليها فى اجتهاده مثل تمسك أبى حنيفة بالاستحسان، ومثل تمسك مالك بقول الصحابى، وعمل أهل المدينة، ومثل أخذ الشافعى بأقل ما قيل، وهذا النوع يختص بالأئمة الأربعة وشيوخهم وأقرانهم ومن فى طبقتهم، ويوجد الآن، بل انقطع منذ زم بعيد، لأن الأصول والقواعد دونت وفرغ منها، ولا يمكن أن يزاد عليها اصل ولا قاعدة .

الثاني: اجتهاد إطلاق وهو أن يأخذ العالم من الدليل، غير متقيد بمذهب من المذاهب، فتارة يوافق مالكاً، وتارة يخالفه، وهكذا بالنسبة للشافعى وغيره، بل تارة يخالف الأئمة الأربعة مجتمعين، وليست مخالفتهم خرقاً للإجماع كما يفهم كثير من متعلمى العوام، ولكنه يمشى فى اجتهاده على الأصول المدونة، والقواعد المقررة، وهذا النوع لا ينقطع ولا يمكن أن ينقطع إلى قرب يوم القيامة، حين ينزل عيسى عليه السلام، وإن أطبق المتأخرون على القول بانقطاعه، فهم واهمون مخطئون، لقول النبى ﷺ { إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها }[1] والتجديد لا يتأتى إلا من المجتهد الذى يقدر على النظر فى الأدلة، واستخراج الأحكام منها حسب الوقائع والحوادث المتجددة، وبه تقوم الحجة، وهو المراد بقوله ﷺ { العلماء ورثة الأنبياء } .

أما المقلدون فلا يقدرون على التجديد، ولا تقوم بهم حجة، ولا يسمون علماء فى عرف الشرع، وإنما هم مجرد رواة يفتون بما وجدوه وتعلموه فى كتب المذاهب التى يقلدونها، فينبنى قبول فتواهم على وجود شرائط الراوى فيهم من العدالة والضبط، وفهم ما ينقلونه من كتب مذاهبهم

ثم نوع أخر من الاجتهاد، يسمى صاحبه مجتهد مذهب، وهو الذى يجتهد داخل حدود مذهب معين ؛ كمذهب مالك أو الشافعى مثلاً، ولا يخرج عنه إلا فى الفرطة النادرة، ومثل هذا الاجتهاد يصح أن يسمى اجتهاد فى التقليد، لأن صاحبه اجتهد فى ترجيح قول لإمامه على قول له آخر، أو الجمع بينهما، وليس كلامنا فى هذا النوع، وإنما نتكلم على الاجتهاد المطلق ؛ الذى ينصرف له اللفظ عند إطلاق لفظ الاجتهاد، ويشترط فيه أن يكون الشخص عالماً بالقرآن، ووجوه تأويله، وبالحديث وعلله ومعانيه، حتى يعطى كل حديث حقه من البحث فى صحته، وفى

---

(١) رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح من حديث أبى هريرة رضي الله عنه

فهمه فهماً صحيحاً، بصيراً بأقوال فقهاء الصحابة والتابعين عارفاً بمواقع الإجماع والخلاف، حتى لا يدعى الإجماع فى موضع الخلاف. وبالعكس . وأن يكون اجتهاده فى حدود القواعد الشرعية المقررة، وداخل إطار تقتضيه ألفاظ الكتاب والسنة حسب مدلولاتها اللغوية على اختلاف أنواعها المعروفة فى اللغة العربية، لا على أساس المصطلحات المستحدثة فى العصور المتأخرة، ولا على أساس تحميل الألفاظ ما لا تحتمله من المعانى. وألا يؤول النص الصريح. إذ الصريح لا يقبل التأويل. ويلحق به فى عدم التأويل أيضاً الظواهر الكثيرة المتواردة على معنى واحد، وألا يجتهد مع وجود النص. لأن معنى الاجتهاد بذل الجهد فى استخراج الحكم من دليل شرعى، بطريق من طرق الاستنباط المعروفة المقررة، وحيث كان الحكم منصوصاً. فلا عبرة الاجتهاد حينئذ، لأنه إما أن يوافق النص. فيكون لا غياً، وإما أن يخالفه فيكون باطلاً .

والدليل الشرعى نوعان:

الأول: دليل متفق عليه بين العلماء. وهو الكتاب والسنة. والإجماع، والقياس، ويوجد خلاف فى الآخرين، إلا أن معظم العلماء على حجتيهما .

الثانى: دليل يختلف فيه بين العلماء. مثل الحديث المرسل وقول الصحابى، ويشرع من قبلنا. وعمل أهل المدينة. والاستصحاب. والاستحسان، والمصالح المرسلة. وسد الزرائع وقول الأكثر. والأخذ بأقل ما قيل، وتوجد قواعد كلية. تعتبر دليلاً لكثير من الجزئيات، مثل: الأصل فى المضار التحريم. وفى المنافع الإباحة .. المشقة تجلب التيسير .. والأمور بمقاصدها .. درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .. العادة محكمة. فيما لم يرد فيه نص .. إلى غير هذا من القواعد التى أخذت من دلائل الكتاب والسُّنة. ومن روح الشريعة. ولا يستغنى مجتهد عن معرفتها، والإلمام بها إلماماً كاملاً، زيادة على اتصافه بالشروط السابقة، مع فقاهة نفسه، وورع يحجزه عن الزيغ والميل مع الهوى والاجتهاد المطلق بالوصف الذى بيناه وأوضحناه، فرض كفاية. يجب أن يقوم به من الأمة فرد أو أفراد لتجديد الدين. باستخراج أحكام لما تجدد من الحوادث. ولتبليغه على الوجه الحق ولقيام الحجة على الخلق. بوجود ورثة الأنبياء بين ظهرانيهم. ويرجعون إليهم فيما يشكل من أمور الدين. ويدحضون ما يرد من شبه تؤثر فى عقائد عوام المسلمين .

أما الذين يسارعون إلى إباحة بعض المحرمات. ويصدرون فتاوى يرضون بها رؤساء بعض الحكومات. وقد تختلف فتاويهم بالتحليل والتحريم حسب اختلاف الأغراض

والشهوات، فهؤلاء مجتهدون في محو الدين مجدون في تغيير أحكامه، ولن يفلتوا من عقاب الله تعالى، ولا من شديد انتقامه، ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾(البقرة: ١٤٤) .

****

هل يمكن إصلاح الدين

عرف العلماء الدين بأنه: ((وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة، إلى ما فيه صلاح دنياهم، وسعادة آخرتهم))، وهذا التعريف مأخوذ من قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾(المائدة: ٣)، وحيث كان الأمر كذلك، فلا يمكن لبشر أن يتناول الدين بإصلاح أو تهذيب لأن ما وضعه الله وأكمله، لا يقدر مخلوق أن يصلحه، وعلى هذا فقول الشيخ / محمد عبده:

ولست أبالي أن يقال محمد   ابلَ أمْ اكتظت علىَّ المآتم

ولكن دينا قد أردت صلاحه   أحاذر أنى تقضى عليه العمائم

ـ ويعني بصلاحه إصلاحه ـ خطأ، لما علمت، فإن أراد بالإصلاح التجديد عن طريق الاجتهاد، فهو ليس من أهله لأنه:

أولاً: لم يكن يعرف السنة النبوية، بشهادة تلميذه البار الشيخ / رشيد رضا، وفتاواه تدل على ذلك أبلغ دلالة .

ثانياً: كان يجتهد مع وجود النص ويخالفه، سأله مسلموا الترانسفال عن حكم البقرة التي تقتلها حكومتها الإنجليزية بضربها على رأسها بآلة حادة كالساطور ؟ هل تجوز أكلها؟ فأفتاهم بالجواز، قياساً على قول ابن العربي المالكي بإباحة أكل الدجاجة التي يقتلها النصارى بليِّ عنقها، لأنها طعامهم والله تعالى يقول ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾(المائدة: ٥) فكانت هذه الفتوى باطلة، لوجوه:

إحداهما: أنه أباح ما صرح الله بتحريمه، في قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ ﴾(المائدة: ٣) الآية، والبقرة المضروبة على رأسها موقوذة .

ثانياً: أنه قلد ابن العربي في رأي خطأه فيه اصل مذهبه، وبينوا أنه غفل عن القاعدة المتفق عليها، وهي: أن طعام الكتابيين يحل لنا ما لم يكن حرم في شريعتنا، والدجاجة المقتولة بلي عنقها حرام في شرعنا، فلا تحل بالإجماع .

ثالثاً: وفيه خطأ من الناحية السياسية: أنه مسوغ لهم بالاستسلام لحكومتهم الكافرة فيما يخالف تعاليم دينهم، وكان الواجب عليه أن يرشدهم لمطالبة حكومتهم بإقامة مذبح خاص بهم، وإشعارهم بقوة كيانهم، واعتزازهم بتعاليم دينهم .

وسألوه عن حكم لبس البرنيطة ؟ فأجبهم بإباحته، لاتقاء حر الشمس ونحوه، فخالف قول النبى ﷺ { من تشبه بقوم فهو منهم } وقوله ﷺ { ليس منا من تشبه بغيرنا } وغفل عن حكم التحريم وهي أن البرنيطة شعار خاص بالنصارى، يتميزون به ومشاركتهم فيه، تورث ميلاً إليهم، واستحساناً لعادتهم، وركوناً إليهم، فيفقد المسلمون شعارهم وعادتهم، ويسهل حينئذ إذايتهم فى غيرهم، وهذا ما قصد إليه المستعمرون حين غزوا بلاد الإسلام، وقوضوا الخلافة، استوردوا معهم عادات أوربية، وتقاليد إفرنجية، غزوا بها المسلمين فى لبسهم، وفراشهم، ومجتمعهم، فتقبلوها باسم المدنية والحضارة والتقدم، وانسلخوا من عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية العربية، فاستعجمت قلوبهم وتفرنجت مظاهرهم، ولم يبق لهم من العروبة والإسلام، إلا دعاوى باللسان، وصدق عليهم قول النبى ﷺ { قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم السنة العرب } .

وهذه تركيا الحديثة حينما أرادت التنصل من إسلامها وشرقيتها، اتخذت البرنيطة شعاراً لها، واتبعتها بقوانين تعارض كتاب الله وسنة رسوله، فكانت أول مادة فى دستورها: أنها دولة لا دينية وأباحت زواج المسلمة بغير المسلم. وساوت بين الرجل والمرأة فى الميراث، إلى غير ذلك، واستبدلت الحروف اللاتينية بالحروف العربية، فاحبتها الدول المستعمرة: أمريكا وإنجلترا وفرنسا، وخصوصاً بودهم، واتخذوها حليفة لهم، وأمدوها بالمال والسلاح، واعتبروا أى عدوان عليها عدواناً عليهم يقاومونه بالسلاح، وما ذلك إلا لإندماجها فى تقاليدهم، وتنكرها لدينها وقوميتها .

وأنكر ليلة القدر، وزعم أن الأحاديث الواردة فى فضلها، وفضل قيامها رواياتها مضطربة، وأغلبها ضعيف، والكثير منها موضوع قال: ومثل ذلك لا يصح الأخذ به فى باب العقائد، وهذا دليل واضح من كلام الشيخ يدل على جهله بالسنة، لأن أحاديث فضل ليلة القدر، وفضل قيامها والدعاء فيها: ثابتة فى صحيحي البخارى ومسلم وبقية الكتب الستة وغيرها من كتب السنة المعتبرة، من حديث ابن عباس. وعائشة، وأبى سعيد الخدرى وعبادة بن الصامت وغيرهم، بحيث بلغت حد الاستفاضة والشهرة، لكن الشيخ لم يقرأ صحيح البخارى طوال حياته، كما يقول عنه تلميذه الشيخ / رشيد رضا، ثم لست أدرى ما علاقة قيام ليلة القدر بالعقيدة !!!، فهل كان الشيخ يجهل الفرق بين ما هو من قبيل

الفروع، وما هو من قبيل العقائد ؟!! أو أن الخلط بينهما نوع من الاجتهاد عنده ؟!! ثم إنه تمحل في بيان معنى ليلة القدر، وتكلف في تفسير قوله تعالى ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا ﴾(الدخان: ٤-٥) بما ينافي العلم والأنصاف. وقد كشف عن تمحله وتكلفه الشيخ/ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر السابق في رسالة ألفها في " ليلة القدر " .

ثالثاً: يؤول نصوص الشريعة بالمصطلحات المستحدثة في هذه العصور غير مبال بالمدلولات اللغوية لتلك النصوص، وإليك البيان:

نشأ عن الاستعمار الأوربي تدفق جيش من المبشرين على البلاد الإسلامية يغشون المستشفيات، والنوادي والمجتمعات، يبشرون بدينهم المسيحي، ويفضلونه على أنه دين الرحمة والمحبة والسلام والتسامح، إلى كلام من هذا القبيل، ردده أولئك المبشرون في مصر والسودان والمغرب، وغيرهما من البلاد الشرقية الإسلامية، وسمعه الشيخ ـ وكان ذكياً ـ فهداه ذكاؤه إلى أن يؤول به نصوصاً تصرح بخلاف رأيه، فإنه تعرض في بعض دروسه ـ كما في تفسير المنار ـ لأحاديث نزول عيسى وقتله الدجال، وهو لا يرى ذلك، فأولها بأنها تشير إلى انتشار رسالة عيسى وتعاليمه من الدعوى إلى المحبة والتسامح .. الخ وفاته أمور:ـ

١ ـ أن هذا المعنى مستحدث لم يعرف إلا بظهور المبشرين الذين جاءهم الاحتلال، فلا يجوز ولا يصح أن تؤول به ألفاظ الكتاب والسنة .

٢ ـ أن يبين من الذي يقوم بنشر تعاليم المسيح ؟ النصارى ؟ أم المسلمون ؟ إن كان الأول فهل معنى ذلك أن الأحاديث أخذت بانتشار النصرانية ؟ وأن كان الثاني، فهل معنى ذلك أن المسلمين رأوا تعاليم المسيح خيراً من تعاليم دينهم فقاموا بنشرها ؟!!

٣ ـ أن الأحاديث صرحت بأن عيسى ـ حين نزوله ـ يدعوا إلى الإسلام ويقاتل عليه، ولا يقبل الجزية ولا يبقى في عهده يهودي ولا نصراني .

****

فرض الكفاية أصل اجتماعي عظيم

عرف علماء الأصول فرض الكفاية بأنه أمر مهم يقصد حصوله من غيره نظر بالذات إلى فاعله، فالطلب به يتوجه إلى مجموع الأمة، فإن تركوه أتموا جميعاً، وإن قام به بعض الأمة سقط الإثم عن الباقين. وهو نوعان:ـ ديني، ودنيوي:

فالديني ماله تعلق بالدين: مثل الاشتغال بعلم التجويد. وعلم القراءات لأن بهما يمكن تلاوة القرآن على الوجه المتلقى، وقراءته بالوجوه المروية عن النبي ﷺ .

والاشتغال بعلوم النحو، واللغة، والبلاغة، والأصول، لأنها وسائل لفهم الكتاب والسنة .

والاشتغال بعلم الكلام، وما يتوقف عليه من علم المنطق، لأن به تقام الأدلة على صحة العقيدة، وتدفع الشبه الواردة عليها .

والاشتغال بعلم الفقه على وجه التعمق والبحث، لأن به تعرف الأحكام المتعلقة بأفعال المكلفين في عبادتهم ومعاملاتهم .

والاشتغال بعلم الفلك، لأن به تعرف مواقيت الصلاة، ومواقيت الإمساك والإفطار في رمضان.

والاشتغال بعلم الحساب، لأن به تعرف قسمة المواريث. ونصيب كل وارث وأنواع من المعاملات في البيوع وغيرها .

والاشتغال بصناعة الأسلحة، للجهاد في سبيل الله، واستعداداً لدفع عادية المعتدين من المستعمرين والصهيونيين، تنفيذاً لقوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾(الأنفال: ٦٠) وقال النبي ﷺ { ألا أن القوة الرمى ألا أن القوة الرمى ألا أن القوة الرمى } والرمى عام يشمل رمى البنادق والمدافع والقنابل والصواريخ وغيرها .

ومن فرض الكفاية تبليغ الإسلام، ودعوة المسلمين إليه، لقوله تعالى ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾(آل عمران: ١٠٤) أي: الإسلام، وذلك بشرح عقائده، وبيان سماحته، وسهولة أحكامه، ويسر تعاليمه، بوسائل الدعوة، كالكتابة والخطابة والمناظرة وغيرها، ويستدعى ذلك تعليم لغات أجنبية، ليمكن ترجمة معان من تفسير القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وغير ذلك مما يوضح معنى الإسلام، ويرغبهم فيه فيكون تعليم اللغات الأجنبية واجباً، لتوقف واجب التبليغ عليه، وقد أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت بتعلم اللغة العبرية، وقال { لا آمن هؤلاء اليهود على كتبى } فيستفاد منه أن من مقاصد تعلم اللغة الأجنبية دفع ما يكتبه الأجانب، عن الإسلام من تحريفات وتشنيعات يزعمونها مترجمة عن تعاليمه وأحكامه. وأكثر الأجانب عداء للإسلام، وأحرصهم على تشويه سمعته المستشرقون الفرنسيون الهولنديون. وقد كانت حملة هاتوتو الفرنسى على الإسلام حملة قذرة كشخصه. فردها الشيخ محمد عبده رحمه الله وأحسن جزاءه، ومن المعروفين بالعداء للإسلام وللنبي ﷺ الكاتب والفيلسوف الغربي المشهور بسخريته برنارد شو أخزاه الله .

وواجب التبليغ أهمله المسلمون، وقصروا فيه تقصيراً شائناً، حتى لاحظه الأجانب أنفسهم، فقد رحل المستشرق الإنجليزى "أدورد وليام لين" إلى مصر فى القرن الماضى، ومكث مدة عاشر فيها المصريين، وعرف عادتهم كأنه واحد منهم، وسجل ما شاهده فى كتاب جاء فيه: ورغم أنى ألمس كل يوم دليلاً جديداً على شدة تحمس المسلمين، واعتزازهم بدينهم إلا أننى كثيراً ما تسألت عن السر فى أنهم لا يحاولون مطلقاً أن ينشروا دينهم عن طريق التبشير، وقد أبديت هذه الملاحظة لكثير من الناس، وسألتهم لم لا يفعلون كما كان أجدادهم يفعلون فى صدر الإسلام ؟ فينشرون دينهم كما نشروه ؟ فما كان جوابهم إلا أن قالوا: وأى فائدة نجنيها من ضم ألف من الكافرين إلى حظيرة الإسلام ؟ إن هؤلاء لن يزيدوا عن عدد المؤمنين إطلاقاً لأن عدد المؤمنين قد كتبه الله عنده ؛ وليس فى قدرة أحد من البشر أن يضيف إلى ذلك العدد أو ينقص منه، وملاحظة هذا المستشرق فى محلها، وسؤاله وجيه، لكن الإجابة عنه تدل على ضعف فى التفكير، وميل إلى الكسل، وفهم خطأ لعقيدة القدر المكتوب، مع مخالفاتها للواقع الملموس لأن فى إدخال بعض الكفار إلى حظيرة الإسلام فوائد:

منها: اكتساب ثواب الله تعالى، للقيام بتنفيذ قوله ﷻ ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾(آل عمران: ١٠٤) الآية، ولقول النبى ﷺ لعلى كرم الله وجهه { لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت } أو كما قال .

ومنها: إنقاذ الداخلين فى الإسلام من النار، وهو فوز وفلاح، لقوله تعالى ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾(آل عمران: ١٨٥) وكفى فائدة .

ومنها: اكتساب اخوان فى الدين، والتعارف بهم والتعاون معهم على إقامة دين الله، تحققاً لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾(البقرة: ٢٠٨) وقوله سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾(الحجرات: ١٣) وقوله جل شأنه ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾(المائدة: ٢) .

ومنها: انتفاع المسلمين بخبرة أولئك الداخلين فى الإسلام، فيما أتقنوه من الصناعات والمهن المفيدة، وقد كان النبى ﷺ ـ فى بعض غزواته[1] ـ جعل تعليم بعض المسلمين الكتابة، فدية لإطلاق اسرى الكفار من الأسر، فكيف يفوتنا الانتفاع بمن يدخلون فى ديننا ؟ ويصيرون إخواننا ؟! .

---

(١) وهى غزوة بدر .

ومنها: أن عدد المؤمنين يزيد بالداخلين فى الإسلام، وتقوى رابطتهم، ويشتد أسهم، لا سيما إذا كان فى الداخلين ذوو نجدة وبصر بالأمور السياسية ونحوها، إلى غير هذا من الفوائد، والمقصود أن واجب التبليغ يقع إثم إهماله على المسلمين خصوصاً منهم الحكام، والعلماء وذوى اليسار، فهؤلاء الطوائف الثلاثة يتحملون كبر هذا الإثم، ويلزمهم عظم وزره، وفقهم الله وهدانا وإياهم سواء السبيل .

أما دعوى: أن عدد المؤمنين قد كتبه الله عنده، وليس فى قدرة أحد من البشر أن يضيف إليه أو ينقص منه، فكلمة ألقاها الشيطان على ألسنة المسلمين فى هذه العصور، ليثبطهم عن الأعمال النافعة ويخذلهم عن القيام بخدمة دينهم على الوجه الصحيح فاستناموا إلى الراحة، واستكانوا إلى الخمول واشتغلوا بتوافه الأمور، حتى سبقتهم الأمم، وغلب عليهم الاستعمار، فصاروا مغلوبين فى ديارهم، متأخرين فى أفكارهم، هذا وهم يعلمون أن النبى ﷺ ـ وهو أول المؤمنين بالقدر ـ قام بالدعوة، وكافح فى نشرها، وصبر وجاهد بالحجة والبرهان، ثم جالد بالسيف والسنان، حتى نصره الله، ونشر دينه، والله تعالى يقول ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(الأحزاب: ٢١) أفلا يأتسون به فى نشر الدين، والدعوة إليه ؟! لا سيما وقد قال النبى ﷺ فى حجة الوداع { ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب } فرض الكفاية الدنيوى كثير أيضاً.

مثل الاشتغال بعلوم الطب والهندسة والزراعة والجغرافيا وغيرها .

مثل الاشتغال بالمهن والصناعات، كالتجارة والخياطة والخراطة والحدادة والبناء وغيرها.

ومثل الاشتغال بالصناعات المستحدثة كالتليفون والراديو والتليفزيون والكهرباء .

وكالبحث عن المعادن، مثل الحديد والنحاس والذهب والبترول وغيرها مما أودعه الله باطن الأرض، وأرشد إليه فى قوله ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ أى اخرجناه من المعادن ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ حيث يتخذ منه معدات الجهاد ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾(الحديد: ٢٥) حيث يتخذ فى بناء البيوت والمصانع وغيرها .

وقوله تعالى يمتن على سليمان عليه السلام ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ ﴾ أذبنا له ﴿ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾(سبأ: ١٢) النحاس، وفى الحديث الذى يقول { التمسوا الرزن } أى ما تنتفعون به {فى خبايا الأرض } أى فيما خبأه الله فى باطن الأرض من المزروعات والمعادن، وكتعلم السباحة والغوص، لانتشال الغرقى، ولاستخراج اللؤلؤ والمرجان اللذين امتن الله علينا بهم فى قوله تعالى ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾(الرحمن: ٢٢) إلى غير ذلك من الحرف الكثيرة،

وروى الديلمي وابن عساكر عن عطية بن بسر مرفوعاً ـ في قوله تعالى ـ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة: ٣١) قال: " علمه الله في تلك الأسماء ألف حرفة من الحرف، وقال له: لولدك وذريتك يا آدم، فإن لم تصبروا على الدنيا فاطلبوها بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لى وحدى خالصاً، ويل لمن طلب الدين بالدنيا، ويل له " والتعبير بالألف ليس للتحديد بل هو كناية عن الكثرة، أو باعتبار أنها اصل للحرف التى تولدت بعد ذلك وتطورت مع تطور الناس حسب مصالحهم ومقتضيات أحوالهم .

والقاعدة عند فقهاء الإسلام: أن الاشتغال بالعلوم النافعة، والحرف المفيدة، فرض كفاية، تأثم الأمة بتركه، وإن قام به طائفة منهم سقط الإثم عن الباقين، ومن هنا يتبين أن الإسلام لم يكتف بالترغيب فى تعلم العلوم والصناعات ـ بل جعله واجباً تأثم الأمة بالتقصير فيه، وهذا لا يوجد فى دين من الأديان، ولا فى نظام من النظم، وبهذا يمتاز الإسلام عن غيره.

وينبغي لمن يتعاطى شيئاً من الحرف والصناعات المذكورة أن ينوى بتعاطيها القيام بواجب الكفاية، فيكون مثاباً عند الله فى عمله الدنيوى، وهذا من خصائص الإسلام أيضاً .

ومن فروض الكفاية ما قصد به إيجاد تآلف بين أفراد الأسرة والمجتمع مثل ما إذا سلم شخص على جمع من الناس، وجب عليهم رد السلام، فلو رد واحد منهم كفى، وسقط الأثم عن بقيتهم .

وإذ عطس فى مجلس وحمد الله تعالى، وجب على الحاضرين تشميته بقولهم له: يرحمك الله، فإن شمته أحدهم، سقط الإثم عن بقيتهم، ومثل هذا كثير .

****

الزكاة والخمس علاج لمشكلة الفقر

الزكاة ركن من أركان الدين، وحق معلوم في مال الغنى للفقير، وليس أمرها موكولا إلى رغبة الغنى يدفعها إن شاء، بل الواجب شرعاً على الحكومة أن تقوم بتحصيل الزكاة من التجار والمزارعين والأغنياء، وتوزعها على مستحقيها، فإن امتنع أحد من أدائها، وأخذت منه قهراً، وعوقب ليكون عبرة لغيره، لقول النبى ﷺ { من أدى الزكاة مؤتجراً فله أجره ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله غرمة من غرمات ربنا }[1] .

---

(١) رواه أحمد والنسائي وغيرهما .

وإن امتنع منها جماعة قوتلوا عليها. كما فعل الصديق ﷺ، حيث جهز جيشاً لقتال أهل اليمامة حين امتنعوا عن دفعها له . وقالوا كنا نعطيها للنبى ﷺ، وقد توفاه الله تعالى وراجعه عمر ﷺ فقال ((كيف تقاتل قوماً يقولون لا إله إلا الله. وقد قال النبى ﷺ {أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا من دمائهم وأموالهم إلا بحقها} فقال: أليس قد قال { إلا بحقها ؟} والزكاة حق المال والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه)) وقاتلهم حتى رجعوا .

ومن الوظائف التى كانت فى العهد النبوى تعيين الجباة الذين كانوا يحصلونه من أرباب الأموال ويسلمونها إلى النبى ﷺ حتى يفرقها على مستحقيها. ومنهم الجباة، وهذه الوظيفة أسسها القرآن الكريم. حيث أرشد إليها فى قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ الزكوات ﴿ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾(التوبة: ٦٠) العاملون عليها هم جبابتها. فيجب على كل حكومة إسلامية أن تنشئ مصلحة خاصة تسمى " مصلحة جباية الزكاة " تكون مهمة موظفيها ثلاثة أشياء:ـ

١ـ حرص التجارات والمزروعات والأنعام والنقود المودعة فى المصارف، ثم تحصل الزكاة من أصحابها على رأس كل سنة هجرية، بالنسبة التى عينها الشارع لكل نوع من الأنواع السابقة، إلا المزروعات فتؤخذ الزكاة منها حين نضجها، ثم توزيعها على مستحقيها

٢ ـ تحصيل زكاة الفطر فى رمضان من كل مسلم أو مسلمة يملك زيادة عن قوت يومه، كبيراً كان أو صغيراً ويدفع عن الأطفال أبوهم، وعن المرأة زوجها، ومن لا زوج لها تدفع عن نفسها إن كنت تملك قوت يومها ثم توزيعها على الفقراء يوم العيد نفسه، ليكون الابتهاج بالعيد عاماً لجميع المسلمين ويحرم تأخير توزيعها إلى ثانى يوم العيد إلا لعذر .

٣ ـ تحصيل الخمس على ما يستخرج من الكنوز والمعادن. ثم توزيعه على مستحقيه، ويجب أن يكون موظفو هذه المصلحة مستوفين لشروط:ـ

أ ـ معرفة كافية بشئون التجارة والزراعة والمعادن وما إلى ذلك من ليكون حرصهم وتقديرهم موافقاً للحقيقة. لا إجحاف فيه على أصحاب المال. ولا على المستحقين .

ب ـ علم تام بأحكام الزكاة والخمس وأنواعها ومصارفهما. وما يتصل بذلك ليكون عملهم مطابقاً لما قررته الشريعة .

ج ـ الأمانة التامة، ليؤدوا ما يحصلونه إلى مستحقيه، قليلا كان أو كثيراً .

د ـ مراعاة العدل فى توزيع الزكاة أو الخمس على أصحابه، بعد التحرى عن كل واحد من يأخذ، ومعرفة مدى استحقاقه .

لو أنشئت هذه المصلحة فى كل بلد إسلامى، لما بقى فى المسلمين فقيراً ولا مسكين، ولأرتفع مستوى معيشتهم، ولكن الحكومات الإسلامية تركت القيام بهذا الواجب الذى سيعاقبها الله عليه عقاباً شديداً وذهبت تتلمس علاجاً للفقير فى نظم غريبة عن ديننا، تنافى تقاليدنا، فكانت كمثل مريض ترك دوائه فى يده. وذهب يسأل الناس أن يمنحوه دواء لعلاج مرضه ! !

****

معجزة نبوية

روى الحاكم والبيهقى بإسناد صحيح عن ابن عمر ﷺ قال: أتى رجل من بنى سليم بزكاة قومه، وجاء بقطعة من معدن لهم، فلما رآها رسول الله ﷺ قال { ستظهر معادن وسيحضرها شرار الخلق } صدق رسول الله ﷺ وحصل ما أخبر به ؛ بعد مضى أكثر من ألف عام، فقد ظهر فى الحجاز وغيرها من البلاد العربية معادن البترول والذهب، وحضرها نوعان من شرار الخلق:

١ـ الشركات الأمريكية والإنجليزية التى استكشفت تلك المعادن، واشترت امتياز إستخراجها، واتخذت من تلك المعادن أداة للتدخل فى شئون البلاد العربية، والضغط عليها لقضاء مصالحها الاستعمارية، بل أن تلك الشركات أخذت تساعد اليهود على اغتصاب فلسطين بالأموال التى تربحها من بترول العرب ! !

٢ ـ حكام تلك البلاد، فقد اعتبروا المعادن ملكاً خاصاً بهم، وأخذوا ينفقون المال الذى يستولون عليه منها، وفى مصالحهم الشخصية، وشهواتهم الجسمية، وأغرقوا فى ذلك وأفرطوا حتى خرجوا عن الحد المعقول ولم يخطر قط ببالهم أن ينفذوا ـ ولا أن يعرفوا ـ ما يوجب الشرع عليهم عمله فى ذلك المال، وهو أمران:ـ

أ ـ توزيع خمسه على اليتامى والمساكين وغيرهم من بينتهم كتب الفقه الإسلامى .

ب ـ توزيع أربعة أخماس الباقية فى مصالح الشعب كالتعليم والصحة وتيسير الطرق وتعيين الموظفين الأكفاء، وغير ذلك مما يعود على البلاد وأهلها بالنفع العام، ويأخذ الحكام أجرهم من ذلك المال. باعتبارهم موظفين يقومون بما عهد إليهم خير قيام لو أنهم فعلوا ذلك لكانت بلادهم من أحسن البلاد رقياً وتقدماً فى التعليم والصحة والعمران وفى سائر شئون

الحياة بل لو أنهم ـ في حرب فلسطين ـ منعوا الشركات من استخراج البترول لعدلت أمريكا وإنجلترا عن مساعدة اليهود. ولما ضاعت فلسطين، وإن يوم الخلاص لقريب بحول الله .

****

معنى يخرج الحى من الميت

قال الله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ يعنى يخرج الجنين الحى من بطن أمه بعد موتها ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾(الروم: ١٩) يخرج الجنين الميت من أمه وهي حية، ويصح أن يكون المراد: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ ﴾ المؤمن ﴿ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ الكافر ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ ﴾ الكافر ﴿ مِنَ الْحَيِّ ﴾ المؤمن. يدل على هذا المعنى قوله تعالى ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً ﴾ بالكفر ﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾(الأنعام: ١٢٢) بالهداية إلى الإيمان، والله تعالى أعلم بسر كلامه .

****

السبعة عدد كامل

للأديب الصفدى كتاب " عين النبع على طرد السبع" قال فيه: أن السبعة جمعة العدد كله. لأن العدد أزواج وأفراد، والأزواج لها أول وثانى، والاثنان أول الأزواج، والأربعة زوج ثانى، والثلاثة أول الأفراد، والخمسة فرد ثانى، فإذا اجتمع الزوج الأول مع الفرد الثانى، أو الفرد الأول مع الزوج الثانى، كان سبعة، وإذا أخذ الواحد الذى هو أصل العدد، مع الستة التى هى عند الحكماء عدد تام، يكون منها السبعة التى هى عدد كامل، لأن الكمال درجة فوق التمام .

وهذه الخاصة لا توجد في غير السبعة، ولذلك يفصلون بينها وبين الثمانية بالواو، فيقولون: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، وتسعة، وعشرة، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾(الكهف: ٢٢) ثم ساق أمثلة من استعمال العرب لفظ " السبعة " فى كل ما يريدون به الكمال، أو التيمن، أو المبالغة. والواو التى ذكر أنها تزاد بين السبعة والثمانية، سبقه إليها ابن خالوية والحريرى، ومثلا لها بالآية السابقة وبقوله تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾(الزمر: ٧١) بدون واو. وقال فى أهل الجنة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾(الزمر: ٧٣) بزيادة واو، لأن أبواب الجنة ثمانية، وسميا هذه الواو " واو الثمانية " .

ورد كرمهما ابن هشام في المغني وقال: ابن خلوية من ضعفاء النحويين، والحريرى من الأدباء، وأن ليس لواو الثمانية اصل، وأجاب عن الآيتين بما يراجع فى كتابه المذكور، ولا يحضرنى الآن، لطول العهد به، ونجيب عن الآيتين بما حضرنا ولعله خلاصة ما فى المغنى وغيره:

أما آية الكهف، فإنها دخلت الواو فيها بعدد السبعة، لنفيد أن الذين قالوا، أنهم سبعة، متأكدون من قولهم، ولم يرحموا بالغيب كالذين من قبلهم، ولهذا زادوا الواو، ليفصلوا بيَن القوم وبين كلبهم الذى ليس منهم إلا فى العدد، كما أن عدم دخولها فى الجملتين السابقتين أفاد أن القائلين بذينك العددين، شاكون غير متأكدين من قولهم، ولذا عقب الله عليهم بقوله تعالى ﴿ رَجْماً بِالْغَيْبِ ﴾ .

وأما آية الزمر، فليس فيها عدد مذكور،لا سبعة ولا ثمانية،وإنما زيدت الواو، لتفيد أن أبواب الجنة فتحت قبل مجيء المتقين إكراماً لهم، فإذا جاءوا لم يتحملوا ألم انتظار فتحها، بل وجدوها مفتحة فى انتظارهم، فيزيد فرحهم وسرورهم، بخلاف أبواب النار فإنها تظل مغلقة حتى إذا جاء الكفار فتحت أمامهم، فكان لفتحها وهم وقوف ينتظرون رهبة فى قلوبهم، وألم فى نفوسهم، هذا ما ظهر فى توجيه زيادة الواو، وحذفها فى الآيتين الكريمتين، والله ﷻ أعلم .

وبعد هذا لا شك أن للسبعة شأناً عند العرب، وجاء الشرع على وفاق ما عندهم، فأخذ القرآن أن السموات سبع، والأرضون كذلك، وأن أبواب النار سبعة أشواط، والسعى بين الصفا والمروة سبع مرات، ورمى الجمار سبع، وفى الحديث الصحيح { طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات } وفرائض الوضوء فى مذهب مالك سبعة، وأيام الأسبوع سبعة إلى غير هذا مما يطول تتبعه .

****

استغاثة أنشأتها سنة ١٣٨٠ هجرية

١	سألتك يا الله يا مَن له الثَّناء	تفرِّجُ فضلاً منك عنى مُصيبتى
٢	ويارِبِّ يا رحمنُ فارحَم تذلُّلى	إليك وأدركْنى بنصر وعِزَّة
٣	رءوفٌ رحيمٌ أنت فارأف بحالتى	ويا بَرُّ يا توَّابُ تقبلُ توبتى
٤	ويا صَمدُ أنهى إليك مَطالبى	لتُقضى ومنها محوُ ملُ خطيئة
٥	عفُوٌّ غفور فاعفُوا عنّى وعافِنى	بسترَك يا ستَّار تَشْمَلُ زَلَّتى

٦	وأنت جوَادٌ ماجدٌ متفضّلٌ	فجُدْ لى بفضْل منك يُذهبُ علّتى
٧	ويا منعمُ أنعِم على تكرُماً	بمنِّك يا منَّان تكشفُ كُربتى
٨	ويا أحدُ مالى سواك يمدنى	من الخير ما يَقضى بتفريج غمتى
٩	ويا حى يا قيوم أحْيِ قلوبنا	بذكرك كى ننجو به يوم شلَة
١٠	أغثنى وعجل يا مُغيث فإنّنى	يئست من الدنيا وأهل المروءة
١١	فقَدت صحاباً فرُّوا منى وأمعنوا	فراراً وكانوا يزعمون محبتى
١٢	فقدت صحاباً لم أكن فى مودتى	لهم كاذباً . كلاً ولا فى نصيحتى
١٣	فقدت صحاباً كنت أحسب قربَهم	غنيمةَ وقتٍ بل نهاية بغيتى
١٤	فقدت صحاباً قد أفادوا بصحبتى	من العلم والفتوى وفائق شُهرة
١٥	صحاباً تولّوا فى الوظائف وارتقَوا	إلى رُتب كبرى بعلمى وخبرتى
١٦	صحاباً افادوا المال من كتُبى ومن	نتائج فكرى فى مسائلَ عدة
١٧	صحاب إذا عُدُوا كثيرون فى الرخا	وقُلٌ ضئيل إن نفاجَأْ بمحنة
١٨	وليتهمُ عند الشّديدة أحجَموا	وكاعُوا فما فى عجزهم من مذمة
١٩	ولكنهم فاهوا من الفحش والخنا	وطَتْر بما فى نفسهم من حَفيظة
٢٠	أشاعوا قبيحاً عنى فى كل مجلس	وقصدهمُ من ذلك تشويهُ سمعتى
٢١	وما عملوا فلا سورة النور آيةً	تقبّح ما يأتون من كل وجهة
٢٢	برئتُ إلى المولَى من الصحبِ كلهم	سِوى بعضهم قد فزت منه بنظرة
٢٣	فراعَوْا ذمام العهد بينى وبينَهم	ولم يتركوا جهداً يفيد قضيتى
٢٤	فأُثنِى عليهم شاكراً ومنوِّهاً	بأخلاقهم أكرِمْ بهم من عَشيرة
٢٥	وبعضٌ سعى خيراً وأجهد نفسه	فأحمدُ منه ما رَعى من مودة
٢٦	وأسأل ربى أن يواصل برَّهُ	على من وفى بالعهد فى وقت أزمتى
٢٧	إلهى لقد يّممت بابك ضارعاً	إليك فأرغدنى بفيض ونعمة

٢٨	إلهي اجب واسمع دعائي فإنني	قصدتك لا أرجو سواك بدعوتي
٢٩	إلهي وخلصني من الكرب والأذى	وأذهب سريعاً عن كل مضرة
٣٠	إلهي وتوجني بنصرك عاجلا	فإني شريد الفكر من هول شدتي
٣١	إلهي وخذ ثاري من الظالم الذي	تسبب في هتكي ليبدي معرّتي
٣٢	وجازه لعناً دائماً متواصلا	على ما بدا منت بهته في قضيتي
٣٣	أطلّ دمي من غير جُرم أتيتُه	ولوّث عرضي بالدعاوى الخبيثة
٣٤	إلهي ونجني من الأزمة التي	أتى بي إليها كي تحقّ منيتي
٣٥	دعوتك يا الله يا واسع العطا	فحقق دعائي واستجب لرجاوتي
٣٦	بجاه رسول الله افضل شافع	وأكمل مخلوق أتى بنُبُوة
٣٧	رسول كريم واسع الصدر سيد	أمين وفيّ ذو الخصال العظيمة
٣٨	حبيب إلى الرحمن أعظم مرسل	خليل نجيّ نال اعظم رتبة
٣٩	صفي له عند الإله مزية	سراج منير عمّ كلّ البرية
٤٠	فمن نوره كان النبيون كلهم	ومن نوره كانت جميع الخليقة
٤١	وكان نبياً حيث آدمُ صورةٌ	مجندلة بين المياه وطينه
٤٢	أجلّ إله العرش قدر نبيه	فعظمة عند النداء بكنيَةِ
٤٣	وفي آية الميثاق عهد مؤكد	من الله للرسل الكرام يجمله
٤٤	وفي آية الربا دليل حياته	دواماً بلا ثُنْايا إلى يوم نفخة
٤٥	وكرّمه المولى بمدح صفاته	وطهره من كل عيب ووصمة
٤٦	وأعلى على كل النبيين قدره	وشرفه ليل العروج برؤية
٤٧	تجلى عليه ليلها بمعارفٍ	وعلم وأسرار وقرب وخطوة
٤٨	وما زال يرقّى بعد ذاك مراتباً	من العلم والعرفان في كل لحظة
٤٩	نبي أتى بالدين سهلاً ميسّراً	بعيداً عن التشريد أو أي كلفة

٥٠	نبى سخى الكف أسخى من الندى	بجود ولا يخشى من أيَّة عَيلة
٥١	نبى حليم ذو أناة يزينها	رزانة رأى لا يميل لطيشه
٥٢	نبى يحب اليسر والعفو والوفا	ويُبغض ـ طبعاً فيه ـ كل نقيصة
٥٣	نبى أتى بالزهد فى هذه الدنيا	ولو شاءها جاءت بأدنى إشارة
٥٤	نبى غنى القلب بالله وحده	فمولاه قد أغناه عن كل زينة
٥٥	نبى تولى الله عنه دفاعه	وخيب قوماً قد رموه بجنة
٥٦	نبى له يوم القيام شفاعة	وجاه عريض عند رب البرية
٥٧	نبى أتى بالمعجزات قواطعاً	فمنها حنين الجذع فى يوم جمعة
٥٨	ومنها انشقاق البدر فى وسط السما	وتأخير شمس حين كان بمكة
٥٩	ونبع مياه أصابع كفه	فأروى نميراً للجموع الغفيرة
٦٠	وأطعم الفاً أو يزيدون داجناً	فأشبعهم والأكل فاض بكثرة
٦١	وأسمعَ تسبيح الطعام لصحبه	الكرام وكانوا يأكلون بسفرة
٦٢	وأبرأ أسقاماً بنفث لسانه	وأذهب أوصاباً وبؤساً بلمسة
٦٣	فصلى عليه الله ما ذرّ شارق	وما دامت الدنيا إلى يوم نفخة
٦٤	وسلّم تسليماً إلى يوم بعثنا	وأسعدنا بالقرب منه وحظوة

****

أنــواع النفـــاق

النفاق ثلاثة أنواع:ـ

١ ـ نفاق الكفر: وهو أن يظهر الإنسان الإسلام، ويستبطن الكفر، مثل المنافقين الذين كانوا مع النبى ﷺ، يعلنون تمسكهم بالإسلام وأحكامه، وهم مصرون على الكفر فى باطنهم، وقد فضحهم الله تعالى فى سورة التوبة وغيرها، وأكذبهم فى قوله ﷻ ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** ﴾(المنافقون: ١) .

٢ ـ نفاق العمل: وهو أن يكون عمل الإنسان بخلاف قوله، كأن يحدث فيكذب

ويعاهد فيغدر ويخاصم فيفجر، قال النبى ﷺ { آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان } وقال أيضاً ﷺ { أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منه كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر } .

٣ ـ نفاق أجتماعى: وهو أن يصف الإنسان شخصاً ذا رياسة أو جاه بما ليس فيه، كأن يمدحه بالكرم وهو بخيل، أو بالشجاعة وهو جبان، أو بالصلاح وهو فاسق، أو بالسماحة وهو لئيم .

وهذا يسمى مداهنة، وهى مذمومة شرعاً وعرفاً بخلاف المداراة وهى معاملة الشخص بما يليق بمركزه فى المجتمع، وإن كان فى الواقع فاسقاً أو لئيما مثلاً، ولهذا قال أبو الدرداء ﷺ: (إنا لنبش فى وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم) والخلاصة: إن المداهنة نفاق اجتماعى مذموم، والمداراة واجب اجتماعى ممدوح، وبالله التوفيق .

****

غلط فى فهم آية

كثير من أهل العلم يدعى فى قوله تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾(الرحمن:٣٣) أنه يشير إلى الطائرات وسفن الفضاء ويقولون معنى ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ إلا بعلم، ففيه الإشارة إلى إن العلم سيصل إلى اختراع ما ذكر، وقد حصل ذلك أخيراً كما هو مشاهد، وهذا غلط، وسياق الآية لا يفيد ذلك، ولا يساعد عليه، بل الخطاب فيها لتعجيز الثقلين، وإعلامهما أنهم لا يقدرون على الخروج من نواحى السموات والأرض، هرباً من يوم الحساب، إلا بسلطان: أى بقوة، ولا قوة لهم على ذلك، وهذه الطائرات وسفن الفضاء لم تخرج عن أقطار السموات والأرض ولا يمكن أن تخرج منها أبداً، وإنما هى تطير داخلها، مهما أبعدت فى طيرانها، ولم يخرج أحد عن أقطار السموات إلا النبى ﷺ ليلة المعراج، حيث تجاوز السموات السبع إلى سدرة المنتهى وإلى الجنة، وكان ذلك إكراماً خاصاً به ﷺ، فهل تجاوزت طائرة أو سفينة الفضاء السماء الدنيا؟!! بل هى وصلت إليها؟!! نعم أشار القرآن إلى الطائرات بأنواعها إشارة صريحة فى قوله تعالى ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(النحل:٨) راجع ما كتبناه فيما سبق .

آية جمعت الدين جملة

قال الله تعالى يخاطب موسى عليه السلام ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ وهذا تصريح بوجود الله وتوحيده، وفيه إشارة إلى العقائد العقلية، أى التى اثبتها العقل. وإن كان النقل أثبتها أيضاً، فالاعتماد فيها على العقل ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ وهذا تصريح بالأعمال الفرعية، وخصت الصلاة منها بالذكر لأهميتها ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾(طه: ١٣-١٥) وهذا تصريح بالعقائد النقلية، أى التى أثبتها النقل، وحكم العقل بجوارها، بل بوجوبها، لا يجاب النقل الصادق لها، فهذه الآية جمعت جملة الدين كما ترى .

ونذكر لهذه المناسبة بعض الآيات الجوامع :-

منها: قوله تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾(الأعراف: ١٩٩) قال جعفر الصادق عليه السلام: ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، والمراد بالعفو السهل الميسور، وبالعرف المعروف من الفضائل، وبالجاهلية السفهاء ةالإعراض عنهم ترك مقابلة سفاهتهم بمثلها. كما يحكى أن بعض الجهلة أراد أن يستفز زين العابدين عليه السلام - وكان حليماً - فتعرض له فى بعض طرقه بقبيح الشتم، وزين العابدين لا يجيبه، فتبعه ذلك الجاهل وقال له: إياك عنى بشسى ! فأجابه زين العابدين بقوله: وعنك أعرض ! فقال له: اشهد أنك من بيت النبوة، واستسمحه وتاب على يديه .

ورد فى الحديث لما نزلت هذه الآية، سأل النبى ﷺ جبريل عنها فقال: ((حتى أسأل ربى، فذهب ثم رجع فقال: وربك يأمرك أن تصل من قطعك، أو تعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك)) .

ومنها قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(النحل: ٩٠) .

قال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه أجمع آية فى القرآن للخير والشر، وبيان ذلك: إن صدورها اشتمل على الأمر بثلاثة اشياء:

إحداها: العدل: وهو لفظ عام يشمل التوحيد، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإنصاف فى الحكم، بأن ينصف الحكام المظلوم من الظالم، وفى المعاملة بأن يعامل المسلم أهله وأخوته بما يحب أن يعاملوه به. ويحب لهم من الخير ما

يحب لنفسه، ولا يستأثر عنهم بشيء، وفي النفقة بأن لا يسرف ولا يقتر، وفي العبادة بأن يجتنب فيها الإفراط والتفريط .

ثانيها: الإحسان: وهو نوعان:

الإحسان مع الله تعالى: وهو يشمل أداء الفرائض على الوجه الأكمل، والإخلاص في أدائها، وعبادته على المشاهدة، فإن لم يستطع فعلى المراقبة، كما قال النبي ﷺ - حين سأله جبريل عن الإحسان - { أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك } .

والإحسان مع عباد الله: وهو أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك.

ثالثها: إيتاء ذي القربى، أي: إعطاء القريب، وبذل المعروف له، لأنه صدقة وصلة رحم، ولأنه يقوي روابط الأسرة، ويذهب ما قد يكون في نفس بعض أفرادها من نفور أو فتور .

وآخرها: أفاد النهي عن ثلاثة أشياء أيضاً:-

إحداها: الفحشاء: وهي الزنا، لأن فيه تلويث الأعراض، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد .

ثانيها: المنكر: وهو ما ينكره الشرع، كالكفر والمعاصي جميعها كبيرها وصغيرها .

ثالثها: البغي: وهو الظلم للناس، والتعدي على حقوقهم، وإفراد الزنا والظلم بالذكر مع أنهما من المعاصي للاهتمام بهما، وبيان فريد قبحهما، فلم تدع الآية خيراً إلا أمرت به، ولا شراً إلا نهت عنه .

ولذا قال العلماء: لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية، لكفت في البيان وتفسيرها بتوسع وإيضاح لما تشتمل عليه من المعاني، يستدعي إنشاء كتاب حافل، ونرجو من الله أن يوفقنا لذلك .

ولما ابتدع الأمويون منذ عهد معاوية سب علي عليه السلام، في الخطبة الثانية من يوم الجمعة، قطعه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، في خلافته واستبدل هذه الآية الكريمة به، واستمر الحال على ذلك إلى الآن .

ومنها: قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (النور: ٥٢) قال بعض الأحبار: هذه الآية جمعت ما في التوراة وما في الإنجيل، ذلك لأن طاعة الله ورسوله تشمل الفرائض والنوافل القولية والفعلية، البدنية والمالية، وخشية الله

تقتضى ترك جميع المعاصى بجميع أنواعها، لأن من يخاف الله لا يمكن أن يعصيه، وتقوى الله معناها فعل المأمورات، واجتناب المنهيات، فالآية كما ترى جمعت خلاصة الكتب السماوية، وهى جديرة بالتدبر والتمعن، وبالله التوفيق .

* * * * * * * *

أرجى أية فى القرآن

ما هى أرجى آية فى القرآن بالنسبة لعصاة المسلمين ؟

اختلف فى ذلك: فالمشهور أنها قول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(النساء:٤٨) .

وقال جماعة من العلماء: أرجى آية فى القرآن قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(الزمر:٥٣) لما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس ﷺ قال: إن ناساً من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمد ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا لما عملنا كفارة، فنزلت ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ .. إلى قوله .. غَفُوراً رَحِيماً ﴾(الفرقان:٦٨-٧٠) ونزل ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾(الزمر:٥٣) .

وروى الطبرانى بإسناد ضعيف عن ابن عباس ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشى قاتل حمزة ﷺ يدعوه إلى الإسلام، فقال: كيف تدعونى وأنت تزعم أن من قتل أو زنى أو أشرك؛ يلق اثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً، وأنا صنعت ذلك ؟ فهل تجد لى من رخصة فأنزل الله ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ﴾(الفرقان:٧٠)، فقال وحشى: هذا شرط شديد، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً، فلعلى لا أقدر على هذا، فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(النساء:٤٨) فقال وحشى: هذا أرى بعده مشيئة فلا أدرى أيغفر لى ؟ أم لا ؟ فهل غير هذا، فأنزل الله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ (الزمر:٥٣)، قال وحشى: هذا نعم، فأسلم، وفى هذه الآية ـ مما يقوى الرجاء ويؤكده ـ إضافة العباد إلى الله فى قوله ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ جبراً لانكسارهم، وتشريعاً لهم، وإيراد جملة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ معرفة الطرفين، مع تأكيدها بأن وضمير الفصل .

وقال علىّ ﷺ: أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا

كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾(الشورى: ٣٠) وإذا كان يكفر عنى بالمصائب ويعفوا عن كثير، فأى شىء يبقى بعد كفارته وعفوه؟ وورد عنه قال: ((ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله ـ يعنى بالنسبة للعصاة ـ حدثنا بها النبى ﷺ؟ ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة، وما عفا عنه فى الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه)) .

وقال بعض العلماء: أرجى آية قوله تعالى ـ فى آخر سورة الأحقاف ـ ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(الأحقاف: ٣٥) الكافرون، قصرت الآية الإهلاك بالعذاب على الكفار، فأطمعت عصاة المسلمين فى رحمة الله تعالى .

وقيل: قوله تعالى ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾(الضحى: ٥) ورد أنه ﷺ قال ـ عند نزول هذه الآية ـ { إذن لا أرضى وواحد من أمتى ـ يعنى أمة الإجابة ـ فى النار } وصح فى الحديث عن النبى ﷺ قال { لا أزال أشفع يوم القيامة فاشفع حتى ينادينى ربى أقد رضيت يا محمد؟ فأقول أى رب رضيت }، وقال بعض العارفين فى هذا المعنى:

قرأنا فى الضحى ولسوف يعطى ... فسرَّ قلوبنا ذاك العطاء
وحاشا يا رسول الله ترضى ... وفينا من يعذب أو يُساء

****

كتابان سارا مسير الشمس

كتابان لعالمين مغربيين اشتهرا فى سائر الآفاق، وكان لهما أثر عند الناس، لا يعرف لغيرهما من الكتب، وذلك دليل على إخلاص مؤلفيهما، وحسن قصدهما فى تأليفهما .

أحد هذين الكتابين: (المقدمة الآجرومية فى علم العربية) للإمام أبى عبد الله محمد بن محمد بن آجروم الصنهاجى المتوفى سنة ٧٢٣ بفاس .

فمنذ ظهر هذا الكتاب أقبل الناس عليه فى مشرق الأرض ومغربها حفظاً وقراءة ودرساً، ووضعوا عليه من الشروح والحواشى ما لا يكاد يحصى[١] وترجم إلى بعض اللغات الأجنبية، ولقد بلغ من شهرة هذا الكتاب أن البلاد الأوربية مثل فرنسا وغيرها اشتقوا منه

---

(١) وقد وضعت عليه ـ وأنا فى سن الطلب ـ شرحاً سماه شقيقنا الحافظ أبو الفيض رحمه الله " تشييد المبانى لتوضيح ما حوته المقدمة الآجرومية من الحقائق والمعانى } وهو شرح واسع مفيد، لم أر شرحاً أكبر منه، على كثرة ما رأيت من شروحها وحواشيها المخطوطة والمطبوعة .

لفظ "جرومير "[1] وجعلوه علماً على العلم الخاص بقواعد لغاتهم .

ثانيهما : (دلائل الخيرات وشوارق الأنوار فى الصلاة على النبى المختار) للعارف الكبير سيدى / محمد بن سليمان الجزولى المغربى، لقى هذا الكتاب أيضاً إقبالاً منقطع النظير، فلا تجد قطراً إسلامياً فى مشرق الأرض ومغاربها إلا وفيه جماعات اتخذوا قراءة هذا الكتاب وردهم فى يوم الجمعة وغيره، ووقفت أوقاف لقراءته بالمسجد النبوى فى المدينة المنورة، وبالمسجد الحسينى بمصر، وبمسجد مولاى أدريس فى فاس، وبمساجد كثيرة فى سائر البلاد الإسلامية، وتأنق الناسخون فى كتابته بالخطوط الجميلة، وزينوه بماء الذهب، وطبع مرات عديدة فى تركيا ومصر وغيرها، وبعه الشيخ رشيد الحواصلى من علماء الشام المشتغلين بتجارة الكتب فى تركيا بخط جميل موشى بماء الذهب، والنسخة من هذه الطبعة تساوى ثلاثة جنيهات، وهذا مع أن كتباً كثيرة ألفت فى موضوعه، قبل الجزولى وبعده، ولكن لم تلق من الإقبال عشر ما لقيه دلائل الخيرات، ومثل هذا يقال فى المقدمة الآجرومية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

****

اصل الرقم الإفرنجى

أرقام العدد التى يستعملها المغاربة عربية، وإن كان أهل المشرق جميعاً يعتقدون أنها إفرنجية، وأول من اخترعها عربى أندلسى كما فى نفح الطيب . اخترعها على أساس

---

(1) ولهذه المناسبة أذكر أن لفظ (الشفرة) عند الأوربيين مأخوذ من (الجفر) عندنا، وكذلك معناه: فإن السرية التى تستعمل فى الشفرة مأخوذة من معنى الجفر أيضا، لأنه عبارة عن جلد ثور صغير، كتبت فيه تنبؤات وأسرار خاصة مرموز لها برموز لا يفهمها إلا من تلقاها عن أهلها، وهى متلقاة عن جعفر الصادق عليه السلام كما يقال، وانظر الكلام على الجفر فى مقدمة ابن خلدون، هذا وقد قال بعضهم فى كلمة جرومير: أنها كلمة تدل على قواعد لغتهم بحسب وضعها القديم: أى فهى توافق اللغات، وهذه دعوى بعيدة، يصعب إقامة دليل على صحتها، والمعلوم على سبيل القطع أن اللغة العربية ـ مع كونها أوسع اللغات وأغزرها مادة ـ لم يكن لها علم يضبط قواعدها، ويحصى موادها. طوال قرون كثيرة، حتى نزل القرآن، واضطر المسلمون إلى فهمه للعمل به، فكروا فى وضع علم النحو، وما يتبعه من علوم اللغة العربية وآدابها، فوضعوا تلك العلوم فى وقت كانت القارة الأوربية تعيش فى جهالة جهلاء، وضلالة عمياء، لم تكن لهم علوم فى قواعد لغاتهم ولا فى غيرها، واستمروا على ذلك بضعة قرون، حتى بدأوا يفدون على الأندلس، ينهلون من جامعاتها ومعاهدها العلمية، فحينئذ اتجهوا إلى البحث والتأليف، بعد أن شرعوا فى ترجمة الكتب العربية فى مختلف العلوم، إلى لغاتهم، فوضعوا مؤلفات فى قواعد لغاتهم احتذوا فيها بعلم النحو عندنا، كما كتبوا فى المنطق والفلسفة والرياضة والاجتماع والفلك، وغير ذلك مقتديين بمناهجنا، وكان فيهم رشيدون: أى فلاسفة على طريقة ابن رشد، وغزاليون على طريقة الغزالى. فلا شك أنهم حين وضعوا علم لغاتهم اشتقوا له أسما من كتاب عربى، اشتهر عندهم، ومن يقل بخلاف هذا، فليثبت أن علم النحو كان عندهم قبل اتصالهم بالعرب .

الزوايا، فرقم واحد يكون زاوية ورقم اثنين يكون زاويتين. وهكذا إلى تسعة. وقد أشرنا إلى الزاوية بنقطة فى داخلها:

وجعل رقم العشرة صفراً بجانبه واحد هكذا ـ 10 إشارة إلى تكرار العدد بعدها، وعن الأندلسيين اخذ الأوربيين هذه الأرقام[1] وطوروها إلى وضعها الحالى، غير ملاحظين مسألة الزوايا التى لاحظها المخترع العربى، أما الأرقام التى يستعملها المشارقة، فهى أرقام هندية.

****

سقطات شنيعة

حكى الشيخ الصاوى فى حاشية الجلالين ـ عند الكلام على قوله تعالى فى سورة الكهف ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾(الكهف: ٢٤) ـ أقوال ابن عباس وغيره فى جواز استثناء بالمشيئة من اليمين إذا نسيه، والإتيان به ما دام فى المجلس أو بعد شهر، أو بعد سنة، أو متى ما تذكره، إلى غير هذا من الأقوال التى سردها هناك، وقال عقيبها ما نصه: وعامة المذاهب الأربعة على خلاف ذلك كله، فإن شرط حل الإيمان بالمشيئة أن تتصل، وأن يقصد بها حل اليمين، ولا يضر الفصل بتنفس أو سعال أو عطاس، ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية، فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مضل، وربما أداه ذلك إلى الكفر لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر أهـ.

وهذه سقطات كنا نربأ بالشيخ الصاوى العالم الفاضل أن يسقطها، لما نعهده فيه من ورع وتقوى وصلاح، لكن الكمال لله تعالى، والعصمة لأنبيائه عليهم السلام. ونحن نبين تلك السقطات، موضحين ما فيها من شفاعات:

أولاها: قوله: لا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، يقصد بعدم جواز تحريم تقليد غير الأربعة، ونحوه قول صاحب الجوهرة:

---

(١) كتب أخى السيد حسن ما نصه: وأول من طبقها البابا سليسترى الثانى سنة ٩٩٩م. بعد أن كان الأوربيون يستعملون الأرقام الرومانية الخالية من الصفر.

وواجب تقليد حبر منهم

يعنى الأربعة، ومن المعلوم بالضرورة: أمن الوجوب والتحريم من الأحكام الشرعية. وهى لا تنبث إلا بدليل شرعى من الكتاب أو السنة وبالضرورة ليس فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى الاجتماع وجوب تقليد الأربعة وتحريم تقليد ما عداهم .

ثانيتها: وهى أشنع من الأولى ـ قوله: ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية، وهذا إغراق عجيب فى التقليد !! يقتضى تعطيل الكتاب والسنة وأقوال الصحابة عن العمل والاحتجاج إلا فى حدود ما أخذ به الأربعة، كأن الله ورسوله فوضا إليهم فهم الكتاب والسنة، وحظراه حظراً باتاً على من سواهم .

ثالثتها: قوله: فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مضل .

والمعروف من قواعد الدين أن الضلال لا يكون إلا فى الخروج عن العقائد الصحيحة المأخوذة عن السلف الصالح، مثل الخوارج وغيرهم من الفرق الضالة التى ابتدعت عقائد زائفة، أنكرها عليهم الصحابة والتابعون، أما المخالفة فى الفروع فما كانت قط من الضلال، ولا تسمح القواعد الدينية بذلك، وقد كان الأوزاعى أمام أهل الشام يقلدونه، وانتقل مذهبه إلى الأندلس وظل معمول به بجانب الإمام مالك مدة من الزمن .

والإمام محمد بن جرير الطبرى كان له مذهب فى الفروع، واتباع يعرفون فى كتب العلم بالجريرية .

والإمام داود بن على الأصبهانى كان إمام مذهب أصل الظاهر، وظل مذهبه معمول به مدة من الزمن تزيد على ثلاثمائة سنة .

والإمام زيد ابن على إمام الزيدية، لا يزال مذهبه فى الفروع معمولاً به فى اليمن إلى وقتنا هذا، وقد ذكر جماعة من العلماء فى الطوائف الضالة لزيغ عقائدهم مع أنهم حنفية أو شافعية أو حنابلة، وحين اجتهد الإمام الشافعى، وأنشأ مذهبه اعتبره متعصبوا الحنفية والمالكية مبتدعاً لخروجه على ما ألفوه .

بل نجد أبا عبيد القاسم بن سلام ـ وهو مجتهد مستقل عن المذاهب الأربعة ـ يعرض بعض كتبه بالإمام الشافعى، ويعتبر بعض آرائه خارجة عن الإجماع .

رابعتها: وهو أشنع من سابقتها ـ قوله: وربما أداه ذلك للكفر ولا ريب أن اكفار

المسلم لعدم تقليده أحد المذاهب الأربعة أمر لا يقره الدين ولا تقبله قواعده. ولا يجوز أبداً بحال اعتقاد الضلال أو الكفر فى الأوزعية أو الجريرية أو الظاهرية أو الزيدية أو غيرهم .

وإن ضل أحد منهم، فضلاله يكون لزيغ عقيدته، كما قال الشافعى أو الحنبلى أو الحنفى لزيغ عقيدته سواء بسواء، وليس الإسلام مقصوراً على أهل المذاهب الأربعة .

خامستها: ـ وهى أشنع وأبشع ـ قوله: لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر

لقد كنا نود أن تصدر هذه الكلمة من غير الشيخ الصاوى الذى نعتقد صلاحه وفضله. ولعله كتبها ساهياً عن خطورتها، لأنه لا يمكن لمسلم عاقل ـ فضلا عن فاضل ـ أن يقول: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، عياذاً بالله من هذه الكلمة التى هى كفر صريح ممن قصد مدلولها وأجبر عليه، ونحن نبرئ الشيخ الصاوى من ذلك، ونعتبره صدورها منه خطأ غير مقصود، وإنما نهى العلماء عن التمسك بمتشابه الكتاب والسنة وعن الخوض، وأوجبوا تفويض علمه إلى الله تعالى، لأن حمله على ظاهره يؤدى إلى الكفر، ونحو قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾(طه: ٥) ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾(القصص: ٨٨) ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾(المائدة: ٦٤) ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾(طه: ٣٩) ونحو قوله ﷺ { إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد .... إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام بيده الميزان يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار حجابه النور لو كشفه لاحترقت سبحات وجهه ما أنتهى إليه من بصره من خلقه، إن الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار حتى تطلع الشمس من مغربها } .

وقد ذم الله تعالى المتتبعين للمتشابه، فقال سبحانه ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾(آل عمران: ٧) أما الأخذ بظواهر الكتاب والسنة فى التشريع والأخلاق والآداب والمواعظ فهو أصل الهدى والنور، ومجلبة للسعادة والسرور، وبعد فقد قدمنا أن الاجتهاد المطلق باق إلى قرب قيام الساعة وأن القيام به فرض كفاية على الأمة ويجب أن تعلم ـ مضافاً إلى ذلك ـ أن التقليد ليس بواجب، لا للأربعة ولا لغيرهم. وإنما يجب على العامى ـ بعد تصحيح عقيدته ـ أن يسأل فيما ينوبه

من الأحكام، من يكون من أهل العلم والورع، ويعمل بما يفتيه، ولا عليه أن يكون موافقاً لأحد المذاهب الأربعة أو لا، وإطباق المتأخرين على وجوب تقليد الأربعة، حتى قال قائلهم:

وجاز تقليد لغير الأربعة   فى غير افتاء وفى هذا سعة

دعوى لا دليل عليها وتضييق لا معنى له، وسماحة الشريعة الإسلامية لا توافق على ذلك .

****

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾(الرحمن: ٤٦)

قال الله تعالى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ ﴾ أى لكل واحد من الإنس والجن خاف ﴿ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أى قيامه بين يديه للحساب فترك معصيته ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أى يعطى إباحة التنقل بين جنتين لأنه حين خاف مقام ربه، وقاوم عدوين قويين: نفسه الأمارة بالسوء، والشيطان، وأبيح له التنقل بين جنتين، جزاء وفاقاً، وقد صرح بمقاومة النفس فى قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾(النازعات: ٤٠-٤١) وإنما صرح بها لإثبات خطرها وعظم تأثيرها، ولم يصرح بالشيطان. أما للعلم به، فقد حكى القرآن عنه أنه قال ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(ص: ٨٢-٨٣) وأما لأنه ممكن التخلص منه بالاستفادة وذكر الله مثلاً، بخلاف النفس فلا يمكن الخلاص منها، وقال هنا ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ لأن الجنة ذكرت هنا فى مقابلة الجحيم أول الآية ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾(النازعات: ٣٧-٣٩) ولأن الجنة مأوى الخائف لمقام ربه على كل حال، وإنما أبيح له التنقل بين جنتين للحكمة التى بيناها، ولهذا قال ﴿ وَلِمَنْ ﴾ فعبر باللام المفيدة للإباحة، والحاصل: أن الخائف لمقام ربه - مع كون الجنة مأواه - يكرم زيادة على ذلك بإباحة التنقل بينها وبين جنة ثانية، وليس معنى الإباحة الجواز المقابل للتحريم، فإنه لا تكليف ثم، ولكن أهل الجنة لا يبرحون أماكنهم، ولا يلهمون ذلك لرضاهم بما فيه من النعيم الذى لم تراه عين ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر .

أما الخائف لمقام ربه، فيلهم الرغبة فى التنقل بين جنته والجنة الثانية، فيعطى ذلك .

هذا ما ظهر لى فى معنى الآيتين الكريمتين، مما أرجع فيه إلى كتاب، والله الموفق والهادى .

بدعة المولد الحسينى

يعتقد كثير من الناس أن المولد الحسينى ابتدع فى عهد الفاطميين. أو بعده بقليل، والحقيقة أنه أنشأ منذ عهد قريب .

ذكر الجبرتى فى الجزء الرابع من تاريخه : أن هذا المولد أنشأ مباشر لوقف المسجد الحسينى، يسمى السيد البدوى بن فتيح، أصابه مرض، فنذر إن شفاه الله أن يقيم هذا المولد، وكان المولد أول الأمر هو إضاءة المسجد وقبته بالقناديل والشموع. وترتيب فقهاء يقرؤون القرآن نهاراً ويتدراسونه، وآخرين يقرأون ليلا دلائل الخيرات ثم تغير الحال، وانضم إلى الفقهاء كثير من الجهلة، وأهل البدعة، واستمر فى وصف ما يحصل منهم من المفكرات، وانتهاك حرمة المسجد وتوسيخه إلى أن قال (وكان يجتمع إلى هذا المولد، العامة والسوقة، وأهل الحرف السافلة، ومن لا يجد ما يأكله، يحملون القناديل والشموع والطبول والزمور، وينطقون بكلام محرف، يظنون أنه ذكر وتوسلات يثابون عليها. فإذا اعتراضهم معترض، أو تصدى لهم لائم، رموه بالإعتزال والخروج والزندقة) . واستمر الاحتفال بهذا المولد عشر سنين. وناذره السيد بدوى فتيح لم يزد إلا مرضاً ومقتاً. ثم بطلت إقامته عند دخول الفرنسيين للقاهرة، لكنهم لما علموا ذلك أمروا بإقامته لأنه يوافق هوى العامة، لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة، وتلك طبيعة الفرنساوية، ووصف ما يحصل أيضاً فى مولد السيدة زينب، والسيدة نفيسة، والإمام الشافعى .

والحقيقة أن هذه الموالد وغيرها التى تقام فى القطر المصرى للأولياء فى زعم العامة وأشباههم، هى مواسم لإقامة المنكرات والمآتم، يجب إبطالها ومحاربة من يسعون فى إقامتها بالتأديب اللائق بهم .

والسكوت عن هذه الموالد مدعاة إلى شيوع المنكر، وفساد الأخلاق بدعوى الاحتفال بأهل البيت والأولياء، والله يعلم أنهم يتبرءون من ذلك، ولا يقبلونه بحال من الأحوال. ومن يزعم أن وليا جاءه فى النوم، فدعاه إلى الاحتفال بمولده، يعتبر كاذباً. أو مخرفاً حيث يعتمد على رؤيا المنام. وما يدريه لعله الذى جاءه شيطان. وحتى لو فرض أنه ولى حقيقة. ما جاز العمل بكلامه، لأن الولى لو أمر فى اليقظة ببدعة أو معصية، لم يتبع إذ (**لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق**) ولكن سدنة الأضرحة وأشياعهم من المقرئين والخدمة، لهم فى هذا الباب أكاذيب وحيل، يستجلبون بها هدايا الزوار من نفائس الأقمشة والأطعمة والأموال

ثم يقتسمونه فيما بينهم، كما يفعل اللصوص حين يشتركون فى سرقة ثمينة، ولو علمت بعض الحيل التى يرتكبونها لابتزاز أموال الزائر وهو راضى مسرور، لتأكدت أنهم أبالسة فى صورة أناس !! وعلى هؤلاء وأشكالهم يصدق الحديث الذى رواه الترمذى والخطيب فى الكفاية من أسماء بنت عميس وفيه { بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين }، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

****

الشيخ / على البكرى

يوجد بقرب جامع الرويعى بجهة العتبة، زاوية فيها ضريح لشيخ يقال له: الشيخ على البكرى، يزار، ويعمل له مولد كل سنة، وأهل القاهرة يعتقدون أنه من السادة البكرية الذين ينتمون إلى أبى بكر الصديق ﷺ .

والحقيقة خلاف ذلك، فهذا الرجل لا علاقة له ببيت البكريين، وإنما قيل له البكرى، لسكنه فى سويقة البكرى، ثم هو لا علاقة له بعلم ولا بولاية، وإنما هو ـ كما يقول الجبرتى فى تاريخه ـ رجل أبله كان يمشى فى الطريق عرياناً مكشوف الرأس والسوأتين غالباً وكان له أخ كثير المنازعة والخصومة له، لكنه صاحب دهاء وحيلة، فلما رأى الناس يعتقدون فى أخيه الولاية، ويلتمسون بركته، استغل ذلك ومنع أخاه من مغادرة البيت، وألبسه ثياباً، وأظهر للناس أنه قد أذن للشيخ بلبس الثياب، لأنه تولى القطبانية، فأقبل الناس وخصوصاً النساء إلى بيت الشيخ، للتبرك به والإصغاء إلى كلامه الذى هو عبارة عن تخليطات يئولونها بما يلائم رغباتهم، وكثرت هدايا الزوار ونذورهم، وأخوه صاحب الدهاء والحيلة يذيع بين الناس كرامات الشيخ، ومعرفته بأسرار النفوس، وامتلأ بيت الشيخ وأخيه بالأموال والخيرات، واستمر الحال على ذلك حتى مات الشيخ سنة ١٢٠٧ فأقام أخوه ضريحاً ومقاماً، وزاد فى ذكر كراماته وفيوضاته، ورتب له المقرئين والمنشدين والمداحين يشيدون بولايته وقطبانيته، ويذكرون أوصافه فى قصائدهم، وهم يتواجدون ويتصارخون، ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به، ويضعونه فى جيوبهم وعبهم، وللأديب الشيخ / حسن البدرى الحجازى قصيدة فى هذا الشيخ مطلعها :-

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا   كل ذى جنة لدى الناس قطبا

انظر بقيتها فى تاريخ الجبرتى ، وكثير من الضواريح والمقامات فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية، مقامة على مثل الشيخ على البكرى الأبله الذى كان يمشى بادى العورة. أو على

مجاهيل، مثل سيدى الأربعين الذى له عدة ضواريح فى مصر، ومثله سيدى المخفى فى المغرب. والعجيب فى الأمر أن المتعلمين ينساقون مع العوام فى التمسك بهذه الخرفات، وذلك دليل على ضعف فى العقل ونقص فى الإدراك، وخلل فى الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

****

(لم اختص موسى باللحية فى الجنة)

سئلت عن الحكمة فى اختصاص موسى عليه السلام باللحية فى الجنة، دون سائر أهلها ؟

فأجبت بأن ذلك لم يرد به حديث صحيح[1] وإنما هو من الإسرائيليات . والحكمة فيه ـ مع ذلك ـ أن موسى عليه السلام لما ذهب إلى فرعون وأبلغه أنه رسول الله إليه، يأمره بتوحيده وعبادته . أمسك فرعون لحيته استصغارا له، وقال امتنانا عليه ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۞ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٨-١٩) فكانت لحيته أول شىء أهين فى الله . فجوزى ببقائها فى الجنة . وهذا كما اختص أيضا بأنه لا يصعق عند نفخة الصعق، لأنه جوزى بصعقته حين تجلى ربه للجبل، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾(الأعراف: ١٤٣) والله تعالى أعلم .

****

الأصل فى رقابة الأخبار الحربية

جاء فى كتب التفسير وغيرها: أن النبى ﷺ كان يبعث البعوث والسرايا للجهاد، فإذا غلبوا الكفار، أو غلبهم الكفار بادر المنافقون للاستخبار عن حالهم، ثم يتحدثون بذلك، ويشيعونه قبل أن يسمعوه من رسول الله ﷺ، ومن كبار الصحابة، وقصدهم بذلك افتتان ضعفاء المؤمنين بهزيمة المجاهدين، وتثبيط همتهم عن الخروج للجهاد. فأنزل الله تعالى فى ذلك ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ ﴾ أى بالنصر للمسلمين ﴿ أَوِ الْخَوْفِ ﴾ أى بهزيمتهم ﴿ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ افشوه، وبفشيه تبعاً لهم ضعفاء الإيمان، جهلا يقصد المنافقون ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ ﴾ أى خبر النصر أو الهزيمة ﴿ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ أى ذوى الرأى من أكابر الصحابة، أى سكتوا عنه حتى يخبرهم النبى وأكابر الصحابة ﴿ لَعَلِمَهُ ﴾ هل هو مما ينبغى أن يذاع به أو لا؟

---

(١) روى الطبرانى باسناد ضعيف عن ابن مسعود مرفوعا "أهل الجنة جرد مرد إلا موسى عليه السلام كان له لحية تضرب الى سرته " وقيل: ورد أيضا: أن لهارون لحية فى الجنة ولآدم ولإبراهيم ولأبى بكر الصديق، وكل ذلك لا أصل له .

﴿ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ ﴾ يتتبعونه، وهم المنافقون المذيعون ﴿ مِنْهُمْ ﴾(النساء: ٨٣) من الرسول وأولى الأمر ، فمنعت الآية أفشاء خبر الهزيمة والنصر أيضاً حتى يذيعه الرسول وأولى الأمر بعد تمحيصه، لأنه قد يكون فى نشر خبر النصر قبل ذلك ما يفيد العدو، وهذا هو الأصل فى وضع رقابة على الأخبار الحربية، ومنع نشر شىء منها إلا ما يجيزه المختصون من قواد الجيش، ورجال الحكومة، فالإسلام سبق إلى وضع هذا النظام كغيره من الأنظمة التى سبق إلى وضعها. والدول الأوربية لا تزال غارقة فى جهلها إذ ذاك .

* * * * * * * *

علم اليقين ـ عين اليقين ـ حق القين

علم اليقين: إدراك الشىء ببرهان. لكن من غير مشاهدة، كالعلم بأن الله واحد، وبإنصافه بصفات الكمال، ونحو ذلك من العقائد .

وعين اليقين: إدراك الشىء مع المشاهدة، كرؤية الجنة والنار وغيرهما من أمور الآخرة، قال الله تعالى ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾(التكاثر: ٥ـ٧) .

وحق اليقين: مشاهدة الشىء، مع ملامسته والامتزاج به، قال تعالى ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (الواقعة: ٩٥) وقيل حق اليقين هو الشىء الثابت فى نفسه سواء ألمس، أم لا ؟ كالجنة والنار ونحوهما، وهذا هو الصحيح، قال تعالى فى القرآن ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾(الحاقة: ٥١) أى أنه ثابت حق، ولو أنكره الكفار .

* * * * * * * *

أخفى الله تعالى أشياء لحكم سامية

قال العلماء: أخفى الله تعالى أمورا فى أمور، لحكم :

أخفى ليلة القدر فى ليالى رمضان لتقام لياليه كلها .

وأخفى الصلاة الوسطى فى الصلوات ليحافظ عليها جميعاً .

وأخفى ساعة الإجابة فى يوم الجمعة ليدعى فى جميعه .

وأخفى الاسم الأعظم فى أسمائه ليدعى بجميعها .

وأخفى رضاه فى طاعته ليحصل الحرص على فعل جميع الطاعات .

وأخفى غضبه فى معصيته لتجنب جميع المعاصى .

وأخفى الولى فى المؤمنين ليحسن الظن بجميعهم .

وأخفى أجل الإنسان ليكون على أهبة الاستعداد بعمل الخير .

وأخفى وقت قيام الساعة ليحصل الإشفاق منها، قال تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ** ﴾(الشورى:١٨) وقال بعض الفضلاء:

وكل أمرى تلقاه فالخضر اعتقد وكل ليالى الشهر فاعتقد ليلة القدر

وقوله فالخضر اعتقد: يعنى تحسين الظن بالمؤمنين. بحيث يعتقد ولايته بناء على ما اشتهر من ولاية الخضر، ولكنا قدمنا أدلة نبؤته وهو الصحيح، هذه مواضع ذكرها العلماء، يضاف إليها عاشر وهو:

أن الله أخفى نفحاته فى أيام المواسم، مثل عاشوراء، ونصف شعبان، وعرفة، ليتعرض لها بالعبادة والدعاء لحديث { إن لربكم فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لنفحات رحمة ربكم وسلوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم } وحسن الظن بالمؤمن ليس على إطلاقه فقد يستدعى الحال سوء الظن، كما فى بابى الرواية والشهادة، وغيرها مما يجب فيه الحذر والتثبت، ويعد حسن الظن حينئذ تقصيراً معيباً .

****

مناقشة الجلال المحلى فى مسائل من تفسيره

قال تعالى ـ فى سورة القمر ـ ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ** ﴾(القمر:٣٣-٣٤) .

قال الجلال المحلى فى تفسير هذه الآية ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً** ﴾ ريحاً ترميهم بالحصباء وهى صغار الحجارة، الواحد دون ملء الكف. فهلكوا ﴿ **إِلَّا آلَ لُوطٍ** ﴾ وهم ابنتاه معه ﴿ **نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ** ﴾ من الأسحار. أى وقت الصبح من يوم غير معين. ولو أريد من يوم معين لمنع الصرف. لأنه معرفة معدول عن السحر. لأن حقه أن يستعمل فى المعرفة

بأل، وهل أرسل الحاصب على آل لوط أولا قولان، وفيه مناقشتان:

إحداهما: تفسيره سحر بوقت الصبح، ومعناه فى اللغة آخر الليل قبل الصبح، وهو المراد هنا. فإن لوطاً عليه السلام خرج بابنتيه ليلا بدليل قوله تعالى ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾(الحجر:٦٥) وهذا معنى إنجائهم.

ثانيتهما: قوله: وهل أرسل الحاصب على آل لوط أو لا ؟ قولان: وليس لدى الآن من التفاسير غير الجلالين، فلا أعرف على التعيين من قال من المفسرين بإرسال الحاصب على آل لوط ولكنى أعرف المحقق المحلى وهم فى حكاية هذا الخلاف. وأنه لو تأمل قليلا لأدرك أنه خلاف لا يصح، لأن لوطا عليه السلام خرج بآله قبل الصبح. والعذاب إنما أنزل بقومه عند شروق الشمس، قال تعالى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ وقت الشروق ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر:٧٣-٧٥) فكيف يقال بإرسال الحاصب على آله لوط، وهم قد بارحوا البلد قبل إرساله بعدة ساعات ؟! ثم قال الجلال المحلى: وعبر عن الاستثناء على الأول بأنه متصل وعلى الثانى بأنه منقطع - وإن كان من الجنس - تسمحاً . أنتهى .

يعنى أن كون الاستثناء منقطعاً فيه تجوز، لأن آل لوط من جنس قومه، سواء أقيل بإرسال الحاصب على الجميع ؟! أم على غير آل لوط ؟ فالاستثناء متصل فى الحقيقة، هذا إيضاح كلامه. وقد علمت مما سبق أن الخلاف لاوجه له لعدم إرسال الحاصب على آل لوط وأما الاستثناء فيمكن جعله منقطعاً بلا تجوز، وذلك بأن يراد بالجنس هنا جنس المهلكين. أو الظالمين. بدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (العنكبوت:٣١) وآل لوط لم يكونوا من المهلكين. ولا من الظالمين. فيكون الاستثناء منقطعاً حقيقة بهذا الاعتبار، وهو واضح لا غبار عليه. ويمكن اعتبار ﴿ إلاَّ ﴾ اسماً بمعنى غير. وهى منصوبة على الحال من الضمير فى ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ لكن ظهر أعرابها فيما بعدها. لكونها على صورة الحرف، والتقدير ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾حال كونهم غير أن آل لوط. وجملة ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً. كأن سائلا سأل: ماذا حصل لهم. فقيل ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ وهذا وجه جيد صحيح والحمد لله .

ومما وهم فيه الجلال المحلى أيضاً. قوله: فى تفسير قوله تعالى فى آخر سورة الروم ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾(الروم:٥٨) ما نصه: حذف منه

نون الدفع لتوالى النونات والواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين، أهـ .

ومن الواضح أن الفعل هنا مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله الذين كفروا، وفى الألفية:

وجود الفعل إذا ما أسندا لأثنين أو جمع كفاز الشهدا

ومما سها فيه: أنه كتب فى سورة طه ـ على قوله موسى لأهله ـ ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً ﴾(طه: ١٠) ما نصه: وقال لعل. لعدم الجزم بوفاء الوعد، ونسى أن يعلل تعبيره بالسين فى سورة النحل، حيث قال ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾(القصص: ٢٩) ومعنى السين يغاير معنى لعل، كما هو معلوم، ولم تتبين لى حكمة هذه المخالفة فى التعبير، إلا أن يقال: أنه لما رأى النار. قال لأول وهلة ﴿ سَآتِيكُمْ ﴾. وحين عزم على الذهاب إليها ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ هنا ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فعبر بـ لعل كما فى سورتى طه والقصص، ليكون أهله ـ وهم فى انتظاره ـ متوكلين على الله تعالى، واثقين بالفرج من جهته، ولأجل أنه ترجى ـ ولم يجزم ـ أن يجد على النار هدى إلى الطريق، حقق الله رجاءه، ومنحه الهدى الكامل، هدى الرسالة له ولأخيه هارون عليهما السلام، هذا ما ظهر لى من الحكمة فى هذه الآيات، والله أعلم بسر كلامه .

ومما غفل عنه: أنه لم يذكر معنى ﴿ أَكَادُ ﴾ من قوله تعالى ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾(طه: ١٥) ـ أى أريد أخفيها ـ وهى غفلة لا تليق منه. لأن كثيراً من الناس لا يعرفون معناه، وأن كان واضحاً عنده، فهو مجهول الجمهور قراء تفسيره، وفائدة التفسير أن يبين معانى مفرادات القرآن ثم تراكيبه .

ومما سها فيه: انه فسر الآية من سورة الفرقان، فقال ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ ﴾ المشرك عقبة بن أبى معيط. كان نطقه بالشهادتين ثم رجع إرضاء لأبى بن خلف ﴿ عَلَى يَدَيْهِ ﴾(الفرقان: ٢٧) ندماً وتحسراً فى يوم القيامة أهـ . فوضع عقبة موضع أبى. والثابت عن ابن عباس وغيره أن أبياً كان يحضر النبى ﷺ فيزجره صديقه عقبة، وأنه صنع طعاماً فدعا الناس، ودعا النبى ﷺ، فلما حضر الطعام. قال له النبى ﷺ {ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله} فشهد. فأكل النبى ﷺ من طعامه، فعلم عقبة، فقال له: صبأت؟ قال أبى: لا ولكن دخل على رجل. وأبى أن يأكل من طعامى إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم، فشهدت

له، فطعم، فقال له عقبة: ما أنا براض عنك حتى تكفر بمحمد وتشتمه، ففعل أبى ونزلت الآية .

هذه خلاصة ما فى كتب التفسير والسيرة، وفيها أن عقبة أسر يوم بدر، فقتله على عليه السلام صبرا، بأمر النبى ﷺ، وأن أبياً هجم يوم أحد على النبى ﷺ وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، والنبى ﷺ راجل، وأبى راكب، فأراد بعض الصحابة أن يتعرض له فقال: {دعوه} فلما قرب منه، خطف النبى ﷺ حربة من يد صحابى وانتفض انتفاضة أفزعت الصحابة من حوله، ووثب فضربه فى عنقه ضربة تراجع لها، وهو على ظهر بعيره، ثم تماسك، وقفل راجعاً وهو يخور خوار الثور، فقال له أصحابه: ما نرى بك بأسا فقال: والله لو بصق على لقتلنى، أليس قد قال لى: { لئن رأيتك خارج مكة لأقتلنك } وهلك وهو راجع إلى مكة، قبل أن يصل إليها، وقد بينت فى الفتاوى جواباً عن سؤال ورد إلى فى هذه الآية، أنها ـ وإن كانت قد نزلت فى أبى وعقبة ـ فلفظ الظالم فيها عام، ويشمل أهل المعاصى، فكل صديق ساعد صديقه على معصية، يندم يوم القيامة، ويتمنى لو لم يكن اتخذه صديقاً فى الدنيا ويعاديه إذ ذاك، ويتبرأ منه، قال الله تعالى ((الْأَخِلَّاءُ)) على المعصية فى الدنيا ((يَوْمَئِذٍ)) يوم القيامة ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾(الزخرف:٦٧) الذين كانوا فى الدنيا اخلاء فى الطاعة يكونون فى الآخرة أيضاً اخلاء متصادقين، وسفهاء اليوم يعتبرون الصداقة بمقدار ما يقدم الصديق لصديقه من عون على المعصية أو مشاركة فيها، فكلما قدم له عوناً فى معصية، أو مشاركة فيها كشرب الخمر أو لعب قماراً، أو شهادة زور، أو ما يشبه ذلك، اشتدت صداقتيهما وتأكدت روابط المحبة بينهما، وهذا خلاف ما جاء فى القرآن والأمر لله .

****

معنى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر

قال الله تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾(الفتح:١-٢). قال الجلال المحلى: هو مؤول، لعصمة الأنبياء بالدليل العقلى القاطع، من الذنوب، وقد ذكر القاضى عياض فى " الشفاء " وجوهاً من التأويل فى هذه الآية، كما ذكرها غيره من المفسرين، واستخلصت من بعض الوجوه التى ذكروها وجهاً لعله يكون أقرب وأسهل، وحاصله: أن الغفر معناه السر، والسر نوعان:

١ ـ سر بين العبد وبين وقوع الذنب وهذا يوافق معنى العصمة، لأنها صفة تحول بين النبى وبين المعصية مع بقاء الاختيار .

٢ ـ سر بين العاصى وبين العقاب على ذنبه، فمعنى قول القائل: اللهم أغفر لى: اللهم

استر بينى وبين العقاب على ذنوبى، فلا تؤاخذنى بها، والمراد بالمغفرة هنا: العصمة، لتقارب معناهما كما تبين، وإنما أوثر التعبير بها لأن المقام مقام امتنان، ثم المعنى بعد هذا: ليظهر الله عصمتك للناس، فيروا فيك حقيقة الإنسان الكامل، ويلمسوا منك معنى الرحمة العامة لا تبطرك عزة الفتح، ولا تسكرك نشوة النصر فلا تنتقم، ولا تتشفى، ولكن تعفو وتغفر .

ولهذا دخل ﷺ مكة يوم الفتح مطأطئا رأسه حتى كاد يمس مقدمة رحله، وهو راكب على بعيره، تواضعاً لله تعالى، وأمر منادياً ينادى فى أهل مكة: { من أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن} وأبو سفيان كان من أكبر أعدائه، وبعد انتهائه من شعائر الطواف والسعى، جيء إليه بالأسارى، يجللهم خزى الهزيمة وتعلوهم ذلة الأسر، وقد كانوا لغاية الأمس القريب، جاهدين - ما وسعتهم القدرة - فى قتله عطف ورثاء وشفقة ثم قال لهم { ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ } قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم . فقال { اذهبوا فأنتم الطلقاء } فقال: { أقول كما قال أخى يوسف ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾(يوسف:٩٢) أذهبوا فأنتم الطلقاء } .

وهذا موقف رائع فى سمو الخلق، وكرم التحيزة . لا يصدر إلا من كان عظيم الحلم، رحب الصدر يتسع قلبه لمواساة جراح الإنسانية، وعلاج أدوائها . مسدداً بالتوفيق، مؤيدا بالعصمة . وصدق الله حيث يقول لنبيه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(القلم:٤) .

أما قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾(الشرح:٣) فجملة: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ تحتمل أيضا وجوها من التأويل، كلها صحيحة مليحة . نقتصر هنا على وجهين منها، طلبا للإيجاز:

أحدهما: أن الوزر معناه فى اللغة: (الحمل الذى يثقل الظهر) ومنه سمى الذنب وزرا، لأنه يثقل العاصى بالعذاب يوم القيامة، وعلى هذا فمعناه هنا: ثقل عبء النبوة والتبليغ . لأن النبى ﷺحين نبئ كان الوحى عليه شديدا، حتى خاف على نفسه الهلاك . فأخذت خديجة ﵂ تعضده وتشد على أزره، ثم لما أمر بالتبليغ، زاد الأمر شدة لما لاقاه من إذاية القريب والبعيد له ولأصحابه، وهذه أثقال تثقل الظهر، وتنوء بها قوة الإنسان، فوضعها الله عنه ووفقه للقيام بما كلف به على خير ما يرام .

ثانيهما: أن الوزر إن كان معناه الذنب فالمراد بالوضع العصمة، وإنما عبر عنها به، لأن الذنب يثقل الظهر بعقابه، وبالندم عليه فى حالة التوبة منه، والعصمة - لكونها تمنع

وقوع الذنب ـ تريح صاحبها من ثقل عقابه. من ثقل الندم عليه. فعبر عنها بالوضع لذلك هذان الوجهان فى غاية الوضوح، وبالله التوفيق .

وقوله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾(الضحى: ٧) ليس المراد بالضلال فيه: الانحراف عن الحق لوجوه:

الأول: أنه قبل النبوة لم يكن شرع قائماً، فيوصف المنحرف عنه بالضلال .

الثانى: ما ثبت بالدليل العقلى القاطع على عصمة الأنبياء قبل النبوة من الضلال .

الثالث: ما ثبت بالتواتر عن حال النبى ﷺ فى نشأته. من أنه نشأ على بغض الأوثان والشعر، وبغض ما كان عليه قومه من عادات الجاهلية. وأنه كان يختلى بنفسه. يتفكر فى آيات الله الكونية. وبدائع صنعه، ويتألم لما يرى عليه قومه من وثنية وجهالة، ويحب لهم الخير والرشاد، ولا يدرى كيف يرشدهم ؟ إذن فمعنى الضلال: أما التحير، والمعنى: ووجدك متحيراً لا تدرى كيف تخلص قومك من شركهم وقبائحهم، فهداك بالوحى إلى طريق تخليصهم، وأما الحب مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾(يوسف: ٩٥) أى حبك القديم ليوسف .

والمعنى على هذا: ووجدك محباً للحق، فهداك إلى إعلانه، والدعوة إليه، وبقيت وجوه أخرى من التأويل، تراجع فى كتب الشفاء، وكتب التفسير. وليس شىء منها عندى الآن سوى حاشية الصاوى على تفسير الجلالين .

* * * * * * * *

للمرأة حق اختيار الزوج

فى مذهب المالكية: أن للأب أن يجبر أبنته البكر على الزواج بالرجل الذى يختاره لها. ولكن الأحاديث تفيد خلاف ذلك .

ففى المسند وسنن النسائى عن بريدة ﷺ قال: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبى زوجنى من ابن أخته، ليرفع بى خسيسته، قال: فجعل الأمر إليها، فقالت: قد أجزت ما صنع أبى، ولكن أردت أن أعلم النساء: أن ليس إلى الأباء من الأمر شىء. فهذا الحديث يفيد أن الأب ليس له أجبار بنته على قبول زوج لا تحبه، ولها الحق فى رفضه زوجاً لها، وهذا ما يؤيده النظر الصحيح. لأن المفروض فى الزواج أنه عشرة دائمة لتكوين أسرة. وإنجاب أولاد، وتنشئة جيل. ولا يكون ذلك إلا بنماذج من الزوجين وتوافق بينهما. وتلاقى رغبتيهما. فإذا

زوجت البنت بشخص لا تقبله، فُقد النماذج المطلوب لدوام العشرة، وانهدت بناء الأسرة قبل تمام تكوينها، ولم تتحقق الحكمة المذكورة فى قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾(الروم:٢١) فلهذا أعطى الشرع للبنت حق اختيار الزوج الذى تعاشره، ويسكن هو إليها. وجعل الخلع طريق لخلاصها من زوجها الذى لم يحصل بينه وبينها وفاق بعد زواجهما. صح فى الحديث: أن امرأة جاءت للنبى ﷺ فقالت: يا رسول الله زوجى ـ وكان من خيار الصحابة ـ لا أعيب عليه فى خلق ولا دين. ولكن لا أحبه، قال ﷺ { أتردين عليه حديقته } قالت: نعم، فبعث ﷺ إلى زوجها فقال له: { خذ حديقتك وفارقها } بل ذهب الشرع إلى أبعد من هذا، فجعل للأمَة المملوكة المتزوجة حق مفارقة زوجها، إذا هى عتقت ونالت حريتها، فقد كانت بريرة أمَة متزوجة، ثم اشترتها عائشة ﵂ وأعتقتها فاختارت فراق زوجها وكانت تكرهه، وهو يحبها. فكان يمشى خلفها فى طرق المدينة يبكى ويطلب منها أن ترجع إليه ؛ فقال لها النبى ﷺ { اتقى الله فأنه زوجك } قالت: أتأمرنى؟ قال { لا، إنما أنا شافع } قالت: لا حاجة لى به .

****

غلط فى فهم حديث

قال رسول الله ﷺ { البكر تستأمر } أى تستشار بأن يطلب رأيها فى الشخص الذى يخطبها، ولما كانت البنت شديدة الحياء، ولا سيما فيما يتعلق بأمر الزوج، قال { وأذنها صماتها } فاكتفى بالسكوت منها ولم يكلفها التصريح. لأن السكوت علامة الرضا، وأما المرأة التى سبق لها الزواج وطلقت أو توفى زوجها. فإنها تصرح برأيها، لأنها عرفت الزواج، وذهب عنها حياء البكر .

فلهذا قال: { والثيب تعرب } تفصح { عن نفسها } فتقول: أرضى بهذا الخاطب أو لا أرضى به. والحنفية فهموا الجملة الأخيرة على معنى أن الثيب تعرب عن نفسها بعقد الزواج، وبنوا على هذا الفهم أن المرأة الرشيدة يصح أن تعقد على نفسها عقد الزواج من غير حاجة إلى ولى فكان قولهم غلطاً مبنياً على غلط. لأن معنى: { والثيب تعرب عن نفسها } هو ما بيناه. لا ما فهموه، والدليل عليه أمران:

إحداهما: أنه ذكر فى مقابلة قوله فى البكر { وإذنها صماتها } .

ثانيهما: قوله ﷺ فى حديث عائشة ﵂ { لا نكاح إلا بولى وشاهدى عدلا } فجملة

لا نكاح، من أقوى صيغ العموم، والمعنى لا نكاح يصح لامرأة بكر أو ثيباً، رشيدة إلا بولى، وخير ما فسر بالوارد، أما قولهم بصحة عقد المرأة على نفسها، فبيان غلطه من وجهين أيضاً:

أحدهما: أنه مبنى على فهمهم فى الحديث، وقد تبين أنه غلط، فما بنى عليه يكون غلط .

ثانيهما: أنه لا يجوز من جهة العرف، ولا من جهة الذوق أن تتولى المرأة عقداً يكون المقصود به الاستمتاع بها، ولعلهم لم يقرءوا المثل العربى: إليك يساق الحديث[1] بل الواجب أن تبقى المرأة بعيدة عن هذا العقد فهو أصون لكرامتها، وأدعى لرغبة الزوج فيها، وأمكن لتعزيز مركزها فى عائلتها والوسط المحيط بها .

وهذا هو ما قصد إليه الشرع الحكيم حين جعل عقد النكاح إلى وليها، فإن لم يكن لها ولى، أو كان لها أولياء، واختلفوا أنهم يعقد عليها ؟ أو عضلوها، عقد عليها القاضى، أوغيره ممن يتولى أمور المسلمين، كما جاء فى بقية الحديث السابق { فإن اشتجروا - أى اختلفوا - فالسلطان ولى من لا ولى له } فإن لم يكن سلطان، تولى العقد عليها أحد صلحاء المسلمين من أهل حيها، والمسلمون أخوة، يقوم بعضهم بمصالح بعض، والله الموفق .

* * * * * * * *

قاعدتان أصوليتان

حكى عن الإمام الشافعى ﷺ أنه قال: حكاية الحال، إذا طرقها الاحتمال كساها ثوب الإجمال، وسقط بها الاستدلال .

وحكى عنه أيضاً: أنه قال: ترك الاستفصال فى حكاية المجال، مع قيام الاحتمال، ينزل منزلة العموم فى المقال .

يبدو لأول وهلة أن هاتين القاعدتين تناقضا، لكن عند تدقيق النظر، يظهر توافقهما، وعدم تناقضهما، ذلك أن الاحتمال إما أن يكون لفظ حكاية الحال نفسه، نحو قول الصحابى: سها رسول الله ﷺ فسجد. لفظ: سها، يحتمل السهو بالزيادة وبالنقص، ولفظ سجد يحتمل السجود قبل السلام وبعده، وحيث لم يعين الراوى أحد الاحتمالين، فى كلا

(١) أصل المثل: ما ذكره المفضل بن سلمة فى كتاب الفاخر قال: زعموا أن رجلا ذهب يخطب امرأة، فلما تكلمت أنعظ، وجعل كلما تكلمت يزداد انعاظا، وهو يستحى ممن حضر من أهلها فوضع يده على ذكره وقال: وقال: إليك بساق الحديث، فذهبت مثلا .

اللفظين، صارا مجملين، وسقط بهما الاستدلال، وهذا معنى القاعدة الأولى .

وإما أن يكون الاحتمال فى متعلق من متعلقات لفظ حكاية الحال، بأن يكون عارضاً من عوارضه، نحو قول ابن عمر: أسلم غيلانى الثقفى وله عشرة نسوة فى الجاهلية فأسلمن معه، فأمره النبى ﷺ أن يمسك منهن أربعاً، فلفظ الحكاية هنا واضح فى أن غيلانى أسلم وهو متزوج بعشر نسوة، لكنه مع ذلك احتمل أن يكون تزوج بهن فى وقت واحد، أو فى أوقات متتابعة .

وحيث لم يستفصل منه النبى ﷺ عن ذلك، وأمره بإمساك أربع منهن، كان تعميماً للحكم فى الحالتين .

وهذا معنى القاعدة الثانية: ويؤخذ من الحديث رد مذهب الحنفية، حيث قالوا ـ فى الكافر يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة ـ إن كان تزوجهن فى أوقات متتابعة، لزمه أن يختار الأربع الأول، لأن زواجهن صحيح ـ ويفارقه البقية، لأن عقد الزواج عليهن كان باطلا .

****

فوائد طاعة الله تعالى

طاعة الله سبحانه، ولزوم تقواه، تؤل بالمسلم إلى الخلود فى الجنة، كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(النساء:١٣) وقد تكرر هذا فى عدة آيات من القرآن الكريم، نظراً لأنه المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، لكنه لا يقتضى نفى فوائد أخرى، تعود على المسلم فى حياته الدنيوية بالنفع العام له ولإخوانه المسلمين المتقين، أشار إليها القرآن العظيم فى مواضع:

منها: تعليم العلم النافع، قال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ﴾(البقرة:٢٨٢) عطف جملة التعليم على جملة التقوى، من عطف المسبب على السبب، فالتقوى سبب فى الحصول على العلم، وهذا يشمل وجهين:

أحدهما: أن طالب العلم إذا اتقى الله وأطاعه، فتح الله له أبواب العلم، وسهل له ما صعب منه . وإلى هذا أشار الأمام الشافعى بقوله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وقال نبىّ أن العلم نور ... ونور الله لا يُهدى لعاصى

وليس هذا خاصاً بالعلوم الدينية، بل طالب العلوم الدنيوية كالطب والهندسة مثلاً. إذا لزم التقوى والطاعة فتح الله له من هذه العلوم أبوابها، وسهل له أسبابها، على أننا قدمنا أن تعلم العلوم الدنيوية، والصناعات النافعة فرض كفاية فينبغى لطالب شيء منها: أن ينوى القيام بهذا الفرض، ليكون مثاباً فى طلبه، قائماً بالعبادة وهو مشتغل بعلمه أو صناعته .

ثانيهما: أن العالم الدينى إذا عمل بعلمه. أعطاه الله علوماً وهبيه بطريقة الإلهام، ولذا قال الإمام مالك: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، وكثير من الناس يعتقدون هذا الكلام حديثاً نبوياً، وليس كذلك لكنه صحيح المعنى، صدقته التجربة المتكررة، فلا يحصى عدد العلماء العاملين الذين ألهمهم الله علوما وهبية، ومعارف ذوقية، وإشارات قدسية، ومواهب فتحية، ظهرت فيما تركوه من الآراء، والمؤلفات الكثيرة .

ومنها: إيجاد مخرج من الضيق والكرب، وإتيان الرزق من حيث لا يخطر على البال، قال تعالى ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾(الطلاق: ٢-٣) .

فالتقوى سبب تفريج ما يعرض للمتقى من ضيق وكرب، وسبب فى تيسير أسباب الرزق له، بحيث لا يشعر كيف تتأتى أسبابه، وتنقاد له صعابه، بل قد يأتيه الرزق من غير أن يسعى إليه، أو يشد رحال العزم للحصول عليه .

ومنها: تيسير الأمور له فى جميع شئون حياته، قال تعالى ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً** ﴾(الطلاق: ٤) فأمور المتقى ميسرة، ومصالحه مسهلة، غير متعسرة .

ومنها: إصلاح حاله، قال تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ** ﴾ وهؤلاء هم المتقون ﴿ **كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** ﴾(محمد: ٢) أى حالهم، فصلاح حال المجتمع الإسلامى متوقف على تقوى أفراده، كما أعادته الآية الكريمة .

ومنها: الاستخلاف والتمكين واستقرار الأمن بعد الخوف، قال الله تعالى ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ من بنى إسرائيل، بدلاً عن الجبارين ﴿ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** ﴾ وهو الإسلام، بأن يظهره على الأديان ويوسع لهم فى البلاد فيملكوها كما حصل للصحابة من الفتوحات العظيمة ﴿ **وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً** ﴾(النور: ٥٥) فالله تعالى يجزى المتقين فى الدنيا بتعليمهم، وتفريج كربهم، وإيصال الرزق إليهم من حيث لا يحتسبون، وتيسير أمورهم، وصرح حالهم، واستخلافهم وتأمينهم بعد الخوف، وفى الآخرة بالخلود فى

الجنة وهو الفوز العظيم، فإن لم تكن التقوى واجبة على المسلم لصلاح دينه وأخرته فهى واجبة عليه لصلاح دنياه ومعيشته .

نكتة فى فهم آية

قد يقع السؤال عن قول الله تعالى - فى سورة يونس - ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ** ﴾(يونس: ٤٢-٤٣) فيقال: لم أسند فعل الاستماع إلى ضمير الجمع؟ وفعل النظر إلى ضمير المفرد؟ .

وجواب النحويين فى مثل هذا أن يقولوا: روعى فى الجمع معنى من، وفى الأفراد لفظها، وهذا لا يكفى هنا، إذ يقال: ما الحكمة فى مراعاة معنى من الفعل الأول؟ ولفظها فى الثانى ؟ والجواب الكافى: أن الاستماع يحصل من المبصر والأعمى، ومع حجاب كجدار مثلا، وبدونه، فجمع فعله بالنظر لحالاته المتعددة بخلاف النظر، فإنه لا يحصل إلا فى حالة واحدة وهى أن يكون الناظر فى مواجهة المنظور إليه، فلم يجتمع فعله نظراً للحالة المذكورة، وهذا مما فتح الله به علي، وألهمنيه، وله الحمد والمنة .

نكتة فى فهم آية

سئلت عن قوله تعالى فى سورة النحل ﴿ **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ** ﴾(النحل:٢٦) لم قيل: من فوقهم ؟ مع أن السقف لا يكون إلا من جهة الفوقه ؟ وهل هذه العبارة لمجرد التأكيد ؟

والجواب: أنها ليست للتأكيد كما يتبادر إلى الوهم، لكنها جاءت لإفادة معنى لا يفهم إلا بذكرها، إذ لو قيل: فخر عليهم السقف لاحتمل أن يكون بعضهم نجا أو كثير منهم، فلما قيل: من فوقهم، تبين أنهم هلكوا جميعاً تحته، ولم يستطع أحد منهم الإفلات، وهذا هو المقصود من الآية فإنها جاءت لبيان إهلاك الله للكفار، وإفساد ما أبرموه من المكر برسله[1] .

---

(١) وقوله تعالى في السورة نفسها ((**يخافون ربهم من فوقهم**)) المراد بالفوقية فى هذه الآية، والله أعلم - الإشارة إلى قهره وعلوه: كما قال تعالى ((**وهو القاهر فوق عباده**)) فليست الفوقية حسية. ولكنها معنوية مثلها فى قوله تعالى حكاية عن فرعون ((**وأنا فوقهم قاهرون**)) وبالضرورة لم يكن فرعون وقومه فوق أكتاف بنى إسرائيل ولا على رؤوسهم، وإنما المعنى الذى يقصده فرعون بعبارته: أنه يتحكم فى بنى إسرائيل ويملكهم بسلطته وجبروته، بحيث يستخدمهم فيما يريد من غير معارضة، وهذا الاستعمال الشائع فى معظم لغات العالم، لا تكاد لغة تخلوا منه، والسائل عن الآية صديقنا

كتاب فى الشعر الجاهلى

ألف هذا الكتاب الدكتور / طه حسين، وذكر فيه كفريات صريحة منه: إنكار إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام، وزعمه أنهما شخصيتان وهميتان، لا حقيقة لهما فى التاريخ، وإن القرآن لا يكفى دليلاً على وجودهما وقد رد عليه كثير من العلماء وحوكم إلى القضاء، وكانت محاكمته مهزلة، بسبب السياسة التى تدخلت فى الموضوع .

وخرجت المسألة عن كونها غير دينية وحمية إسلامية، إلى تنازع بين حزب الأحرار الذى كان يؤيد المؤلف ويعطف عليه، وبين حزب الوفد الذى كان يخاصمه ويحقد عليه، والحقيقة أن هذا الكتاب الذى أرتد به عن دين الإسلام، واستوجب غضب الله عليه، ليس من تأليفه، وإنما هو نسخة من كتاب: كلمة فى الإسلام، للمبشر الإنجليزى جرجس سال، وقد ترجمه إلى العربية شخص مجهول يسمى: هاشم العربى، ورجح بعضهم أن مترجمه الحقيقى هو الأديب نصيف اليازنجى المسيحى المعروف .

والعجيب أن طه حسين كتب بعد هذا، فى مواضيع دينية، مثل: على هامش السيرة كأنه يتملق المسلمين !! أو يضحك على عقولهم !! ولكن الله ليس بغافل عنه، قد يقال: أنه تاب عما كان فى ذلك الكتاب، وإن كان كذلك، فلم لم يعلن توبته ؟ كما أعلن ردته ! ولنسلم أنه تاب سراً بينه وبين الله تعالى، فما باله قال فى كتابه " فى الصيف " وقد ألفه بعد الكتاب الأول بمدة: يجب أن ينقد القرآن كأى كتاب أدبى ؟! وهل هذه الكلمة تصدر من مؤمن يعتقد أن القرآن كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ الحقيقة أن الأدباء الملحدين، وجدوا الكتابة الدينية تجارة رابحة، درت عليهم أموالاً كثيرة وافرة، فلذلك أقبلوا عليها واتجهوا بكليتهم إليها، وحصلوا على ما طلبوا من المال، ولم تخطر التوبة لهم على بال .

****

الإسلام وأصول الحكم

هذا اسم كتاب ألفه الشيخ / على عبد الرازق الذى كان قاضياً شرعياً، ثم وزير للأوقاف ـ وقد أنكر فيه أن تكون الخلافة أو القضاء من الوظائف الدينية، وزعم أن الدين لا يعرفهما

يتحكم فى بنى إسرائيل ويملكهم بسلطته وجبروته، بحيث يستخدمهم فيما يريد من غير معارضة، وهذا الاستعمال الشائع فى معظم لغات العالم، لا تكاد لغة تخلوا منه، والسائل عن الآية صديقنا الفاضل / على حسن خميس التونسى .

ولا ينكرهما، ولا أمر بهما، ولا نهى عنهما، وهذا خطأ كبير، وتوصل إليه بمغالطة فى الاستدلال، وتحوير فى النصوص مع كونه خرقاً لإجماع العلماء، لكنه لا يستحق تلك الضجة التى أثارها عليه الأزهر ووصموه بالإلحاد، وألفوا لمحاكمته لجنة من هيئة كبار العلماء فحكموا بتجريده من شهادته العلمية، ومن لقب صاحب الفضيلة الذى يمنح لحاملها، ولم تكن ضجتهم خالصة للعلم والدين بل كانت مجاراة للملك فؤاد الذى كان يطمع أن يكون خليفة للمسلمين، وعمل مؤتمر للخلافة،عقد بالقاهرة تحت إشراف شيخ الأزهر، فغضب من هذا الكتاب الذى اعتبره عقبة فى طريقه، ولما علم أن المرحوم / محمد الخضر حسين التونسى رد عليه أمر بأن يطبع الرد على نفقته الخاصة الملكية وبأن يعطى للشيخ شهادة العالمية الأزهرية، والشيخ / على عبد الرازق أراد بكتابة المذكرة اغتصاب الملك فؤاد الذى جار على عائلته بشراء أرض زراعية مجاورة لأرضهم، كانوا هم أحق بها، ثم مات فؤاد، وتطور الزمان، ومنح فاروق للشيخ / على رتبة باشا، وعين وزيراً للأوقاف، ودعا الشيخ / المراغى الذى كان شيخاً للأزهر إلى اجتماع كبار العلماء، لرد شهادة العالمية إليه، ووافق معظم الأعضاء إلا الشيخ / الدجوى، فإنه عارض بشدة، وكان مما قاله: نحن سحبنا الشهادة لأجل الكتاب الذى ألفه، فلا يجوز أن نردها إليه إلا بعد أن ينقض كتابه، أو يعلن رجوعه عنه، وألح عليه بعض الأعضاء ليوافق، منهم الشيخ / الزنكلونى، لكنه أصر على موقفه، فاقترح الشيخ / اللبان إرجاء البت فى الموضوع إلى اجتماع أخر، وأنفض المجلس على هذا الاقتراح .

****

زواج المسلم بالكتابية

سئلت غير مرة عن الحكمة فى إباحة زواج المسلم بالكتابية، وحرمة زواج المسلمة بالكتابى؟

والجواب: أن المسلمين يؤمنون بجميع الأنبياء الذين منهم موسى وعيسى، ويؤمنون بكتب الله المنزلة كلها؛ لكن الكتابيين - وهم اليهود والنصارى - لا يؤمنون بمحمد ﷺ، ولا بكتابه، ويوجهون إلى شخصه الكريم، وكتابه العظيم، جملة من المطاعن تنبئ عن داء دفين، وحقد كمين، والمنصفون منهم يعترفون بعظمته، ولا يؤمنون بنبوته، فمن ثم أجاز لنا أن ننكح نساءهم ولم يجز لهم أن يتزوجوا نساءنا، هذه حكمة .

وحكمة ثانية وهى: أن الإسلام دين التسامح لا يجيز إكراه أى شخص على اعتناقه

وهو يعتمد في نشر دعوته على الإقناع بالحجة والبرهان، قال الله تعالى ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾(البقرة:٢٥٦) وعلى حين يتزوج المسلم بكتابية، ولا يفكر فى إكراهها على مفارقة دينها بل يدعها حرة فى عقيدتها، ولكن الكتابى إذا تزوج مسلمة يحاول إخراجها عن دينها بمختلف الوسائل(١) ولو بالتهديد .

وقد تزوج فرنسيون بمسلمات جزائريات ـ أيام استعمارهم للجزائر ـ فأخرجوهن عن دينهن، بترغيب مشوب بترهيب .

وحكمة ثالثة: وهى أن الكتابى لا يؤتمن على امرأته المسلمة، فهو يظلمها، ويهضمها حقها، لأنه يعتقد أن إذاية شخص على غير دينه يتقرب بها إلى الله تعالى، لكن المسلم لا يظلم امرأته الكتابية لأن دينه يأمره بالعدل، ويحرم عليه أن يظلم أحداً مسلماً كان أو غيره .

وحكمة رابعة وهى: أن الإسلام أعدل الأديان وأكملها، لصحة عقيدته فى الله سبحانه، وإيجابة الأيمان بجميع الأنبياء، وباعتقاد عصمتهم من المعاصى والذنوب وسائر الأديان سواه ناقصة لفساد اعتقادها فى الله، بنسبته إلى التثليث أو الأثنينية، أو نسبة الولد إليه، أو تشبيهه بخلقه، تعالى عن ذلك علو كبيرا، يتبع ذلك فساد اعتقادها فى الأنبياء، بنسبة المعاصى إلى بعضهم، أو إنكار نبوة بعضهم الآخر، فلو تزوج كتابى بمسلمة، لزم أن يستعلى ناقص الدين على كاملته، ويتحكم فيها وفى عواطفها، والله لا يرضى لكامل الدين أن يستكين لناقصه، ويستسلم له .

ولهذا حرم على المسلمين أن يستكينوا للمستعمر، ويستذلوا له وأوجب عليهم جهاده ومقاومته، باللسان والمال والسلاح، ووعد من استشهد منهم فى هذا الميدان بالجنة والرضوان ومن عاش بالعزة والغلبة، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(المنافقون:٨) .

وإذا ولدت الكتابية من زوجها المسلم فالأولاد مسلمون تبعاً لأبيهم حسب القاعدة الشرعية، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، ولا يجوز أن تتبع البنت أمها فى دينها، والمسلم الذى يرضى بذلك، يكون خارجاً عن دينه مرتداً، لأنه رضى لبنته أن تعتنق ديناً غير دينه، وأما زواج المسلمة بالكتابى ـ لو وقع ـ فلا ينعقد ولا يصح، وتكون معاشرتهما زنا، والأولاد الذين يأتون من تلك المعاشرة أولاد زنا، هذا حكم الإسلام، وتلك حكمة .

---

(١) والشواهد على ذلك كثيرة أقربها: أن نظلة أم الملك فاروق تزوجها طبيب أمريكى فأخرجها عن دينها فهى الآن نصرانية، وبنتها فتحية تزوجها قبطى مصرى بدعوى أنه أسلم، ثم تبين عدم إسلامه فحملها على أن تنصرت معه، وأخذا مالها وفارقها .

أشد آية فى القرآن

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(آل عمران: ١٣٠-١٣١) قال الإمام أبو حنيفة - رحمه الله تعالى -: هذه الآية أخوف آية فى القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه .

قلت: فالعجب من بعض العلماء الذين يتحايلون لإباحة صور من الربا، بعد سماعهم للآية الكريمة. وفي سورة الزمر آية مثل هذه فى الشدة، إن لم تكن أشد منها هى قوله تعالى ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾(الزمر: ٤٧) قال الزمخشرى: وعيد لهم - للذين ظلموا - لا كنه لفظاعته وشناعته، وهو نظير قوله تعالى فى الوعد ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ ﴾(السجدة: ١٧) وجزع محمد بن المنكدر عند موته، فقيل له، فقال: أخشى أن يبدو لى من الله ما لم أحتسبه، أى ما لم أظنه. قلت: وهذه والله قاصمة الظهر، نسأل الله العفو والعافية .

وآية ثالثة مثل سابقتها، وهى قوله تعالى ﴿ وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾(المائدة: ٦٢-٦٣) عبر فى المسارعين إلى الآثم وأكل السحت بجملة ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وعبر فى التاركين لنهيهم بجملة ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ قال الزمخشرى: كأنهم جعلوا آثم من مرتكبى المناكير لأن كل عامل لا يسمى صانعاً، ولا كل عمل يسمى صناعة، حتى يتمكن فيه، ويتدرب وينسب إليه. وكأن المعنى فى ذلك: أن مواقع المعصية، معه الشهوة التى تدعوه إليها. وأما الذى ينهاه فلا شهوة له فى فعل غيره، فإذا فرط فى الإنكار، كان اشد حالاً من المواقع، ولعمرى أن هذه الآية مما يقذ السامع، وينص على العلماء توانيهم .

وعن ابن عباس ﷺ: هى أشد آية فى القرآن .

وعن الضحاك: ما فى القرآن آية أخوف عندى منها .

وتوضيح ذلك أنه حيث ذم ترك الإنكار على مرتكبى المناكير، معبراً عنه بالصناعة كان هذا الذم أشد من سابقه لأنه جعل ما ذموا به صناعة لهم، وحرمة لازمة، وهم فيها أمكن من أصحاب المناكير فى أعمالهم. وهذا وجه الأشدية التى أشار إليها ابن عباس ﷺ، والأخوفية التى ذكرها الضحاك .

وفى سورة التوبة: آية شديدة أيضاً. وهى قولَه تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾(التوبة: ٢٤) .

قال الحسن: أمره عقوبة عاجلة أو أجلة. قال الزمخشرى: وهذه آية شديدة. لا ترى أشد منها. كأنها تنعى على الناس ما هم فيه من رخاوة عقد الدين. واضطراب حبل اليقين. فلينصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه. هل يجده عنده من التصلب فى ذات الله. والثبات على دين الله. ما يستحب لَه دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ؟ ويتجرد منها لأجله ؟ أم يزوى الله عنه أحقر شىء منها لمصلحته، فلا يدرى أى طرفيه أطول ؟ ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين، فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيرة ؟!

****

من لطائف اللغة

كلمة قد: دخلت على الفعل المضارع، كانت فى بعض الأحيان بمعنى ربما. فوافقتها فى خروجها إلى معنى التكثير فى نحو قولَه:

فان تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود

أى فكثير أقام بالفناء وفود بعد وفود، مثال إفادة " قد " للتكثير قولَه تعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾(البقرة: ١٤٤) .

قال الزمخشرى: قد نرى: ربما نرى. ومعناه: كثرة الرؤية، كقوله: قد أترك القرن مصفراً أنامله. أى كثيراً أترك القرن مصفر الأنامل. كناية عن قتله. والقرن بكسر القاف كفؤك فى الشجاعة. قال ابن المنير تعليقاً على قول الزمخشرى: هذا من المواضع التى تبالغ العرب فيها بالتعبير عن المعنى بضد عبارته. ومنه ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾(الحجر ٢) والمراد: كثرة مودتهم للإسلام يوم القيامة عند معاينة جزائه وثوابه. وقوله تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾(الأنعام ٣٣) قال الزمخشرى: ﴿ قَدْ ﴾ بمعنى ربما الذى يجىء لزيادة الفعل وكثرته. كقوله:

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائلة

أى: ولكنه كثيراً يهلك المال نائله: أى عطاؤه.

قال ابن المنير: ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾(الصف: ٥) فإنه يكثر علمهم برسالته، ويؤكده ظهور آياته حتى يقيم عليهم الحجة في جمعهم بين متناقضيه أذيته ؛ ورسوخ علمهم برسالته. والغرض التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه تنبيهاً على انه بلغ الغاية التى ما بعدها إلا الرجوع إلى الضد. وذلك من لطائف لغة العرب وغرائبها. وكذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾(النحل:١٠٣) ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً ﴾(النور:٦٣) ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾(النور: ٦٤) ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾(الأحزاب:١٨) فكلمة ﴿ قَدْ ﴾ فى هذه الآيات تفيد التكثير وتأكيد العلم. عكس ما هو معروف من إفادتها التقليل إذا دخلت على الفعل المضارع .

والنكتة في ذلك هى التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه، كما مر فى كلام ابن المنير.

أما قوله تعالى ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾(الحجر: ٢) فقيل: ربما فيه التكثير كما مر. واختلف فى توجيهه .

وقيل: للتقليل لأن أهوال القيامة تدهشهم، فيبقون مبهوتين، فإن أفاقوا من سكراتهم فى بعض الأحيان تمنوا لو كانوا مسلمين، راجع تفسير الكشاف وما كتب عليه .

****

زلـــــــــة

قال الله تعالى ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ ربطنا عظامهم موصولين بعضها ببعض. ووثقنا مفاصلهم بالأعصاب ﴿ وَإِذَا شِئْنَا ﴾ أهلكناهم ﴿ بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ ﴾(الإنسان: ٢٨) فى شدة الأسر يعنى النشأة الأخرى .

وقال الزمخشرى: وقيل ومعناه بدلنا غيرهم ممن يطيع، وحقه أن يجيء بأن لا بإذا، كقوله ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾(محمد: ٣٨) ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾(فاطر: ١٦) .

قلت: هذه ذلة لا تليق منه، وحقه إذ لم يهتد للنكتة فى إيثار التعبير بإذا: أن يكل أمرها إلى الله يهدى الذى يفتح بها على من يشاء من عباده، كما فتح عليه فى تفسيره بدقائق لم يسبق إلى كثير منها .

وإذ جاءت هنا لتحقيق القدرة كما قال البيضاوى. يعنى: لما كان تبديل غيرهم متحققاً فى القدرة، ميسوراً لها آتى بإذا. بينا لذلك. ألا ترى إلى قوله ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ

جَدِيدٍ (فاطر:١٦) كيف أتبعه بقوله تعالى ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾(فاطر:١٧)[1] ليبين به تحقيق القدرة وأن الآتيان بخلق جديد، سهل ميسور، فكلمة إذا أفادت ما أفادته هذه الجملة .

****

لا غيبة لكافر

قال الله تعالى ﴿ وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ الخطاب موجه للمؤمنين، بدليل صدر الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾(الحجرات:١٢) يؤخذ منه أن الكافر لا تحرم غيبته، وعلى هذا المنوال جاءت الأحاديث، فقوله ﷺ للصحابة {أتدرون ما الغيبة ؟ } قالوا: الله ورسوله أعلم. قال { الغيبة ذكرك أخاك بما يكره } الحديث رواه مسلم، يريد بقوله أخاك: المؤمن .

وفى الصحيحين فى حديث حجة الوداع أن النبى ﷺ قال فى خطبته يوم النحر { أن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا } .

وفى صحيح مسلم قوله ﷺ { كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه } وفى سنن ابن ماجة بإسناد حسن: أن النبى ﷺ نظر إلى الكعبة فقال يخاطبها: { ما أعظم حرمتك وللمؤمن أعظم حرمة منك حرم الله دمه وماله وعرضه، وأن يظن به ظن السوء } فقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة على تحريم غيبة المؤمن، لأن إيمانه يحمى عرضه، كما يحمى دمه وماله بخلاف الكافر، فإنما يحميه العهد أو الأمان، أو الذمة، أى أن أحد هذه الثلاثة، يحمى دمه وماله أما اغتيابه فلا حرمة فيه، والله أعلم .

****

معنى البر والإحسان

سألنى الأستاذ أبو الخير نجيب عن تحديد معنى كلمة البر تحديداً لغوياً دقيقاً ؟ ما الفارق بينها وبين كلمة الإحسان ؟ وهل هما متساويتان ؟

فأجبت: أما كلمة البر فمعناها بالتحديد هو الارتفاق والانتفاع. ومن هنا أطلقت على ما

(١) وكذلك قوله تعالى ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ أتبعه بقوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً ﴾(النساء: ١٣٣) .

هـو خـير، لأن الخـير يـرتفق بـه فاعله وينتفع، فمعنى بر الولد بوالديه: أن قدم لهما من الطاعة وحسن الانقياد لمطالبهما وخفض الجناح لهما، ما ارتفقا به وانتفعا، ومعنى البر بالمسكين أو اليتيم، نفعه بما يعطى من طعام أو ثياب، أو بما يناله من حنان وعطف، وقولهم: فلان بار، معناه: نافع لنفسه بطاعة الله تعالى، ونافع للخلق بالمعاملة الحسنة، وقوله تعالى ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ (البقرة:١٧٧)، ينفى ما تمسك به اليهود من خيرية استقبال بيت المقدس، حين حولت القبلة منه إلى الكعبة، لأنه بعد نسخة لم يبق فيه بر، ولكن البر الذى يجب التمسك به، ما كان نافعاً لفاعله وهو الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين واليوم الآخر وإقامة الصلاة والصبر فى البأساء والضراء والوفاء بالعهد، أو نافعاً لغيره وهو إيتاء المال لمن ذكروا فى الآية، وفى قوله تعالى ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾(البقرة:١٨٩) يفيد نفى البر عما كان يفعله العرب قبل الإسلام، وكانوا إذا أحرموا بحج أو عمرة يرون من تمام إحرامهم ألا يدخلوا بيوتهم من أبوابها، بل من ظهورها بأن ينقبوها، فأخبر الله تعالى أنه ليس من البر، لأنه لا نفع لهم فيه ولكن البر الذى ينفعهم هو بر من اتقى، لأن التقوى سبب السعادة، ويقول الناس: بر نفسك، أى أنفعها، وهذا الغذاء لا بر فيه، أى: لا ينتفع به الجسم .

وأما الإحسان، فمعناه بالتحديد الإتقان، يقال: أحسن فلان بناء بيته إذا أتقنه، وقوله ﷺ { إن الله كتب الإحسان على كل شيء } معناه: أن الله كتب الإتقان على المكلفين فى كل شيء من أعمالهم، ولهذا ثبت فى الحديث الآخر { إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه } وقوله تعالى ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(البقرة:١٩٥) يفيد أمر المؤمنين بالجهاد فى سبيل الله ونهيهم عن الإخلال به لأن فيه هلاكهم باستيلاء العدو على بلادهم، وأمرهم بإتقان الجهاد وذلك بأن يخلصوا النية فيه لله تعالى، ويعدوا العدة له بالسلاح، وبالقيادة الرشيدة وإتقان الكلمة .

غير أن لفظة الإحسان وإن كان معناها الإتقان، فإنها تفيد نهايته وغايته، ومن هنا كان قول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩) يقتضى فضل الإحسان على المجاهدة، وزيارته عليها لأنه بعد أن وعد المجاهدين فيه بهدايتهم سبله، أخبر بمعيته للمحسنين، وهى تدل على شرف لم ينالوه إلا ببلوغهم نهاية الإتقان للمجاهدة فى ذاته، والإخلاص له، ولهذا كان مقام الإحسان أعلى

مقامات الدين الثلاثة، وهى الإسلام، وهو الانقياد الظاهرى. والإيمان وهو التصديق وما يتبعه من أعمال الباطن، وهو أعلى من سابقه، والإحسان الذى هو عبادة الله على المراقبة، أو المشاهدة. وهما يقتضيان نهاية إتقان العبادة، فمن ثم كان الإحسان أرقى مقامات الدين .

* * * * * * *

المبشرون بالجنة

بشر النبى ﷺ جماعة الصحابة رجالا ونساء بأنهم من أهل الجنة. وقد عن لى أن أذكر أسماءهم فى هذا المكان. قاصداً استيعابهم ما أمكننى من الجهد. غير متقيد بصحة الحديث. بل أذكر كل من وردت بشارته ولو فى حديث ضعيف. ولم أذكر شخصية ذكراً فى المبشرين بالجنة. لأنى جازم بأن الحديث الوارد فيهما موضوع. وهما أبو سفيان بن صخر بن حرب، وابنه معاوية[1] فإن النواصب أعداء على وأهل البيت عليهم السلام، لما يجدوا ما يعيبون به علياً وأهل بيته، عمدوا إلى محاربة وعدوه، فوضعوا فيه أحاديث تدل على فضله وفضل أبيه وأهل بيته، لكنهم لم يحسنوا الوضع فافتضحوا وكشف جهابذة الحديث كذبهم على رسول الله ﷺ وسيتبوؤن مقعداً فى جهنم، كما ثبت فى الحديث المتواتر لفظه ومعناه .

وهذه أسماء المبشرين بالجنة جعلنا الله من أهلها:

العشرة: قال رسول الله ﷺ { أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلى فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة } رواه أحمد والضياء المقدسى عن سعيد بن زيد، ورواه الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف .

فاطمة عليها السلام: قال النبى ﷺ { فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران } رواه الحاكم عن أبى سعيد الخدرى .

---

(١) أما أبو سفيان فذكروا أنه حضر غزوة الطائف. وأن أهلها تحصنوا داخل حصن هناك. ورموا المسلمين بالنبل فأصيب أبو سفيان فى عينه. فذهب إلى النبى ﷺ وعينه فى يده فقال: يا رسول الله هذه عينى أصيبت فى سبيل الله فقال النبى ﷺ { إن شئت دعوت فردت عينك وإن شئت فعين فى الجنة } قال: فالجنة. وهذا كذب محض. وأبو سفيان لم يحضر غزوة. ولم تصب عينه قط. وأما أبنه معاوية فذكروا فى فضله حديث السفرجلات الثلاثة المكذوب على مالك. وذكروا أيضا أن النبى ﷺ قال له { يا معاوية أنت منى وأنا منك لتزاحمنى على باب الجنة كهاتين } وأشار بإصبعيه الوسطى والتى تليها. وهذا كذب مكشوف. وحديث السفرجلات ذكره أمين الخولى فى كتابه الذى ألفه عن الإمام مالك. معتقدا أنه حديث صحيح. وهى سقطة شنيعة منه. فالحديث منبه على كذبه فى كتب الموضوعات .

الحسن والحسين عليهما السلام: قال النبى ﷺ { الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا أبنى الخالة عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم[1] بنت عمران } رواه أحمد وأبى يعلى وابن حبان والطبرانى والحاكم وله طرق .

خديجة ﵂: ثبت فى الحديث الصحيح أن جبريل ﵇[2] بلغها السلام من الله، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب .

بلال ﵁: فى الصحيحين عن أبى هلال ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ { يا بلال حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام فإنى سمعت دف نعليك فى الجنة أمامى } الحديث وهو فى فضل صلاة ركعتين بعد الوضوء .

ثابت بن قيس بن شماس ﵁: فى الصحيحين عن أنس قال: لما نزل قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾(الحجرات:٢)، اعتزل ثابت فى بيته، فتفقده النبى ﷺ فأخبر بشأنه، فدعاه فسأله ؟ فقال: يا رسول الله نزلت هذه الآية وأنا رجل جهير الصوت، فأخاف أن يكون حبط عملى، فقال له رسول الله ﷺ { إنك تعيش بخير وتموت بخير وأنك من أهل الجنة } زاد أحمد والطبرانى: فقال أنس: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة .

قلت: ومات شهيداً فى حرب الردة على عهد أبى بكر ﵄ .

عمار بن ياسر وأبوه وأمه سمية: ثبت فى كتب السيرة: أن النبى ﷺ كان يمر بهم وهم يعذبون بمكة على الإسلام فيقول لهم { صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة } وثبت فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ قال: { ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار } وقتل يوم وقعة صفين وكان فى جيش على ﵄ .

عبد الله بن سلام: فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص ﵁ قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض { إنه من أهل الجنة } إلا لعبد الله بن سلام.

عكاشة بن محصن ﵁: فى الصحيحين عن ابن عباس ﵄ فى حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب فقال عكاشة يا رسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم فقال { أنت منهم } فقام آخر، فقال: أدع الله أن يجعلنى منهم: فقال { سبقك بها عكاشة } .

---

(١) أى فهى تساويها لأنها أم نبى، فاطمة بنت نبى، وكلتاهما صدّيقتان، بتشديد الدال .
(٢) بلغها ذلك بواسطة النبى ﷺ .

أبـو سـفيان بـن الحـارث بـن عـبد المطلـب: جاء فى كتب السيرة عنه قال: لما لقينا العـدو بحـنين، اقتحمت عن فرس، وبيدى السيف مصلتا، والله يعلم أنى أريد الموت دونه ـ يعـنى النبى ﷺ ـ وهو ينظر إلىّ، فقال لَه العباس: يا رسول الله أخوك وابن عمك أبو سفيان فـارض عـنه، فقـال: { غفـر الله لَه كل عداوة عادانيها } ثم التفت إلىَّ وقال { يا أخى } فقبلـت رجله فى الركاب. وقال ﷺ فى حقه { أبو سفيان بن الحارث من شبان أهل الجنة أو من فتيان أهل الجنة } وأبو سفيان هذا كان ابن عم النبى وأخاه فى الرضاعة

عكـرمة بن أبى جهل: جاء فى بهجة المجالس، للحافظ ابن عبد البر: أنه ﷺ رأى فـى مـنامه أنـه دخـل الجـنة، ورأى فـيها عذقـاً فأعجـبه. وقـال { لمن هذا؟ } فقيل لأبى جهـل، فشـق ذلـك عليه ﷺ وقال { لا يدخلها إلا نفس مؤمنة } فلما جاءه عكرمة مسلماً، فـرح بـه وأول ذلـك العـذق لعكرمة، وكان عكرمة قبل إسلامه بارز رجلاً من المسلمين فقتله، فضـحك النـبى ﷺ فقـال لَـه بعض الأنصار: ما أضحكك يا رسـول الله وقد فجعنا بصاحبنا ؟ قال: { أضحكنى أنهما فى درجة واحدة فى الجنة } .

قلت: أسلم عكرمة عام الفتح، وحسن إسلامه، ثم استشهد فى وقعة اليرموك ﷺ.

عـتاب ابـن أسـيد: فى تاريخ مكة للأزرقى: أن النبى ﷺ قال { لقد رأيت أسيد فى الجـنة وأتـى يدخـل أسـيد الجـنة ؟ } فعـرض لَه عتاب بن أسيد، فقال ﷺ { هذا الذى[1] رأيـت أدعـوه لى } فدعـى لَـه، فاسـتعمله يؤمئذ على مكة. قال سبط ابن الجوزى: استعمل النبى ﷺ عتاب بمن أسيد على اهل مكة، لما خرج إلى حنين، وعمره ثمانى عشرة سنة.

أم أنس ﷺ: جاء فى كتب السيرة الحلبية عن أنس ابن مالك قال: قال النبى ﷺ { دخلت الجنة فسمعت خشخشة فقلت: من هذا ؟ فقالوا: هذه العميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك } .

عـبد الله بـن أنـيس: جـاء فى كتب السيرة: أن النبى ﷺ بعثه لقتل سفيان بن خالد الهـذلى اللحـيانى الـذى جمـع الجمـوع لحـرب رسـول الله ﷺ فذهب إليه وقتله وجاء برأسه حـتى وضعه بين يدى رسـول الله ﷺ، فدفع لَه عصا، وقال: { تخصر بهذه فى الجنة فإن المتخصرين فى الجنة قليل } وكان يقال لَه: ذو المخصرة بكسر الميم كما فى القاموس .

دحـية الكلـبى ﷺ: لمـا أراد النـبى ﷺ أن يبعـث كـتاباً إلى هـرقل يدعـوه إلى الإسلام قال { من ينطلق بكتابى هذا فيسير إلى هرقل وله الجنة } فقال دحية: أنا يا رسـول الله. فدفعه إليه.

---

(١) أى هذا تأويل الذى رأيت. لأن أسيد كان مشركاً وأبنه عتاب مسلم. والله تعالى أعلم .

أنس بن مالك ﷺ: جاء فى كتب السيرة عنه، قال: دخل رسول الله ﷺ علينا وما هو إلا أنا وأم حرام خالتى، فقالت أمى: يا رسول الله خويدمك أنس أدع الله له، فدعا لى بكل خير. وكان فى آخر ما دعا { اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه وأطل عمره وأجعله رفيقى فى الجنة } فكان أنس يقول ـ بعد أن طال عمره وكثر ماله وولده ـ وأنا أرجو هذه، يعنى مرافقته ﷺ فى الجنة .

زيد بن صوحان: روى ابن عدى والبيهقى: أن النبى ﷺ قال ـ فى زيد بن صوحان العبدى ـ { يسبقه عضو من أعضائه إلى الجنة } فقطعت يده فى الجهاد .

مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى ﷺ: جاء فى سنن سعيد بن منصور وكتب السيرة: أن النبى ﷺ لما جرح فى وجهه يوم أحد، مص مالك بن سنان جرحه حتى أنقاه، ولاح بعد المص أبيض فقال { مجه } فقال: لا والله ولا أمجه أبداً، ثم ازدرده، فقال النبى ﷺ { من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا } فاستشهد يومئذ بأحد ﷺ

عبد الله بن الزبير: روى الشعبى قال: هاج الدم برسول الله ﷺ فحجمه أبو طيبة، فقال { اشكموه } فأعطوه ديناراً، وقال لابن الزبير { واره } يعنى الدم، فتوارى ابن الزبير فشربه، فبلغ النبى ﷺ فعله فقال { أما إنه لا تصيبه النار أو لا تمسه النار } .

صفية بنت عبد المطلب: روى الترمذى وغيره أن صفية أم الزبير بن العوام، قالت: يا رسول الله أدع الله أن يدخلنى الجنة، فقال لها مداعباً { يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز } فجزعت، فقال لها { إنك تعودين إلى صورة الشباب فى الجنة إن الله تعالى يقول ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ﴾(الواقعة: ٣٥-٣٦) } .

حفصة أم المؤمنين: روى ابن سعد عن قيس بن زيد: أن رسول الله ﷺ طلق حفصة، فقال { أتانى جبريل فقال لى: راجع حفصة فإنها صوامة قوامة وهى زوجك فى الجنة } رواه الحاكم من حديث أنس نحوه، والبزار والطبرانى من حديث عمار .

عمير ابن الحمام ﷺ: فى صحيح مسلم عن أنس فى حديث غزوة بدر: أن النبى ﷺ قال { قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض } فقال عمر بن الحمام: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال { نعم } قال: بخ بخ. فقال النبى ﷺ { ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ } فقال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: {فإنك من أهلها } وذكر الحديث وفى آخره: أنه استشهد فى ذلك اليوم .

أنس بن مرثد الغنوى رضي الله عنه: روى أبو داود والنسائى عن سهل بن الحنظلية: أنهم ساروا مع النبى ﷺ يوم حنين فأطنبوا السير حتى كان عشية. فحضرت صلاة الظهر مع رسول الله ﷺ فجاء فارس فقال: يا رسول الله أنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت على جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم ونسائهم اجتمعوا إلى حنين. فتبسم رسول الله ﷺ وقال { تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى } ثم قال { من يحرسنا الليلة ؟ } قال أنس بن أبى مرثد الغنوى: أنا يا رسول الله. فقال له { اركب } فركب فرساً له. وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له { استقبل هذا الشعب حتى تكون فى أعلاه ولا نغرن من قبلك الليلة } فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه. فركع ركعتين ثم قال: { هل أحسستم فارسكم؟ } قالوا: يا رسول الله ما أحسسناه فثوب بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلى وهو يلتفت إلى الشعب. حتى إذا قضى صلاته وسلم. قال { أبشروا فقد جاء فارسكم } فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر فى الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف رسول الله ﷺ فقال: إنى انطلقت حتى كنت فى أعلى هذا الشعب، حيث أمرنى رسول الله ﷺ، فلما أصبحت اطلعت الشعبين فنظرت فلم أرى أحداً. فقال رسول الله ﷺ { هل نزلت الليلة ؟ } قال: لا. إلا مصلياً أو قاضى حاجة، فقال له النبى ﷺ { وقد أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعدها } قوله: أوجبت، معناه: أوجبت الجنة لنفسك بحراستك لجيش المسلمين.

سعد بن مالك الأنصارى رضي الله عنه: ثبت فى الحديث الصحيح عن أنس وعبد الله بن عمر أنهم كانوا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال لهم { يطلع الآن رجل عليكم من أهل الجنة } فطلع سعد بن مالك تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال. ثم قال لهم فى اليوم الثانى واليوم الثالث { يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة } فطلع سعد أيضاً فى المرتين. فتتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، وبات عنده ثلاث ليالى فلم ير عنده كبير عمل. فذكر له الحديث. وسأله عما بلغ به تلك المنزلة ؟ فقال له سعد: لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله أياه. فقال عبد الله: هذه التى بلغت بك. وهى التى لا نطيق.

سعد بن معاذ رضي الله عنه: لما ذهب خالد بن الوليد إلى دومة الجندل. وأسر رئيسها أكيدر بن عبد الملك وكان عليه قباء من ديباج مخوص ـ فيه مثل خوص النخل ـ منسوج بالذهب فأخذه خالد منه. وبعث به إلى النبى ﷺ فتعجب الصحابة منه. فقال النبى ﷺ { لمنديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن منها }.

أبـو الدحـداح ﷺ: في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة ﷺ عن النبي ﷺ قال { كم من عذق معلق لأبي الدحداح في الجنة } .

غـلام حجـام: روى ابـن حـبان ابن عباس قال: حجم النبي ﷺ غلام لبعض قريش، فـلما فـرغ من حجامته أخذ الدم، فذهب به من وراء الحائط فنظر يميناً وشمالاً فلم ير أحد، فحسـاه: أي شربه حتى فرغ، ثم أقبل. فنظر ﷺ في وجهه فقال { ويحك ما صنعت به } قال: غيبته في بطني. فقال ﷺ { أذهب فقد أحرزت نفسك من النار } .

أعـرابي نجـدي: عـن ابـن عمـر: أن النـبي ﷺ مـر بخـباء أعرابي وهو في أصحابه يـريدون الغـزو، فقـال الأعرابي: من القوم ؟ فقيل: رسول الله وأصحابه يريدون الغزو، فعمد إلى بكـر لـه فاعـتقله وسـار معهـم. فجعـل يدنـو ببكره إلى رسـول الله ﷺ. وجعل أصحابه يـذودون بكره عنه. فقال رسول الله ﷺ { دعوا لي النجدي فوالذي نفسي بيده أنه لمن ملوك الجنة } قال: فلقوا فاستشهد. وذكر الحديث . رواه البيهقي .

رجـل في سنن الترمذي عن عائشة: أن النبي ﷺ بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصـحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا اتاهم النبي ﷺ، أخبروه الخبر، فقـال { يـا فلان ما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة ؟ } قال: إني أحبها: فقال ﷺ { حبك إياها أدخلك الجنة } .

رجـل آخر: في الموطأ عن أبي هريرة، قال: كنت مع رسول الله ﷺ ماراً ببعض طرق المديـنة. فسـمع رجـلا يقـرأ: قـل هـو الله أحـد. فقـال { وجبت } فقلت يا رسـول الله ما وجبت ؟ قال { الجنة } .

فـتى: روى الحاكم عن ابن عباس ﷺ قال: لما أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾(التحريم: ٦) تلاها رسـول الله ﷺ ذات يـوم عـلى أصـحابه فخـر فـتى مغشـياً عليه. فوضع النبي ﷺ يده على فـؤاده. فإذا هو يتحرك، فقال رسول الله ﷺ { يا فتى قل: لا إله إلا الله } فقالها. فبشره بالجـنة. فقال أصحابه: أمن بيننا يا رسول الله ؟ فقال: أو ما سمعتم قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾(ابراهيم: ١٤) .

امـرأة سـوداء: في الصحيحين عن عطاء بن رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة مـن أهـل الجـنة؟ فقلت: بلى. قال هذه المرأة السوداء. أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني

اصـرع وأنى أتكشف فادع الله لى. قال { إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعفيك } فقالت: أصبر. فقالت: إنى أتكشف. فادع الله لى أن أتكشف. فدعا لها .

مسكينة أم بنتين: عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتنى مسكينة تحمل البنتين لها. فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة. ورفعت إلى فمها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها. فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما. فأعجبنى شأنها فذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ فقال { إن الله قد أوجب لها بهما الجنة } أو {أعتقها بهما من النار } .

نسأل الله أن يعتقنا من النار ببركة نبينا المختار ﷺ وعلى آله الأبرار .

هذا تمام الجزء الأول من الخواطر الدينية أو القطوف الدانية. ونستغفر الله مما حصل لنا فيها من خطأ وسهو، فإننا اعتمدنا فى كتابتها على مجرد الذاكرة، ولم يتيسر لنا الاطلاع على شيء من المراجع، إلا مراجع قليلة لا يكاد عددها يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة .

والله المسئول أن يعمنا بعفوه وعافيته وغفرانه إنه قريب مجيب .

تم بحمد الله الجزء الأول
من كتاب خواطر دينية
يليه الجزء الثانى
ويبدأ بباب: اتحاد البلاد الإسلامية فى الصوم .

الفهـــــرس

الفهـــــــرس

الفهـــــــــرس

مكتبة القاهرة

على يوسف سليمان وأولاده

١٢ ش الصنادقية بالأزهر ت: ٥٩٠٥٩٠٩

١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت: ٥١٤٧٥٨٠

ص . ب :٩٤٦ العتبة ـــ القاهرة

جمهورية مصر العربية

